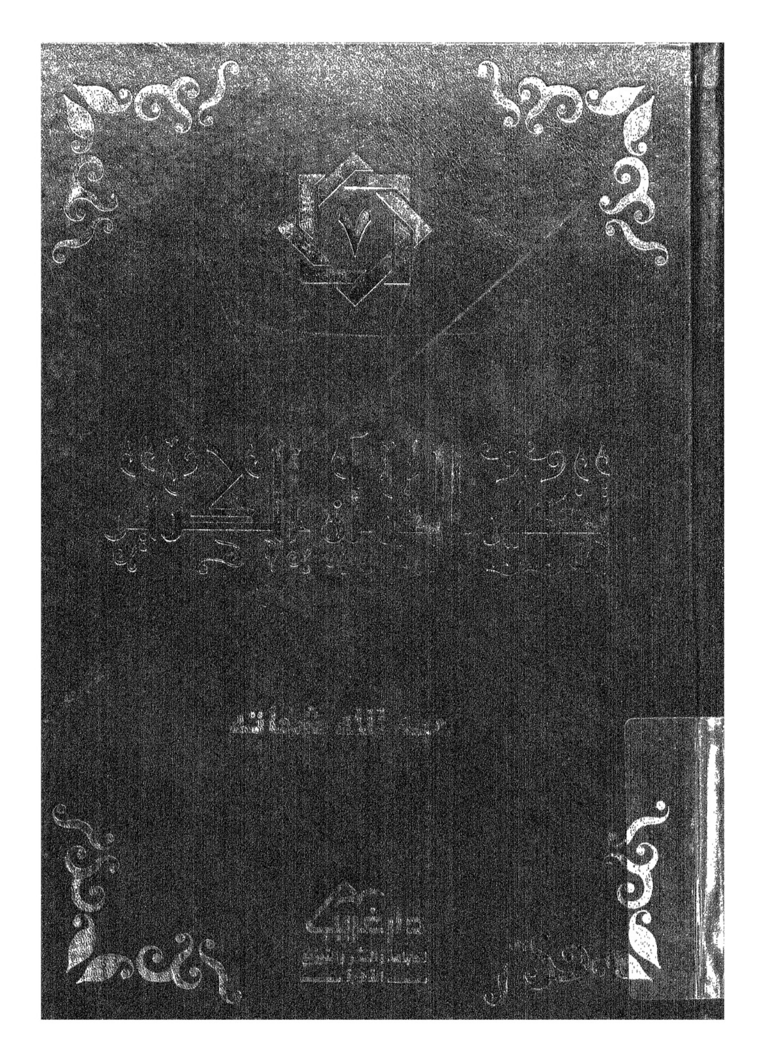


إهـــــــداء 2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير:

٥٣- وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

هذه الآية يُحتمل أنها من كلام امرأة العزيز بعد أن اعترفت بأنها راودت يوسف عن نفسه؛ واعترفت بأنه من الصادقين .

قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَاْ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ .(يوسف : ٥١، ٥٢) .

ثم قالت امرأة العزيز : وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : أننى لست ملاكا ، بل أنا بشر فيه الضعف ، وفيه وسوسة النفس والهوى ، والنفس أمارة بالسوء، داعية إلى الهوى ، إلا من عصمه الله بالتقوى والإيمان ، مثل : يوسف ، وإنى أتوب إلى الله وأرغب فى فضله ورحمته ومغفرته ؛ إن ربى غفور رحيم ؛ لمن تاب وأناب ، وهذه الآية يحتمل أن تكون من كلام يوسف الصديق ، والمعنى : لا أزكى نفسى ولا أنزهها ، فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات ، إلا من رحمه الله بالعصمة ، إن ربّى واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ؛ قال ذلك يوسف ؛ تواضعا، وهضما لنفسه .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

أستخلصه لنفسى : أجعله خالصًا لى ، أى : خاصًا بى .

مكين أمين : ذو مكانة رفيعة مؤتمن على كل شىء .

حفيظ عليم : قوى الحفظ ، كثير العلم .

التفسير:

٥٤- وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ...

أى : ولما ثبتت براءة يوسف ، مما نسبته إليه امرأة العزيز ؛ ارتفع قدره عند الملك ، وطلب أن يخرج من السجن ، وأن يُقرَّب إلى الملك ، وجعله مستشارًا ، وأمينا ، ومساعدًا له فى تدبير أمور مملكته ، وكان صاحب مكانة خاصة عنده .

وإذا نظرت إلى طلب الملك حضور يوسف ؛ فإنك تراه أولا قال : ٱئْتُونِى بِهِۦ . ولم يزد على ذلك .

فلما ظهر إباؤه ، ووضحت أمانته وعفّته فى قصة امرأة العزيز ، وظهر تجلده وصبره على السجن ، إلى أن تثبت براءته ؛ ازداد تعلق الملك به ، وعظمت منزلته عند الملك ؛ فطلبه ؛ ليكون من خلصاء الملك ، بحيث لا يكون لأحدٍ سلطان عليه سواه ، وذلك بقوله : ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى .

وهكذا يرفع الله أهل العلم والأمانة والعفة درجات عالية .

فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .

فلما حضر يوسف مقابلة الملك ، وتبين للملك من الكلام معه رجحان عقله ، واتّساع مواهبه ، ومعرفته بتأويل الأحلام ؛ والاستعداد للأحداث وفى تفسير النسفى : أنه أعاد عليه تفسير الرؤيا ، وما ينبغى الاحتياط به ؛ للتغلب على جفاف النيل ، ولبيع الزرع والثمار للبلاد المجاورة ، وكيف تعبر بلاد مصر المحنة ، وفى رصيدها فائض من الزّراعات ، وأثمان المبيعات ، وما يعرف بالتجارة الخارجية .

٥٥- قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

أى : مكنِّى من إدارة خيرات مصر : زراعة ، وحصادًا ، وإيرادًا ، وصرفًا ، وبيعًا ، وخزنًا ، وتدبيرًا ، فإنى حَفِيظٌ . لأرض مصر وخراجها من التبذير والتقتير ، والإفراط والتفريط ، عَلِيمٌ . ذو علم بوجوه التصرف فيها والحفظ لها وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية إذا كان طالبها على أهلية متميزة ، ومقدرة بإقامة العدل وإحقاق الحق .

وأما ما ورد فى الصحيح من النهى عن طلب الولاية ؛ فمحمول على ما إذا كان طالبها لا يقدر على القيام بتبعاتها ، والنجاة من مآثمها .

روى مسلم : عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة ؛ وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة ؛ أعنت عليها »[1] .

فإذا علم الإنسان أنَّه أقدر على تصريف أمور الإمارة ؛ فالأولى أن يطلبها ، وإذا علم أن هناك من يقوم بها ، ويصل لها سواه ؛ فالأولى ألا يطلبها ؛ لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الإمارة ... الحديث».

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات :

مكنا ليوسف فى الأرض : جعلنا له فى أرض مصر مكانة رفيعة أقدرناه بها على ما يريد .

يتبوأ منها حيث يشاء : ينزل من بلادها ومن أمورها وقلوب أهلها ، حيث يشاء .

نصيب برحمتنا : نجود بنعمتنا .

التفسير :

٥٦- وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ ...

وهكذا مكّنا ليوسف فى أرض مصر ، وجعلنا له العزّ والسلطان بعد المحنة والاتهام والسجن ، وأصبح طليق اليد فى أرض مصر ، وشملها سلطانه ، فكأنها منزله ؛ يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله ومكانه ، وكان ذلك بعدل وحكمة .

روى : أن الملك لما فوض أمر مصر إلى يوسف ، تلطف يوسف بالناس ، وكان يدعوهم إلى الإسلام ، ويقيم فيهم العدل ؛ فأحبَّه الناس ، وكانت له بذلك منزلة رفيعة بينهم .

نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ . نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ، وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ . الذين يحسنون الإيمان بالله والتوكل عليه ، والالتجاء إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس .

٥٧- وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ .

وثواب الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، ورضوان الله ورحمته ، خير وأفضل كثيرا من ثواب

الدنيا، للذين آمنوا واطمأنوا فى إيمانهم إلى ربهم ؛ فاتقوا الله وأخلصوا له العمل ، وهكذا عوّض الله يوسف على صبره وإيمانه ؛ الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة .

٥٨- وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ .

كان القحط الذى حل بمصر فى السنين العجاف ؛ قد أصاب المنطقة كلّها ، وامتدَّ إلى أرض كنعان بالشام ، وتسامع الناس بأخبار يوسف ، وعرفوا أنه خزَّن الحبوب ، والقمح فى سنابله ، وأنه يوزّعها بعدل ورحمة ، فلا يعطى الطعام لمن يدفع الثمن الأكثر ، بل يعطى لكل فرد قدرًا معينا على مقدار حاجته ، وحاجة من يشترى لهم ، لعلَّه مقدار حمل بعير .

وكان يوسف يشرف على التوزيع بنفسه ؛ ضمانا للعدالة والدِّقة ، وجاء أخوة يوسف ؛ امتثالا لأمر أبيهم ، فدخلوا عليه فعرفهم ، فهم لم يتغيروا كثيرًا . أما هو فقد تغيَّر ؛ فقد ألقوه فى الجب صغيرا ، لكنَّه الآن ملكًا متوجًا ، فى حاشية وخدم ، وقد تزيًّا بزىِّ أهل مصر ، وعليه مظاهر النعمة والسلطان .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفردات :

جهزهم بجهازهم : أعد لهم حاجتهم من الطعام الذى حضروا لجلبه من مصر فى السنين العجاف ، والجهاز فى اللغة : ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت . وتجهيزه : إحضاره . وقد أجمع القراءُ على فتح الجيم فى الآية الكريمة ، ويجوز فيها الكسر لغة وإن كان الفتح أشهر .

خير المنزلين : أى : خير المضيفين – مأخوذ من النُّزُل ، وهو الطعام الذى يقدم للضيوف الذين ينزلون. أو خير من ينزلون الناس فى منازلهم ، مأخوذ من المنزل بجهازهم ، وهو الدار.

سنراود عنه أباه : سنطلبه من أبيه ؛ ليرسله معنا .

التفسير:

٥٩- وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِنْ أَبِيكُمْ ...

استدرج يوسف إخوته فى الحديث عن أنفسهم ، وعن أبيهم ، وعن أخيهم بنيامين ، كما أنه أكرم وفادتهم، وقام بالواجب نحوهم ، ونحو دوابِّهم ، وجهّز لكل فرد منهم حمل بعير ، وهو مقدار يعطى للفرد فى المدة المحدودة ، أشبه ببطاقات التموين ، وبذلك تتم السيطرة على توزيع الغلال والحبوب طوال مدة المجاعة .

والمعنى :

ولما هيَّأ لهم الطعام والميرة وأعطى كل واحد منهم حمل بعير ، وما يحتاجون إليه فى سفرهم .

قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ . أى : أحضروا معكم فى المرَّة القادمة أخاكم بنيامين .

أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ .

أى : وقد رأيتم أنِّى أوفى الكيل فسأوفيه نصيبه ؛ حين يجىء معكم ، ورأيتم أنى أكرم النزلاء ؛ فلا خوف عليه ، بل سيلقى منِّى الإكرام المعهود .

٦٠- فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلاَ تَقْرَبُونَ .

أراد يوسف تهديدهم ؛ فتوعدهم بالحرمان من الكيل للطعام ، ومن إعطاء كل واحد منهم حمل بعيد، وتوعدهم بالحرمان من الضيافة : ما لم يحضروا معهم أخاهم بنيامين فى المرة القادمة ! .

جاء فى البحر المحيط :

والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام ، كان بوحى من الله ؛ وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه، ويستدعيه ، لكنّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ، ولتفسير الرؤيا الأولى .

٦١- قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ .

كانوا يعلمون أن حضور بنيامين ؛ شاقٌّ متعب لأبيهم ، خصوصا بعد غياب يوسف عنه ؛ لذلك قالوا: سنحاول إقناع أبيه ، بالسماح له بالحضور معنا ، وسنجتهد فى هذه المحاولة ، ونفعل كل ما نستطيع لإحضار بنيامين .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات :

فـتـيـانـه : غلمانه الكيالين ، جمع فتى .

بضـاعـتـهـم : ما جاءوا به من المتاع ؛ ليشتروا به الطعام .

فـى رحـالـهـم : فى أوعيتهم . قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء : رحل ، وللبيت : رحل .

انقلبوا إلى أهلهم : رجعوا إليهم .

التفسير :

٦٢- وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أراد يوسف أن يسدى إلى أسرته مكرمة ، وكانوا قد أحضروا معهم بضاعة من بلادهم : لتكون عوضا عن القمح .

روى عن ابن عباس : أنها كانت نعالا وأدمًا – أى : جلدا – ، وقيل : إنها كانت دراهم ودنانير ؛ فأمر يوسف غلمانه المختصين بالبيع وقبض الثمن قائلاً : اجعلوا المال أو البضاعة التى اشتروا بها القمح والحبوب فى أوعيتهم سرًا ، ولا تشعروهم أننى نزلت لهم عنها ؛ لعلهم يعرفون هذه المكرمة ، ويقدّرونها قدرها؛ حين يرجعون إلى أهلهم ؛ ويفاجئون بها فى متاعهم ، لعلهم يعودون إلىّ بأخيهم الذى طلبته منهم.

٦٣- فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ .

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم ، وأخبروه بقصتهم ، وقالوا : إن الملك ظنّنا جواسيس فأخبرناه بأسماء أسرتنا ، وأن لنا أخًا أصغر منا ؛ استبقاه أبوه معه ، فطلب منا إحضاره فى المرة القادمة ، وجعل حضوره شرطا لبيع الطعام لنا .

وتلطفوا مع أبيهم وقالوا : يا أبانا ، أرسل معنا أخانا بنيامين ؛ لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التى تكال لنا ، وسوف نحافظ عليه من أن يناله مكروه .

٦٤- قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ...

أثارت وعودهم بحفظ أخيهم ، ذكريات أليمة عند أبيهم ؛ حين عاهدوه بالمحافظة على يوسف وإرجاعه لهم ، ثم جاءوا فى المساء يبكون ، وادعوا : أن الذئب قد أكله ، فقال يعقوب لهم ، ألم تقدموا نفس الكلام عند أخذ يوسف ؟! ورجعتم بدونه ؛ فكيف آمنكم الآن على بنيامين ، بعد أن فعلتم ما فعلتم بيوسف ، وضمنتم لى حفظه ، ثم خُنتم العهد ؛ فلا آمن أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه .

فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . أى : اتركونى من تعهدكم بالحفظ ؛ لأنى ألجا إلى الله العلى القدير؛ فهو الذى أطلب منه الحفظ لولدى والرحمة لى .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات :

ولما فتحوا متاعهم : المقصود بمتاعهم : الأوعية التى فيها طعامهم وبضاعتهم ، وهى المعبر عنها سابقًا : برحالهم فى قول يوسف : ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ .

ما نبغى : أىُّ شىءٍ نبغيه ونطلبه أكثر من كرم العزيز برده الثمن إلينا وتوفيته الكيل لنا ؟! .

نمير أهلنا : أى : نجلب لهم المِيرَةَ وهى : الطعام ، من المَيْر وهو : جلب الطعام .

كيل بعير : أى طعامًا مكيلا مقداره : حمل بعير لأخينا بنيامين .

كيل يسير : مكيل سهل على عزيز مصر لا يمنعنا إياه لكرمه .

موثقا من الله : أى : عهدًا منكم مع الله تعالى ؛ يدعونى إلى الثقة بوفائكم له .

إلا أن يحاط بكم : أى : إلا أن تُغْلَبُواْ عليه .

وكـــــيـــــل : موكول إليه تنفيذ هذا الميثاق .

التفسير :

٦٥- وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ... الآية .

أى : وحين فتحوا أوعية طعامهم الذى اشتروه من عزيز مصر ، فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد ردّت إليهم معه .

ولعل يعقوب كان شاهدًا لهذه المفاجأة ؛ حيث وجد الطعام كاملاً ، وثمنه عائدا معه .

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى[٢] هَـٰذِهِ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .

أى : كيف لا نعجب ولا ندهش ، أو أى شىء نطلبه وراء هذا ، أكرمنا عزيز مصر ، ووفّى لنا الكيل ، وردّ علينا الثمن الذى هو بضاعتنا ، فكيف لا نستجيب لطلبه ، ونحضر له بنيامين ؟!

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ .

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا . هذه الجملة معطوفة على مقدر يفهم من الكلام السابق .

أى : **هَـٰذِهِ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .** فننتفع بها فى معاشنا .

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا . أى : ونجلب الطعام والميرة إليهم مرة أخرى .

وَنَحْفَظُ أَخَانَا . ونحافظ عليه فى سفره ؛ حتى لا يصيبه مكروه هذه المرة ؛ لأننا لن ننشغل عنه باللهو واللعب .

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ . أى : بوجود بنيامين معنا ؛ حيث كان يوسف يكيل الطعام على عدد الرءوس ؛ حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .

ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ . أى : سهل هيّن علىٰ عزيز مصر ، فلا يخيِّبنا فى طلبه .

وفى هذه الآية تحريض متكرر من إخوة يوسف لأبيهم ؛ حتى يستجيب لطلبهم ؛ فقد عرضوا أمام أبيهم بضاعتهم التى ردّت إليهم من عزيز مصر ، وأظهروا حاجتهم إلى العودة إليه ، مع المحافظة على أخيهم ، واستجلاب الطعام لأهليهم .

٦٦- قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ...

أى : قال يعقوب لأولاده ، وقد ألانه كلامهم ، وهيأه لقبول مطلبهم : لن أرسل بنيامين معكم ، حتى تعطونى عهدًا من الله على ردّه ، وموثقا من جهته على ذلك ؛ ليكون شهيدًا عليكم ، ومنتقما منكم إن لم تكونوا أوفياء .

لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ . أى : لترجعون بنيامين معكم ، عند عودتكم بالطعام من مصر ، إلا أن تُغلبوا بما لا قبل لكم به ، فيحول دون وفائكم بقسمكم .

أى : طلب منهم : أن يقسموا بالله يمينا مؤكدًا : لنأتينك يا أبانا ببنيامين معنا ، ونحن عائدون من مصر بالطعام ، إلا أن نغلب على أمرنا بما لا قبل لنا به .

فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيل . أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الذى طلبه منهم واليمين الموثق بإرجاعه إليه ؛ قال لهم : الله تعالى مطلع ورقيب وحسيب على هذا القول ، وسيجازى الأوفياء الجزاء الحسن ، ويعاقب الخائنين وينتقم منهم .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٧- وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ... الآية .

أى : قال يعقوب لأبنائه عند عزمهم على مغادرة بادية الشام إلى مصر : لا تجتمعوا عند دخول أبواب مصر ، ولا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة متعددة .

قيل فى سبب ذلك : إن يعقوب كان يخاف على أولاده العين والحسد ، وكانوا على جانب كبير من الجمال والقوة ، والنشاط والاتساق ، فإذا شاهدهم الناس فى هذه الصورة ؛ عشر رجال فى زىّ واحد وهيئة واحدة ؛ ربما حسدهم الحاسد .

جاء فى تفسير أبى السعود ٤/٢٩٢ :

وَقَالَ . يعقوب ناصحًا لهم ؛ لما أزمع على إرسالهم جميعا : يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مصر مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ ، نهاهم عن ذلك ؛ حذرًا من إصابة العين ؛ فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ، وقد كانوا تجمَّلوا فى هذه المرَّة أكثر مما فى المرة الأولى ، وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك ، بخلاف النوبة الأولى، حيث كانوا مغمورين عند دخولهم من أبواب مصر ، ثم اشتهر أمرهم عندما قرَّبهم يوسف إليه وأكرم وفادتهم.

ثم قال أبو السعود :

« وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ، وليست مما ينكر ، وقد ورد عنه ﷺ : « إن العين حق »[٣] ، وعنه ﷺ : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »[٤] ، وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أعوذ بكلمات الله التَّامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »[٥] .

وكان ﷺ يقول : « كان أبوكما يعوذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام»[٦] ، رواه البخارى فى صحيحه، وقد شهدت بذلك التجارب . اهـ .

« وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ؛ خوفه عليهم ، من أن يسترعى عددهم حُرَّاس مدينة مصر ، إذا ما دخلوا من باب واحد ؛ فيترامى فى أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربَّما سجنوهم أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف عليه السلام »[٧] .

وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ .

أى : إنى آمركم بالدخول من أبواب متفرقه ؛ لتسلموا من حسد الحاسدين أو كيد الكائدين ، ولا أدفع عنكم شيئًا قدَّره الله عليكم ، ولو كان هذا الشىء قليلا ، وإنما ذلك من باب الأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم بأن النافع هو الله ، والضار هو الله تعالى ، وأن العباد لا تنفع ولا تضر إلاَّ بشىء قد كتبه الله على الإنسان.

ويعقوب عليه السلام يريد أن يلقِّن أولاده درسًا فى العقيدة السليمة التى توصى : بأن يأخذ الإنسان بالأسباب العادية الميسرة له ، مع اليقين الجازم بأن مسبب الأسباب هو الله تعالى ، وأنه سبحانه واضع الأسباب ومشرعها .

إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ .

أى : ما الحكم فى أمر الخلائق جميعا إلا لله وحده ؛ لا ينازعه فى ذلك منازع ولا يدافعه مدافع .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . أى : عليه وحده دون سواه توكلت واعتمدت .

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . وعلى الله وحده فليتوكل المتوكلون الصادقون ، وهذا التوكل لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .

فالعبد له كسب واختيار ، والله تعالى له إرادة عليا ، وقدرة فاعلة فى تدبير هذا الكون ، والجمع بين اختيار العبد وإرادة الله تعالى يحتاج إلى شىء من الانحناء والتسليم ، فالعبد يفعل ويختار ويأخذ فى الأسباب ، ويجزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وقد جمع يعقوب عليه السلام بأطراف الموضوع ، حين أمر أبناءه بالدخول من أبواب متعددة ، ثم بين : أن ذلك أخذ بالأسباب العادية ، مع الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، ومع اليقين بأن ما أراده الله نافذ لا محالة كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، والسنة النبوية .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات :

من حيث أمرهم أبوهم : من الأبواب المتفرقة التى أمرهم بالدخول منها .

لما علمناه : لتعليمنا إياه بالوحى .

فلا تبتئس بما كانوا يعملون : فلا تأسف ولا تحزن بسبب ما صنعوا .

التفسير :

٦٨- وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ...

أى : ولما دخل إخوة يوسف من الأبواب المتفرقة ، ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد ، ما كان يدفع عنهم ذلك الدخول من أبواب متفرقة شيئا مما قضاه الله ، وقدَّره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم

بذلك ، هو خوفه عليهم من الحسد ، أو خوفه من بطش الملك بهم ؛ حين يراهم مجتمعين ، في هيئة واحدة ؛ فأظهر يعقوب رغبته في دخولهم متفرقين ، ووصّاهم بها ، ولم يستطع إخفاءها ؛ لشدة حبّه لهم ، مع اعتقاده بأن كل شيء بقضاء الله وقدره .

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أي : وإن يعقوب لذو علم عظيم ؛ لأجل تعليمنا إياه بالوحي ؛ حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ؛ حيث قال : وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ . أي وما أدفع عنكم بهذا التدبير من شيء قضاه الله ؛ وإنما نأخذ بالأسباب ؛ فالأخذ بها مشروع ومأمور به .

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . ما أعطاه الله تعالى لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأني للأمور .

٦٩- وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...

تبدأ من هذه الآية أحداث أخرى جديدة ومثيرة في قصة يوسف .

والمعنى : ولما دخل إخوة يوسف عليه ؛ أكرم وفادتهم ، ثم ضم إليه شقيقه بنيامين ، وحدّثه حديثا خاصًّا : قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . أي : قال يوسف لبنيامين : إني أنا أخوك الشقيق يوسف ، وأخبره بقصته ، وما جرى له في الجب ، وفي بيت العزيز ، وفي السِّجن حتى صار على خزائن الأرض ، وطلب منه أن يكتم هذا الأمر عن إخوته ، وألا يحزن بسبب ما أصابهم في الماضي من الحسد والأذى ؛ فإن الله تعالى قد عوَّض صبرهم خيرا .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

المفردات :

جهزهم بجهازهم : الجهازة فى اللغة : ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت ، وتجهيزهم بجهازهم : تنجيز ما يحتاجون إليه من الطعام وإعداده فى أوعيتهم .

السقاية : المشربة التى يُشْرَب بها ، وهى والصواع شىءٌ واحد ، قال الشاعر : نشرب الخمر بالصُّواع جهارًا.

رحل أخيه : المراد به : وعاء الطعام الخاص بأخيه بنيامين .

أذن مؤذن : نادى مناد .

أيتها العير : العير : هى الإبل التى عليها الأحمال ، والمراد بندائها : نداء أصحابها ، وقال أبو عبيد : هى الإبل المرحولة المركوبة .

زعيم : كفيل وضمين

التفسير :

٧٠- فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ...

السقاية : إناء يشرب فيه الملك ، وعادة يكون من معدن نفيس ؛ وقد كان يوسف عليه السلام ، يكتال به فى ذلك الوقت ؛ نظرا لقلة الطعام وندرته .

أراد يوسف عليه السلام أن يستبقى أخاه بنيامين معه فى مصر ؛ فأمر بدسِّ الإناء الذى يُشرب فيه ويكال به فى رحل بنيامين ، وكان إناءً ثمينًا يمكن الاتهام بسرقته ؛ لارتفاع قيمته .

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ .

بعد أن ركب إخوة يوسف رواحلهم نادى منادٍ فيهم : يا أصحاب العير ، إنكم لسارقون . ولم يعين لهم ما سرقوه فى ندائه ؛ ليسترعى كامل انتباههم .

جاء في تفسير أبي السعود :

جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ . قيل : كانت السقاية تسقى بها الدواب ، ويكال بها الحبوب ، وكانت من فضة ، وقيل : من ذهب ، وقيل : من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت السقاية مرصعة بالجواهر . ا هـ [٨] .

٧١- قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ .

أي : قال إخوة يوسف ، وقد أقبلوا على المنادى وزمرته : ماذا تفقدون – أيها الناس – من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون ؟!

٧٢- قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ...

أي : قال المؤذّن ، ومعه الحراس : نفقد صواع الملك . أي : صاعه الذى يشرب فيه ، ويكتال به للمتارين.

وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِ زَعِيمٌ .

أي : من جاء به من عند نفسه ، أو أرشد إليه عند غيره ؛ فله حمل بعير من الطعام زيادة على ما دفعه كمكافأة له .

وَأَنَا۠ بِهِ زَعِيمٌ .

قال المؤذن ؛ تأكيدًا لكلامه السابق : أنا كفيل بأن أُوصِّل حمل البعير لمن جاء بصواع الملك أو أرشد إليه.

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

التفسير :

٧٣- قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ .

أى : وحق الله ! لقد عرفتم من استقامتنا فى المعاملة ، وما نحن عليه من التدين والتصون ، وقد كان هؤلاء الإخوة فعلا مثلاً أعلى فى الأخلاق السليمة ، والسلوك المستقيم ، فاستشهدوا بسلوكهم وأحوالهم على أنّهم ما حضروا مِنْ بلادهم ؛ ليفسدوا فى أرض مصر بالسرقة ، وما كانت السرقة خلقا ولا جبلّة فيهم قبل ذلك ولا بعده .

٧٤- قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ .

أى : قال أعوان يوسف لإخوته : إذًا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ؛ إن وجدنا هذا الصُّواع فى حوزتكم .

إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ . فى دعواكم : أن الصواع ليس فى أوعيتكم .

٧٥- قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ...

أى : قال إخوة يوسف : جزاء الصواع المفقود فى شريعتنا ؛ أَخْذُ من وجد فى رحله واسترقاقه لمدة سنة؛ هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال الزجاج : وقوله : **فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ** . زيادة فى البيان ، أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير[٩] .

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ . أى : مثل ذلك الجزاء نجزى الظالمين بالسرقة فى شريعتنا ؛ لأنهم معتدون على أموال غيرهم .

٧٦- فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ...

أى : بدأ يوسف أو من ينوب عنه بتفتيش أوعية إخوته العشرة الذين هم من أبيه ، قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين الشقيق ؛ لنفى التهمة فى أول الأمر عن نفسه إن بدأ به ، ولينسيهم فرحهم ببراءتهم أولا ، ما حدث لأخيهم من أبيهم أخيرا .

وفى التوراة الحالية : « ففتش مبتدئا من الكبير حتى انتهى إلى الصغير ، فوجد الطاس فى عدل بنيامين » .

روى : أنه لما بلغت النَّوبة إلى وعاء بنيامين ؛ قال يوسف : ما أظن هذا أخذ شيئًا ؛ فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله ؛ فإنه أطيب لنفسك ، وأنفسنا ! ففعل[١٠] .

ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ . ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بنيامين ؛ فأخذه يوسف بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزامهم إلزامًا لهم بما يعتقدونه .

كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ . أى : مثل ذلك الكيد والتدبير المحكم كِدْنَا لِيُوسُفَ . أى : علمناه إياه وأرشدناه إليه ، حتى يصل إلى هدفه بدسّ الصواع فى وعاء بنيامين ؛ واستفتاء إخوته بحكم من وجد الصواع فى وعائه ، وحكمهم بهذا الحكم الذى يدينون به فى شريعتهم .

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ . أى : إن شريعة الملك كانت تقتضى عقوبة السارق بعقوبات أخرى كالضرب والتغريم ، وما كان يستطيع أن يحبس أخاه ، ويأخذه من إخوته ؛ ليقيم معه ؛ إذا نفّذ دين الملك وأوامره وقوانينه .

إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . إلا بمشيئة الله وإرادته وعونه ، كما قال يوسف فيما بعد : إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ؛ فهو سبحانه ييسر الأسباب ويرتبها للوصول إلى النهاية التى يريدها .

نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

إذا أراد الله رفعة عبد ؛ سبب له الأسباب ، ويسَّر له الأمور ؛ كما فعل بيوسف ، حيث جعله على خزائن الأرض ، ويسر له انتقال شقيقه بنيامين إلى جواره .

قال الأستاذ سعيد حوى فى (الأساس فى التفسير) :

« وهذا ثناء ضمنى على يوسف ؛ إذ المعنى : نرفع درجات فى العلم من نشاء كما رفعنا درجة يوسف عليه السلام[11] » ا هـ .

وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

فمن سنته سبحانه ومن عطائه ، ومن حكمته : أن يجعل الناس منازل فى العلم ، فما من عالم إلا وفوقه من هو أعلم منه ، وأرفع درجة فى العلم ، أو فوق العلماء جميعا ، عَلِيمٌ . هم دونه فى العلم ، قال تعالى: وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . (البقرة: ٢١٦) .

★ ★ ★

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

شـر مـكـانـا : أسوأ مكانة ومنزلة .

والله أعلم بما تصفون: والله عالم أبلغ العلم بحقيقة ما تزعمون من صدور السرقة عن أخيه .

التفسير:

٧٧ – قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ...

أى : قال إخوة يوسف غير الأشقاء ، عندما شاهدوا صواع الملك يُستخرج من وعاء بنيامين : إننا برءاء من السرقة ؛ فوالدنا نبى وجدّنا نبى ، أما إذا سرق بنيامين ؛ فهذا لأنّه من أم أخرى غير أمّنا ، وقد سرق أخ شقيق له من قبل . واختلف المفسرون فى السرقة التى اتهموا يوسف بها .

جاء فى تفسير أبى السعود :

قَالُواْ إِن يَسْرِقْ . يعنون بنيامين فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ . يريدون به يوسف عليه السلام ، وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من : أنها كانت تحضنه فلما شب ؛ أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها ، وكانت لا تصبر عنه ساعة ، وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها إسحاق عليه السلام ؛ فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام ، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق

عليه السلام ، فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لى سِلم ، أفعل به ما أشاء ، فخلاّه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت .

وقيل : كان أخذ فى صباه صنما لأبى أمّه فكسره وألقاه فى الجيف ، وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه. ا . هـ [١٢] .

فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ...

أى : فأخفى يوسف فى نفسه هذه الفرية التى افتروها عليه، ولم يظهرها لهم أنَّها فرية ؛ كتمانا لأمره، مع أنه سمع من إخوته وعرف أنَّه هو المقصود بنسبة السرقة إليه ، فيوسف لم يسرق حقا ، وإنما سُرِّق ثم قال يوسف فى نفسه عن إخوته : أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا . أنتم أسوأ موضعا ومنزلا ، ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برىء ؛ فأنتم الذين ألقيتم يوسف فى الجب ؛ وأنتم أشبه بمن سرقنى من أبى ، ثم عاد إليه ، فادعى : أن الذئب قد أكله كذبا وبهتانًا .

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

أى : الله أعلم منى ومنكم بِمَا تَصِفُونَ به غيركم من الأوصاف التى يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المفردات :

معاذ الله : المعاذ ، والعياذ ، والعوذ بمعنى : الالتجاء . وقد يقصد منها التبروُ كما هنا . فمعاذ الله هنا بمعنى نبرأُ إلى الله .

متاعا : المتاع ما ينتفع به إلى حين . والمقصود منه هنا : صواع الملك .

التفسير :

٧٨ - قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ... الآية .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ، إن لِبنْيامين أبًا شيخًا طاعنا فى

السنّ، لا يستطيع فراقه ، وهو سلواه عن شقيقه المفقود ، فخُذْ واحدًا منَّا مكانه ؛ ليُحبس عامًا بدلا منه ؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ . للنَّاس عامة وإلينا خاصة .

٧٩ – قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ .

أى : قال يوسف : أستعيذ بالله – معاذًا – من أن نأخذ فى جريمة السرقة إلاّ الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين ، وأنتم الذين أفتيتم : أن السارق عندكم عقوبته استرقاقه لمدة عام ؛ فنحن نسير فى هذا الحكم تبعا لشريعتكم .

إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ؛ إذا أخذنا شخصا آخر غير الذى وجد صواع الملك عنده ، والظلم تأباه شريعتكم ، كما تأباه شريعتنا.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

استيئسوا منه : يئسوا منه أشد اليأس .

خلصوا نجيا : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أى : متسارين، والنجى من تتحدث معه سرًّا ، واحدًا أو أكثر ، والنجوى : السر .

القرية التى كنا فيها : هى مصر والمراد بها : أهلها .

والعير : وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير:

٨٠ - فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ...

أى : فلما يئسوا من يوسف ومن استجابته لطلبهم ؛ انفردوا متناجين فيما بينهم ، وأخذوا يقلّبون الآراء ظهرًا لبطن ، ويتدبرون شئونهم كيف يلقون أباهم ، وكيف يخبرونه بالحادث ، وكيف يصنعون فى هذه المشكلة ، لقد عبر القرآن عن هذه الأمور الكثيرة بعبارة موجزة هى : خَلَصُوا۟ نَجِيًّا . [١٣]

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ .

قيل : هو روبيل وهو أكبرهم سنًّا ، وقيل : شمعون ؛ لأنه رئيسهم والرأس المدبّر لهم [١٤] ، وقيل : يهوذا. والاستفهام هنا للتقرير ، أى : لقد علمتم علما يقينا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علما يقينا بتفريطكم فى يوسف .

أى : فبأى وجه ترجعون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين .

فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ . أرض مصر .

حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ . بمفارقتها والخروج منها .

أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى . بمفارقتها والخروج منها .

وقيل : أو يحكم الله لى بالنصر على من أخذ أخى فأحاربه وآخذ أخى منه ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

٨١ - ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا .

أى : ارجعوا من مصر إلى أبيكم بالشام ، وتلطفوا فى إخباره بأمر بنيامين ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق صواع الملك ، ووضعه فى رحله .

وقُرئ : سُرّق أى : نسب إلى السرقة ، وَمَا شَهِدْنَآ عليه إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا من وجود الصاع فى رحله .

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ .

أى : وما كنّا حين أعطيناك الموثق ، نعلم أنه سيسرق أو أنّا سنلاقى هذا الأمر ، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف .

٨٢ - وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ .

أى : إذا شئت التثبت من صدق كلامنا ؛ فأرسل إلى أهل مصر المتصلين بالملك حيث كنا معهم ، واسألهم عن ذلك .

واسأل أصحاب القافلة التى رجعنا فيها إلى بلادنا .

قيل : وكانوا قوما معروفين من جيران يعقوب عليه السلام ، وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ . فيما أخبرناك به ؛ فكن واثقا من صدقنا .

وهكذا صوّرت السورة ما دار بين يوسف وإخوته بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة، والأخذ والردّ ... فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم ، وأخبروه خبرهم ، ثم ذكر القرآن الكريم جوابه عليهم .

★ ★ ★

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

سولت : زينت وسهلت .

فصبر جميل : هو الذى لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد .

يا أسفى على يوسف : الألف فى أسفى بدلا من ياء المتكلم ؛ للتخفيف . والأصل : يا أسفى بكسر الفاء ، والأسف: أشد الحزن على ما فات .

فهو كظيم : فهو مملوء القلب غيظا ، لكنه لا يظهر . وقيل : مملوء القلب حزنا ممسك له لا يبديه من كَظَمَ السِّقاءَ ؛ إذا شدّه بَعْد ملئه . فَهُوَ فَعِيل بمعنى : مفعول .

وابيضت عيناه : أصابتها غشاوة بيضاءُ .

التفسير:

٨٣ - قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ...

أى : عاد إخوة يوسف من مصر برحالهم ، فأخبروا أباهم بالقصة فقال لهم : بل زينت لكم أنفسكم أمرا أنتم أردتموه ؛ فصبرى على ما قلتم صبر جميل ، لا جزع ولا شكوى منه إلا إلى الله تعالى .

وهذا الجواب يشبه جواب يعقوب بأبنائه ، حين جاءوا أباهم يبكون ، وادعوا : أن الذئب أكل يوسف ؛ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ...

لقد كان إخوة يوسف متهمين عندما أبعدوا يوسف ، وادعوا : أن الذئب قد أكله ، وكانوا صادقين فى حق بنيامين .

لكن حديثهم عن بنيامين نكأ الجرح القديم ، بشأن يوسف فأجابهم الأب جواب المتشكك فى براءتهم؛ فقد سبق أن فجعوه فى يوسف ، بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

وجاء فى تفسير أبى السعود :

بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا . يريد يعقوب بذلك فتياهم : بأخذ السارق بسرقته ؛ فإن هذا الحكم ليس من قوانين مصر ، وإنما هو من قوانين ديانة يعقوب وحدها .

ثم لجأ يعقوب إلى الله تعالى مستعينا به ، راجيا أن يجمع شمله بأبنائه جميعا فقال :

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

أى : لعل الله أن يجمع شملى بأبنائى ويردّ علىّ يوسف ، وبنيامين ، وروبيل الذى تخلّف فى مصر ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . إنه هو الواسع العلم الذى يبتلى بحكمة ويرفع البلاء بحكمة ، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدة المستحكمة فرجا ، وبعد العسر يسرا .

٨٤ - وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ...

أى : أعرض يعقوب عن أولاده ؛ كارها لحديثهم عن بنيامين ، وتخلفه محبوسًا فى مصر ، ثم جددت هذه المصيبة أحزانه القديمة فقال :

يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ . أى : يا شدة حزنى وحسرتى على غياب يوسف وبعده عنّى !

وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ .

أى : أصابت عيناه سحابة بيضاء من كثرة البكاء والحزن على يوسف ؛ فهو مملوء من الحزن على أولاده الغائبين ، ومملوء من الغيظ من أولاده الحاضرين .

قال تعالى : وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ . أى : يمسكونه فلا يشتد غضبهم وإيذاؤهم ؛ فيعقوب مع شدة حزنه وأسفه يكتم حزنه عن الناس ، ولا يبوح به لأولاده .

وقد جاء فى كتب التفسير تساؤل مفاده ما يأتى :

كيف جاز لنبىٍّ الله يعقوب أن يشتد حزنه إلى هذه الدرجة .

والجواب : أن الحزن على المفقود فطرة بشرية ، والممنوع : هو الهلع والجزع والصياح ولطم الخدود ، أو شق الجيوب ، أو إعادة دعوى الجاهلية ، وقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال : « العين تدمع، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون!» [١٥] رواه الشيخان .

وعن الحسن : أنه بكى على ولدٍ له ؛ فقيل له فى ذلك ؛ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عارًا على يعقوب.

وفى تفسير الكشاف :

أنه قيل له عليه الصلاة والسلام : تبكى وقد نهيتنا عن البكاء ! قال: « ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح» [١٦] .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات :

تالله : أى : والله ! فالتاء حرف يستعمل فى القسم بالله خاصة .

تفتأ : أى : ما زلت .

قال الكسائى : فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أى : ما زلتُ ، وقال الفراءُ : إن الكلام هنا بتقدير (لا) أى : (لاَ تَفْتَأُ) . وكثيرا ما تضمر (لا) فى جواب القسم كما فى قول امرئ القيس : فقلت :

يمين الله أبرح قاعدًا ولو قَطَّعوا رأسِى لديكِ وأوصالى

أى : بحق الله لا أبرح ، وهو رأى الخليل وسيبويه ، وعلَّلوا جواز ذلك : بأنه لا يلتبس بالإثبات إذ لو كان على الإثبات ؛ لوجب اقترانه باللام والنون كقولك : تَالله لأفعلنَّ كذا .

حرضًا : الحرض لُغَةً : فساد الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم ؛ كما قال أبو عبيد وغيره .

بـثـى : البث : المصيبة التى لا قدرة لأحد على كتمانها فيبثها وينشرها .

التفسير:

٨٥ – قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ...

أى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه يردد الأسف على فقد يوسف : يا أبانا ، لا تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ، والحزن المُضْنِى ، حتى تكون حَرَضًا . أى : مريضًا ضعيف القوة .

أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ . أو يصيبك الموت فعلاً ؛ فأنت إما أن تقارب الموت ضعفا وهزالا ، أو تموت بالفعل.

وقد قالوا ذلك ؛ رقة له وشفقة عليه ورأفة به .

قال النسفى : ويجوز للنبى أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؛ لأن الإنسان مجبول على ألاَّ يملك نفسه عند الحزن ؛ ولذلك حُمد صبره .

٨٦ – قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ .

أى : قال يعقوب ردًّا على أولاده : إنى لا أشكو أحزانى إليكم ، ولا إلى غيركم من الناس ؛ وإنما أناجى ربِّى وأناديه ، وألجأ إليه فى شدتى ؛ أشكو إليه ما أعانى من اللَّوعة والحرقة ؛ لغياب يوسف ثم إخوته .

وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ .

أى : عودنى ربى الرحمة واللطف والإجابة والأمل ؛ فلا أيئس من رحمته ، وأتوقع لطفه وفضله ، وأستشرف إلى معونته وكرمه .

ويجوز أن يعقوب عرف فى منامه ، أو ألهمه الله : أن يوسف حىٌّ يرزق ؛ فزاد أمله فى ذلك .

روى : أنه رأى ملك الموت فى منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟! فقال : لا والله ، هو حى فاطلبه.

وقال ابن عباس :

وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . هى رؤيا يوسف ، أى : قال يعقوب : أعلم أن رؤيا يوسف صدق وأن الله لابد أن يظهرها ، وهذا يقتضى حياة يوسف ، وتفوقه ، وعلو شأنه ؛ حتى يسجد له إخوته .

★ ★ ★

﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

فتحسسوا : التحسس : طلب معرفة الشىء بالحواس .

ولا تيئسوا من روح الله : ولا تقنطوا من رحمته التى يحيى بها العباد .

التفسير :

٨٧ – يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ من يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

طلب يعقوب من أولاده أن يذهبوا إلى أرض مصر ، جادين فى البحث عن يوسف وبنيامين ، مستغلين حواسهم كالسمع والبصر فى تلمّس هذه الحقيقة ، والأمل الكبير فى الله أن يوصلّهم إلى هدفهم ، وأوصاهم: ألا يقنطوا من فرجه سبحانه ، وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ، ويطمئن به القلب .

إِنَّهُ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

إن المؤمن بخير حال ؛ إن أصابته ضرّاء ؛ صبر ؛ فكان خيرًا له ، وإن أصابته نعماء ؛ شكر ؛ فكان خيرا له ؛ فالمؤمن دائما واثق من فضل الله ورحمته ورضوانه ، واثق بأن بعد العسر يسرا وأن من يتّق الله ؛ يجعل له مخرجا ، ويرزقه منْ حيث لا يحتسب .

أمّا إذا يئس الإنسان من قدرة الله على كشف كربه ، أو شك فى قدرته على ذلك ؛ فهذا هو اليائس من روح الله وفضله وألطافه ، وهو كافر بقدرة ربّه ؛ ولذلك فإن المنتحر يائس من الفرج ، وهو يقتل نفسه ليذهب بها إلى النار .

وفى الحديث «الذى يقتل نفسه ؛ يقتلها فى النار» .

وقال ﷺ : «من تحسَّى سمًّا فهلك ، فسمُّه فى يده يتحساه إلى يوم القيامة ، ومن وجأ بطنه بحديدة؛ فحديدته فى يده يجأ بها بطنه إلى يوم القيامة ، ومن تردى من فوق جبل فهلك ؛ فهو يتردى من فوق الجبل إلى يوم القيامة ...» .

واستدل بالآية جمع من العلماء : على أن اليأس من رحمة الله كفر !

والجمهور : على أن اليأس من رحمته تعالى من الكبائر ، اللهم إلا إذا اقترن بذلك ما يدل على نسبته تعالى إلى العجز عن تنفيس الكرب أو مغفرة الذنب ، وأيا ما كان الأمر فاليأس من رحمة الله من صفات الكفار ، ومن أسباب الكفر والعياذ بالله تعالى ! ووصية يعقوب عليه السلام لبنيه فى الآية الكريمة درس من دروس النبوة فى شحذ الهمم وتربية العزائم (١٧) .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المفردات :

وجئنا ببضاعة مزجاة : المراد من البضاعة هنا : الثمن ، والمزجاة : المدفوعة التى يردها من يراها لرداءتها من أزجيته ؛ إذا دفعته ، والريح تزجى السحاب : تسوقه وتدفعه . وقال ثعلب : البضاعة المزجاة : الناقصة غير التامة . اهـ . ومن معانيها : القليلة كما ذكره صاحب القاموس، ولعل هذا المعنى هو المراد هنا .

التفسير :

٨٨ - فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ...

استجاب أبناء يعقوب لتوجيه أبيهم ؛ فعادوا إلى مصر للمرة الثالثة ، ودخلوا على يوسف فأظهروا أمامه ما أصابهم من ضُرٍّ وحاجة ؛ تحريكا لعطفه ، وكان أبوهم يرجّح أن هذا العزيز هو يوسف ، فلما أخبروه بحالهم ؛ رقّ لهم رقة شديدة .

جاء فى تفسير أبى السعود :

قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ . أى : الملك القادر المتمنع .

مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ . الهزال من شدة الجوع .

وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ . مدفوعة يدفعها كل تاجر ؛ رغبة عنها واحتقارًا لها .

قيل : كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفا وسمنا ، وقيل : دراهم زيوفا ؛ لا تقبل إلاّ بوضيعة .

وإنما قدموا ذلك ؛ ليكون ذريعة إلى إسعاف مراميهم ؛ ببعث الشفقة ، وهو العطف ، والرأفة ، وتحريك سلسلة المرحمة .

فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ . أى : أتممه لنا ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ؛ بردّ أخينا إلينا ، أو المراد بالتصدّق : زيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم ، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التى جاءوا بها [١٨] .

إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ . فيخلف عليهم ما ينفقون ، ويضاعف الأجر لهم .

٨٩ - قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ .

تأثر يوسف بما تكلم به إخوته ، وأراد أن يرشدهم إلى طريق التوبة فقال لهم : ما أعظم ما فعلتم بيوسف وأخيه فى حال جهلكم بحقوق إخوتكم عليكم ، وبعاقبة البغى والعقوق . وقد يكون المراد من الجهل: الطيش والنزق واتباع الهوى ، وطاعة الحسد والأثرة .

وقد قال لهم هذه المقالة ؛ تمهيدًا لتعريفهم بنفسه ، بعد أن بلغ الكتاب أجله .

وكأن يوسف أراد أن يرشدهم إلى عظم ما اقترفوا فى حق يوسف وأخيه ، فى حال جهلهم ، ليتنبهوا إلى التوبة إلى الله تعالى مما فعلوا ؛ لأن معرفة الإنسان بقبح الذنب يجرّه إلى النَّدم والتوبة منه .

فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصحًا لهم فى الدين ؛ لا معاتبة وتثريبا ؛ إيثارًا لحق الله على نفسه [١٩] . فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، فلله تعالى هذا الخلق النبوى الكريم .

وكان سؤاله إياهم ، سؤال العارف بأمرهم من البداءة إلى النهاية ، مصدقًا لما أوحاه الله إليه ، حين ألقوه فى غيابت الجب من قوله : وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (يوسف : ١٥) .

٩٠ – قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ...

أى : قالوا : من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف ، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر، وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكتم نفسه .

قَالَ أَنَا يُوسُفُ . الذى تتحدثون عنه والذى فعلتم به ما فعلتم ، وَهَٰذَآ أَخِى بنيامين قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ؛ فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآنسنا بعد الوحشة ، وخلَّصنا مما ابتلينا به وبدَّل أحوالنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج .

إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ .

أى : من يتق الله راجيًا رحمته ، خائفًا من غضبه ، عاملا فى مرضاته .

وَيَصْبِرْ . على قضائه وقدره ، وأداء طاعته وتجنب معاصيه .

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ .

أى : فإن الله تعالى يرحمه برحمته ويكرمه بكرمه ؛ لأن من سنة الله التى لا تتخلف أنَّه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

قال تعالى : هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ . (الرحمان : ٦٠) .

وقال سبحانه : إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (الأعراف : ٥٦) .

★ ★ ★

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

المفردات :

تالله : أى : والله ! وتقدم قريبًا : أن التاء حرف للقسم بالله خاصة .

آثـرك : اختارك وفضَّلك .

لخاطئين : لمذنبين متعمدين .

لا تثريب عليكم : لا لوم عليكم ولا تأنيب ، يقال : ثَرَبه ، يثربه ، وثرَّبه ؛ إذا بكَّته بفعله وعدَّد عليه ذنوبه .

التفسير :

٩١ - قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ .

أحسَّ إخوة يوسف بالندم والأسف على ما فعلوه به ؛ فقالوا له : والله لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم ، والفضل والعزة ، وقد كنا متعمدين الخطأ حين ألقيناك فى الجب قديمًا ، وحين اتهمناك بالسرقة حديثا ؛ ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

٩٢ - قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ...

أى : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم ، عفا عنهم عفوًا تاما ؛ لا مؤاخذة معه ، وهذا هو الصفح الجميل ، ثم دعا لهم : بمغفرة الله تعالى فقال :

يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

أى : يغفر الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم ؛ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ . يغفر الصغائر والكبائر ، ويتفضل على التائب بالقبول . وقد تمثل رسول الله ﷺ بهذه الآية عند فتح مكة ؛ فصفح عن أهلها ، ثم قرأ هذه الآية .

نبذة من تفسير أبى السعود

«كان يوسف عليه السلام يدعو إخوته إلى الطعام ، بكرة وعشيا ؛ فقالوا له : إنا نستحى منك بما فرط منّا فيك ؛ فقال يوسف : إن أهل مصر وإن ملكت فيهم ، كانوا ينظرون إلىّ بالعين الأولى ، ويقولون : سبحان من بلَّغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت بكم الآن ، وعظمت فى العيون ؛ حيث علم الناس أنكم إخوتى ، وأنى من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام [٢٠] .

٩٣ - ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

علم يوسف بطريق الوحى ، أو بسؤال إخوته أن أباه فقد بصره أو كاد ؛ فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه حينئذ ، أو بقميص فى يده أحضره لهذا الغرض ، وأخبرهم : أن أباه سيعود بصيرا؛ بذهاب حزنه ، وسروره بعودة يوسف ، ولعل الله ألهمه ذلك أو أوحى إليه .

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : الرجال والنساء والذرية والخدم وغيرهم ، وقد روى : أن أهله كانوا سبعين رجلاً وامرأة وولدا، دعاهم يوسف للإقامة فى جواره آمنين .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

فصلت العير : خرجت القافلة ، يقال : فصل من البلد ، يفصل فصولا ؛ إذا انفصل منه وجاوز حيطانه .

تفندون : تنسبوننى إلى الفَنَد وهو الخرفُ وفساد العقل من الهرم والشيخوخة ، وفى معناه ما قاله ابن عباس : لولا أن تُسفِّهون .

ضلالك : ذهابك عن الصواب وبعدك عنه .

التفسير :

٩٤ – وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ .

تحركت القافلة من إخوة يوسف ؛ متجهة من أرض مصر إلى العريش ، فى طريقها إلى بيت المقدس، وحين جاوزت العريش ، وانفصلت عن حدود مصر ؛ تحركت الريح فحملت رائحة القميص إلى أنف يعقوب ، وبينهما ثمانون فرسخا أو ثمانية أيام ؛ وأحس يعقوبَ برائحة القميص ؛ فقال لمن حوله : إنى أتنسم الآن رائحة يوسف ، وأثق بوجوده ، وقرب لقائه ، ولولا أن تنسبونى لى ضعف العقل والتخريف ؛ لقلت لكم : إن لقائى بيوسف قد اقترب .

وبعض المفسرين نسب ذلك إلى شدة إحساس يعقوب بولده ؛ فتذكر رائحة قميصه وهو صغير ، أو هو سر من أسرار الروح التى تستشعر عن بعد ما يحدث مع وجود مسافات شاسعة بين الروح وبين الأمر الذى تشعر به .

وفسر آخرون الأمر على أنه : معجزة إلهيه لنبى الله يعقوب عليه السلام .

قال الإمام مالك – رحمه الله – أوصل الله تعالى ريح قميص يوسف ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان ، قبل أن يرتدّ إلى سليمان طرفه .

«وعموما : علينا التسليم بما أخبره القرآن الكريم وهو حق وصدق ، دون البحث فى كنهه أوصفته ما دام ذلك داخلا فى حيز الإمكان» [٢١].

والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مُدَّعى الرسالة ؛ تصديقا له فى دعواه ، فيعقوب رسول كريم يسر الله له معرفة الواقع وهو اقتراب القميص ، واقتراب لقاء يوسف عليه السلام .

٩٥ - قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ .

قال الحاضرون حول يعقوب من أحفاده : والله إنك لا تزال فى ضلالك القديم ؛ من حب يوسف ، والإغراق فى محبته ، والاعتقاد بأنه حى يرزق ، وكانوا يظنون أن يوسف قد مات .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير:

٩٦ - فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ...

جاء إخوة يوسف من أرض مصر إلى أرض كنعان ببلاد الشام ، وكان يهوذا هو حامل القميص ؛ أراد أن يبشِّر أباه بيوسف ؛ تكفيرًا عن ذنبه ؛ لأنه هو الذى حمل قميصه الملطخ بدم كذب ، وألقى يهوذا القميص على وجه يعقوب ؛ فعاد إلى يعقوب بصره ، كأن لم يكن به ضعف أو مرض قبل ذلك .

وعودة البصر إلى يعقوب معجزة إلهية ، وكان إلقاء القميص سببًا ظاهريًّا ؛ أعاد إلى يعقوب الفرح والسرور ، وللفرح والسرور آثار حسية ومعنوية لا تنكر .

من تفسير المراغى

قال الدكتور / عبد العزيز إسماعيل باشا :

لا تتحسن أعراض مرض (الجولكوما) أو شدة توتر العين ، أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه : العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب ؛ بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ؛ فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهمّ هو طريقة الشفاء ، وهى إرادة الله المنحصرة فى (كن فيكون) وهى خارجة

عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ، ولكن فى طريق الشفاء ، وما أعظم إعجاز القرآن ، الذى وصف حالة مرضية خاصة وبيّن سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئًا عن هذا المرض فى ذلك الوقت ، ولا بعده بزمن طويل . ا هـ .

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُم إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

أى : قال يعقوب لأولاده : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر ، وقلت لكم : اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ونهيتكم عن اليأس من فضل الله وفرجه .

إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ . أى : أعلم بوحى الله وإلهامه ؛ لا من خطرات الأوهام ، مَالاَ تَعْلَمُونَ من حياة يوسف .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

التفسير:

٩٧ – قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ ...

طلب أولاد يعقوب من أبيهم : أن يستغفر لهم الله ؛ لأنهم أتوا جُرمًا عظيمًا ؛ ترتب عليه آثار نفسية وصحية ؛ لذلك قالوا :

إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ . أى : متعمدين للجريمة فى إبعاد يوسف ، وادعاء : أن الذئب قد أكله .

من هدى السنة

روى البخارى فى صحيحه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء ؛ فليتحلَّله منه اليوم ، قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم . إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ؛ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» [٢٢] .

وهذا الحديث يرشد المسلم إذا أخطأ ؛ أن يطلب الصفح ممن أساء إليه ؛ بأن يستسمحه ، أو يوصل إليه من الهدايا أو الخدمات ما يكافئ مظلمته ، وعندما أحس إخوة يوسف بخطئهم ؛ طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم .

٩٨ - قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ...

أى : سوف أتضرع إلى ربِّى ؛ لكى يغفر لكم ذنوبكم .

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

إنه سبحانه كثير المغفرة ، كثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ، ويرحمه من عباده .

قال الزجاج : أراد يعقوب أن يستغفر لهم فى وقت السَّحَر ؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء ، ولم يعجّل بالدعاء ؛ لعظيم جريمتهم . فأراد أن يخلص لله الدعاء ، ويتحرّى ساعة الإجابة ؛ شفقة على أولاده لعل الله أن يتجاوز عنهم .

وقد روى : عن ابن عباس : أن يعقوب عليه السلام أخّر الدعاء إلى السَّحر ؛ لأن الدعاء فيه مستجاب وروى عنه أيضًا : أنه أخّره إلى ليلة الجمعة . وفى رواية : عن طاووس : سحر ليلة الجمعة ، وجاء ذلك فى حديث طويل رواه الترمذى وحسّنه عن ابن عباس يرفعه إلى النبى ﷺ .

ويذكر المفسرون هنا : مقارنة بين موقف يوسف ، وموقف يعقوب ؛ فيوسف ردّ على إخوته فى الحال قائلا : لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ؛ لأنه موقف ملكٍ قادر ، أراد أن يُطمئن إخوته ؛ حتى لا يستبدّ بهم جزع أو هلع .

أما يعقوب فهو أب حكيم ، أراد أن يؤخر الاستغفار ؛ حتى تصدق توبتهم ، ويعظم ندمُهم ، وهو أسلوب مناسب فى التربية .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

المفردات :

آوى إليه أبويه : ضمهما إليه .

التفسير :

٩٩ - فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ...

طوى القرآن الكريم ما دل عليه السياق ، وهو أن إخوة يوسف بلَّغوا أباهم وسائر أهلهم ، أن يأتوا إليه جميعا ؛ ليقيموا معه ؛ استجابة لطلبه ؛ لذلك ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين إلى مصر .

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ . استقبلهم استقبالاً كريمًا .

ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . أى : أباه وأمّه ، وقيل : أراد أباه وخالته ، وكان أبوه قد تزوجها ؛ بعد وفاة أمّه ، والخالة بمنزلة الأم ، كما أن العمّ بمنزلة الأب .

قيل : إن يوسف قد خرج لاستقبالهم فى الطريق ، فى جمع حافل ؛ احتفاء بهم ، ثم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ .

أى : وقال لهم : ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ؛ فإن سنى القحط كانت لا تزال باقية ، ولا غرابة فى هذه السماحة والكرم من يوسف عليه السلام ؛ فهو كريم من سلالة رسل كرماء .

روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم» (٢٣) .

وتعليق دخولهم مصر آمنين بالمشيئة الإلهية ؛ للتيمن والتبرك ، وللتبرؤ من حوله وقوته إلى حوله تعالى ومشيئته وفضله العظيم .

★ ★ ★

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

العرش : سرير الملك .

البدو : البادية . وأصل البدو : المبسوط من الأرض ، سمى بذلك؛ لأن ما فيه يبدو للناظر؛ لعدم ما يواريه.

نزغ : أفسد وأغرى . وأصله : من نزغ الرائض الدابة ؛ إذا همزها وحملها على الجرى .

التفسير:

١٠٠ - وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...

أى : أصعد أبويه على السرير الذى يجلس عليه ؛ لتدبير أمور الملك ؛ تكرمة لهما ؛ زيادة عما فعله بإخوته .

وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا .

أى : أهوى أبواه وإخوته ساجدين له ؛ سجود تحية لا سجود عبادة .

قال القرطبى : وأجمع المفسرون : أن ذلك السجود على أىّ وجه كان ؛ فإنما كان تحية لا عباده ، وعلى إثر هذا السجود ؛ ذكرّ يوسف أباه برؤياه فى صباه .

وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ . أى : هذا السجود منكم هو العاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى : إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ .

قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا . أى : أمرًا واقعًا لا ريب فيه ، وقد رأيتموه الآن رأى العين ؛ فإخوتى مثال الكواكب الأحد عشر ، وأبى وأمى مثال الشمس والقمر .

وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ . ربى إحسانا عظيما .

إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ . معززا مكرما إلى عرش الملك والسيادة .

ولم يذكر نعمة خروجه من الجب ؛ حتى لا يجرح شعور إخوته .

وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ . معطوف على ما قبله ؛ تعدادًا لنعم الله عليه . أى : وقد أحسن بى ربى حيث أخرجنى من السجن ، وأحسن بى أيضًا ؛ حيث يسر لى جمع الشمل ، وقدوم أسرتى من البادية ، وشظف العيش إلى الحاضرة ؛ حيث تعيش فى رغد واستقرار وأمان .

قال الزمخشرى : كانوا أصحاب خيام ومواش يتنقلون فى الحياة والمناجع . ا هـ .

مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ .

أى : أفسد بيننا ، وحمل بعضنا على بعض . أحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان؛ تكرما منه وتأدبا.

إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ .

أى : لطيف التدبير لما يشاؤه ، حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ، فإذا أراد أمرًا ؛ هيأ له أسبابه وقدّره ويسره ، وإن كان فى غاية البعد عما يخطر بالبال ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أنَّ الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزج فى غيابات السجن ، ثم إلى السيادة والملك .

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ . بمصالح عباده ؛ فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغايتها ، ٱلْحَكِيمُ . الذى يجعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ؛ فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العاقبة للمتقين.

★ ★ ★

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

المفردات :

تأويل الأحاديث : تفسير ما غمض منها . والمراد هنا : تفسير الأحلام .

فاطر السماوات والأرض : خالقهما على غير مثال سابق .

ولى : ناصرى ومعينى .

التفسير:

أنعم الله تعالى على يوسف بالعديد من النعم ، وجعل له من كل شدة فرجا ، ومن كل هم مخرجا .

من ذلك : إلقاؤه فى الجب ، تعلق زليخا به ، دخوله السجن .

ثم نجاه الله من السجن ، وجعله على خزائن الأرض ؛ فاتجه إلى ربه تعالى بالدعاء قائلا :

١٠١ – رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ...

أى : يا إلهى يا خالق السماوات والأرض ، قد أعطيتنى من الملك التنفيذى الفعلى ، وإن الاسم لغيرى، إلا أن التنفيذ الفعلى فى الأمور صار بتوجيهى وعملى ، وعلمتنى تفسير الرؤيا ، وشرح الأحلام الغامضة ، فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ .

يا خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق ؛ فكان الكون كله على هذا النحو البديع المتكامل ، بما فيه من سماء وأرض وجبال وبحار وهواء وشمس وقمر ؛ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٤٠) .

إنك متولى أمورى ومتكفل بها ، أو أنت موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء .

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

اختم لى حياتى على الإسلام والإيمان ، وثبتنى على الإسلام فى حياتى ، ثم ألحقنى يا رب بالصالحين من عبادك .

وفى هذه الآية يختم يوسف قصته بدعاء مخلص يرجو ربّه أن يثبته على الإيمان والإسلام حتى الموت ، وأن يكتب له درجة الصلاح ويلحقه بالصالحين من آبائه ، وبالصالحين من المسلمين وفيه دليل على منزلة الصلاح ، وأنها منزلة يتطلع إليها الأنبياء والمرسلون . قال تعالى : وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾

المفردات :

أجمعوا أمرهم : أحكموا تدبيرهم .

يمكرون : يتآمرون ويحتالون .

التفسير :

١٠٢ - ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

هذا تعقيب من الحق سبحانه على قصة يوسف عليه السلام ، والتفاتٌ إلى رسول الله محمد ﷺ ؛ يواسيه ويشد أزره فيقول له : هذه قصة يوسف ، من أخبار الوحى والغيب ؛ أعلمناك بها بطريق الوحى ، وأنت لم تكن مشاهدًا لإخوته حين دبّروا أمرهم ، وأحكموا مكرهم على إلقائه فى الجبّ ، وإبعاده عن أبيه .

وما كان لك علم بما فى هذه القصة من رحلة يوسف إلى مصر ، وفتنة امرأة العزيز به، ودخوله السجن ، ثم خروجه من السجن ملكا عزيزا متصرفا ، أى : لم تشاهد شيئا من قصة يوسف، وما كنت تعلمها إلا بطريق الوحى .

شبه الجاحدين على الوحى

ادعى بعض الجاحدين على الوحى : أن محمدًا كان شديد الذكاء ، قوى الفراسة ، له قدرة على التخيل، فصاغ هذا القرآن من عند نفسه ، ونسبه إلى الله تعالى .

ونقول لهؤلاء :

القرآن فيه أخبار وقصص وردود فى غاية الصدق ، وفيه أرقام عن أهل الكهف ، وعن بدء الخليقة لا ينفع فيها الذكاء ، وفيه إخبار بالغيب فى سورة الروم وغيرها ، وفيه معلومات علمية عن الكون والسماء والأرض ، لم تصطدم بالعلم ، بل كلما تقدم العلم ؛ كلما أكَّد وأيد ما فى كتاب الله .

قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . (فصلت : ٥٣) .

ونبى الله محمد لم يكن مصاحبًا ليوسف حتى يحكى قصته بهذا الصدق ، ولم يكن مصاحبًا لموسى، أو لنوح ؛ أو لشعيب مع أهل مدين ، حتى يحكى قصص هؤلاء بصورة كانت أصلا لأحكام المؤرخين .

قال تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ... (القصص: ٤٦) ، وقال سبحانه : وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . (القصص:٤٥) .

وخلاصة هذا : أنَّ الله هو الذى أطلع رسوله على أنباء ما سبق ؛ ليكون فيها عبرة للناس فى دينهم ودنياهم .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠٣- ومَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ .

سبب النزول :

جاء فى تفسير الفخر الرازى والآلوسى وغيرهم ما يأتى :-

سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف ؛ فنزلت مشروحة شرحا وافيا ، فأمل رسول الله ﷺ فى إسلامهم ، لكنهم أصرُّوا على كفرهم ؛ فحزن الرسول ﷺ لذلك ؛ فنزلت هذه الآيات تواسيه .

والمعنى : وما أكثر مشركى قومك ، ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ، ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك، بمصدِّقيك ولا متبعيك ، أو أن هذه الظاهرة هى طبيعة معظم الناس ، لا أهل مكة وحدهم ؛ فعليك أيها الرسول أن تتسلى عنهم ، وأن تصبر على أذاهم ؛ لأن الهدى هدى الله ، قال تعالى : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

وقال سبحانه : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . (البقرة: ٢٧٢) ، فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ . (فاطر:٨) . وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . (يونس: ٦٥) . إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ ٱلْبَلَـٰغُ . (الشورى: ٤٨) .

١٠٤- وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ .

أى : أنك لا تطلب منهم أجرًا على تبليغ الرسالة ، ولا تطلب منهم مالا ولا منفعة ، وإنما تبلغ الرسالة؛ ابتغاء مرضاة الله ؛ فكان الواجب أن يتأملوا فى ذلك ، وأن يعلموا أنَّك لا تقصد من وراء تبليغ الرسالة مالا ولا أى مطلب دنيوى ، وإنما تحمل رسالة الله إلى خلقه ؛ لتذكرهم بما يجب عليهم نحوه ، وفى قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ . إشارة إلى عموم الرسالة المحمدية وأنها هداية للبشرية جمعاء ، قال تعالى : وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ . (ص : ٨٨) ، وفعلا كان لهذا القرآن شأن أىَّ شأن ، فى قيام الدولة ، ونشر الهداية ، وانتصار الحق ، وبلوغ هذا الدين المشارق والمغارب .

★ ★ ★

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

المفردات :

وكأين من ءاية : وكم من علامة دالة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وسائر صفاته .

معرضون : منصرفون .

غاشية : كارثة كبرى تغمرهم .

الساعة : القيامة .

بغتة : فجأة دون توقع أو انتظار .

التفسير:

١٠٥ - وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

كثير من الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته ، وجليل فضله ونعمه ، يمر عليها هؤلاء المشركون فلا يتعظون ولا يتأملون ، فالسماء والأرض ، والجبال والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنبات والإنسان والحيوان ، وكل ما فى هذا الكون البديع يشهد بقدرة القادر ، وعظمة الصانع ، ولكنهم يشغلهم الإلف والعادة وغشاوة القلب ، فلا يتأملون ولا يتدبرون ، ولا تهتز قلوبهم لبديع صنع الله ، فى شروق الشمس، أو طلوع البدر ، أو هطول المطر ، أو حدوث الرعد والبرق ، أو ارتفاع السماء ، ووجود النجوم والمجرات والأفلاك بها ، أو انبساط الأرض ، ووجود البحار والأنهار والجبال والنبات والإنسان والحيوان عليها .

١٠٦ - وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ .

تحذّر هذه الآية من الشرك بجميع أنواعه ، وتدعو إلى الإيمان بالله خالصا نقيا .

والمعنى : وما يؤمن أكثر أهل مكة بالله إلا إيمانا مشوبا بالشرك ؛ من حيث اعتقادهم : أن الأصنام تنفعهم ، أو تقربهم إلى الله زلفى .

قال ابن عباس : هم أهل مكة آمنوا وأشركوا ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » ، وهذا هو الشرك الأعظم .

وفى الصحيحين : عن ابن مسعود : قلت : يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظم ؟! ، قال : أن تجعل لله ندًّا ، وهو خلقك»[٢٤] .

وقد بين ابن القيم فى إغاثة اللهفان ، ما خلاصته :

أن الشيطان يزين للناس زيارة القبور ، ويوحى لهم : أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم يسأل أصحاب القبور الشفاعة والوسيلة ، ثم يتخذ القبور عيدا تعلق عليها القناديل والستور ، ويطاف بها ويذبح عندها ، ويحج إليها ، ويعتبر ذلك عبادة ومنسكا ، مع أن دين الإسلام جاء بإخلاص العبادة لله وحده ، والنهى عن جميع مظاهر الشرك[٢٥].

١٠٧ - أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ...

تأتى هذه الآية ؛ تهديدا ووعيدا للمشركين ؛ بأن الله قادر أن ينزل عليهم عذابا يغشاهم ويعمهم ، فهل أمنوا أن ينزل الله عليهم صاعقة من العذاب ، مثل : الشهب والنيازك ، أو الزلازل والبراكين ، وكل أسباب الموت؟! .

أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ .

وهل أمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة من حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم فيكون جزاؤهم جهنم وبئس المصير ، وهذه الآية كقوله تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ . (الأعراف: ٩٧-٩٩).

والآيات نداء جهر : أن تنبَّهوا ، أفيقوا ، قبل أن تفاجأكم القيامة ، أو قبل أن ينزل بكم عذاب الله ؛ فإنه يأتى فجأة ، ولا يعصمكم منه إلا الإيمان بالله وامتثال أمره ، واجتناب ما نهى عنه !

★ ★ ★

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المفردات :

سبيلى : طريقى وطريقتى .

على بصيرة : على يقين ناشئ من وحى الله وآياته وحججه .

التفسير :

١٠٨- قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ...

أى : قل يا محمد ، لهؤلاء المشركين ، وللناس أجمعين : هذه رسالتى وطريقتى ، والدعوة التى أدعو إليها ، وهى : شهادة ألاَّ إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله - أدعوا إليها على يقين وحجة واضحة قاطعة وبرهان. أنا أدعو لهذه الدعوة ، ويدعو إليها كل من آمن بها واتبعنى وآمن بدعوتى وصدق برسالتى ، وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ . أى : أنا أنزه الله عن أن يكون له شريك ، أو نظير ، أو صاحبة ، أو وزير ، أو مشير ، تقدَّس الله وتعالى علوا كبيرا .

وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِين . فلا أشرك بعبادة الله أى معبود ؛ بل إنى أخلص العبادة لوجهه ، قال تعالى : وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . (البينة: ٥) .

★ ★ ★

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

التفسير:

١٠٩- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ...

تمهيد:

تختم سورة يوسف بهذه الآيات الأخيرة من السورة؛ تعقيبا على سورة يوسف وقصته، التى هى محلّ العظة والاعتبار فى ألوان متعددة، منها: إلقاؤه فى الجب، ثم صيرورته فى بيت العزيز، ثم تعرُّضه للفتنة والامتحان، ونجاحه وسلامته، ثم إلقاؤه فى السجن، وتفسيره للرؤيا، ثم انتقاله وزيرًا مطلق اليد، ونجاحه فى إدارة أمور البلاد، وتسامحه مع إخوته، وتعظيمه أبويه، وأخيرًا تحقيق الرؤيا التى رآها يوسف.

ومعنى الآية:

إن هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم برسالة السماء، كانوا رجالا من البشر تميَّزوا باختيار الله لهم؛ لحمل رسالته: ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ. (الأنعام: ١٢٤)، كما شرفهم الله بالوحى إليهم، فلم يكونوا ملائكة، وإنما كانوا رجالا فى البشر نزل عليهم الوحى، قال تعالى: قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ. (فصلت:٦)، وقوله سبحانه: وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ. (الفرقان: ٢٠).

مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ. أى: من أهل المدن، والبلاد العامرة الكثيرة المبانى، لا من أهل البادية؛ فهم فى العادة أهل جفاء وغلظة، على حدّ قوله تعالى: ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ. (التوبة: ٩٧).

جاء فى تفسير القاسمى:

والقرى: جمع قرية وهو على ما فى (القاموس): المصر الجامع، وفى (كفاية المتحفظ): القرية: كل ما اتصلت به الأبنية، واتخذ قرارًا، وتقع على المدن وغيرها. اهـ.

قال ابن كثير :

والمراد بالقرى هنا : المدن ، أي : لا أنهم من أهل البوادى الذين هم أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا ، وهذا هو المعهود المعروف : أن أهل المدن أرق طباعًا ، وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى ، ولهذا قال تعالى : ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... الآية . قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى ؛ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العَمودُ.[٢٦] .

ونقل عن الحسن أنه قال : « لم يبعث رسول من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجن»[٢٧] .

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .

أفلم يعتبروا بسنن الله فى الخلق ، ويسيروا فى الأرض بأجسامهم أو بعقولهم وأفكارهم ، فيتأملوا وينظروا : كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . أى : من المكذبين من أمثال فرعون وهامان وعاد وثمود – كيف أهلك الله الكافرين ونجّى المؤمنين . والاستفهام هنا ؛ للتقريع والتوبيخ ، وفيه حثٌّ على النظر والتدبر والتفكّر ؛ ليكون ذلك سبيلا إلى الهداية .

وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى : إن العبرة التى يستخلصها العقلاء من وقوفهم على هلاك الظالمين ونجاة المؤمنين : أن الدنيا متاع قليل ، وأن الآخرة هى الحياة الدائمة للذين اتقوا ربهم وتزوّدوا لهذه الدار بالعمل الصالح .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أفلا تستخدمون عقولكم ؛ فتدركون أن الإيمان أبقى وأنفع ، وفيه تقريع وتوبيخ لهؤلاء المشركين الضالين ، الذى عطلوا عقولهم ؛ فلم يهتدوا بها إلى خير ، ولم يتعرفوا بها على حق ، وذلك هو الخسران المبين.

★ ★ ★

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات:

استيئس الرسل : أغرقوا فى اليأس والقنوط .

وظنوا أنهم قد كذبوا : أى : رجح عندهم أن نفوسهم حدثتهم بالنصر ، وكانت كاذبة فى حديثها .

بـــأســـنـــا : عذابنا .

التفسير:

١١٠– حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ .

فى هذه الآية بشارة بالنصر مهما طال جهاد المرسلين ، ومهما تعاقبت ظلمات من طول الجهاد وتأخر النصر ، حتى وصلت النفوس إلى لحظات من الشك فى النصر ، وهذه كناية عن المرحلة الحرجة التى تطيف بالنفوس ، عندما يطول ليل الظلام ، وتتأخر بوارق النصر ؛ فيتسرب اليأس إلى النفوس ، وتطيف بها لحظات من اليأس ، أو ضعف الأمل فى اقتراب النصر ، عبر عنه بقبوله .

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ . أى : كذبتهم نفوسهم ، حيث استيقنت بالنصر وتأملت طويلا حدوثه أو تأخر النصر بسبب من جهة أنفسهم ، وظنّت الرسل أنهم قد كُذبوا ، حين وعدوا بالنصر ، وتأخر النصر حتى ظنوا أن تقصيرا وقع منهم تسبب فى تأخير النصر .

جاء فى التفسير القرآنى للقرآن :

« وهكذا يظل الرُسل فى متلاطم الشدائد والمحن ، حتى لقد يدخل اليأس عليهم ، وتغيم الحياة فى أعينهم ، ويغمّ عليهم طريق النجاة ، ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم ؛ عندئذ تهب ريح النصر ، وتطلع عليهم تباشير الصباح ، فتطوى جحافل الظلام وتطارد فلوله ، وإذا دولة الباطل قد ذهبت ، وإذا راية الحق قد علت ، وفى هذا تسلية للنبى الكريم ، وشحذ لعزيمته ، قال تعالى : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة: ٢١) .

وليس فى استيئاس الرسل ، وفى إطافة الظنون بهم – ليس فى هذا ما ينقص من قدر الرسل ، فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به .

ولكن هناك مواقف حادة من الضيق ، وأحوال بالغة من الشدة تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره ، عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف ، يخون الإنسان يقينه ، ويفلت منه زمام أمره ، ثم يعود إلى موقفه ، أشد تثبتا ، وأقوى يقينا وأرسخ قدما .

فتلك الحال التى تُمثّل الرسل فى هذا الموقف ، هى القمة التى تنتهى عندها طاقة الاحتمال البشرى، فى مصادمة الأحداث ، ومدافعة الأهوال والشدائد ، وهى قمة لا يبلغها إلاّ أولو العزم من رسل الله[٢٨] .

وجاء في زاد الميسر لابن الجوزى :

قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ، المعنى متعلق بالآية الأولى فتقديره : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا . أى : فدعوا قومهم ، فكذبوهم ، وصبروا وطال دعاؤهم ، وتكذيب قومهم .

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ، وفيه قولان :

أحدهما : استيئسوا من تصديق قولهم ، قاله ابن عباس .

والثانى : من أن نعذّب قومهم ، قاله مجاهد[٢٩] .

وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ . توهموا أن نفوسهم كذبت عليهم ، حين توقعت النصر على من كفر بهم ، وعقابهم فى الدنيا – حتى إذا حدث كل ذلك – جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . أى : جاء نصر الله فجأة .

فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ . وهم النبىُّ والمؤمنون ، وحلَّ العقاب والعذاب بالمكذبين الكافرين .

وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . ولا يمنع أحدٌ عذاب الله عن القوم الذين أجرموا ، فكفروا بالله وكذبوا رسله ؛ فاعتبروا يا أهل مكة بسنن الله فيمن كان قبلكم ، واحذروا أن يحلّ بكم ما حلَّ بهم ، فإن الله ينصر رسله ولو بعد حين .

قراءة : كُذِّبُوا۟

وردت قراءة أخرى بتشديد الذال عن عائشة ، والمعنى : وأيقنت الرسل : أن الأمم كذّبوهم تكذيبا ، لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك ؛ فحينئذ دعوا عليهم، فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال .

ويجوز أن يكون المعنى : حتى إذا استيئس الرسل من إيمان قومهم ؛ فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم ، روى البخارى : عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير ، وهو يسألها عن قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ... الآية : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم ، وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

من تفسير روح المعانى للآلوسى :

« فالاعتقاد المرجوح هو ظن ، وهو وهم ، وهذا قد يكون ذنبا يُضعف الإيمان ولا يزيله ، وقد يكون حديث النفس المعفوّ عنه ، كما قال ﷺ : « إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ؛ ما لم تتكلم أو تعمل »[٣٠] .

ونظير هذا ما صحّ من قوله ﷺ : « نحن أولى بالشك من إبراهيم ؛ إذ قال له ربّه : أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى»[٣١] .

وعلى هذا يقال : الوعد بالنصر فى الدنيا لشخص ، قد يكون الشخص مؤمنا بإنجازه ، ولكن قد يضطرب قلبه فيه فلا يطمئن ؛ فيكون فوات الاطمئنان ظنًّا أنه كُذب ؛ فالشك والظنّ أنه كُذب من باب واحد، وهذه الأمور لا تقدح فى الإيمان الواجب ، وإن كان فيها ما هو ذنب ؛ فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك ، كما فى أفعالهم ، على ما عرف من أصول السنّة والحديث[٣٢] .

« وفى قصّ مثل ذلك ؛ عبرة للمؤمنين بهم ؛ فإنهم لابد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك فلا ييأسوا إذا ابتلوا ، ويعلمون أنه قد ابتلى من هو خير منهم ، وكانت العاقبة إلى خير ؛ فيتيقن المرتاب ، ويتوب المذنب ، ويقوى إيمان المؤمن ، وبذلك يصح الإتّساء بالأنبياء[٣٣] ومن هنا قال سبحانه : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ.

من تفسير القاسمى :

قال أبو نصر القشيرى : وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ . لا يبعد أن المراد : خطر بقلب الرُّسل فصرفوه عن أنفسهم ، أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل إذا قربت منه .

وقال الترمذى الحكيم : وجهه : أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله بالنصر ؛ أن يتخلف النصر، لا من تهمة بوعد الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال واشتد البلاء عليهم ؛ دخلهم الظن من هذه الجهة[٣٤] .

الابتلاء فى القرآن والسنة

لقد ورد فى معنى هذه الآية طائفة من الآيات والأحاديث والآثار ، تتلاقى مع الآية فى أن الله يمتحن الرسل والأنبياء والأولياء .

قال تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ . (البقرة: ٢١٤) .

وقال سبحانه: الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ .(العنكبوت: ١-٣) .

وقال ﷺ : « ما يصيب المؤمن من هم ولا حزن ولا وصب ولا تعب حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياه »[٣٥] . رواه البخارى .

وقال ﷺ : « أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل ، فالأمثل ، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »[٣٦] .

وقال ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »[٣٧] .

وقال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ . (البقرة: ١٥٥) .

فى أعقاب الآية

تظل هذه الآية منارًا لبيان سنة الله فى الدعوات ، لابدّ من الشدائد ، ولابد من الكروب ؛ حتى لا تبقى بقية من جهد ، ولا بقية من طاقة ، ثم يجىء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التى يتعلق بها الناس ...

يجب أن يستيقن الدعاة أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف .. وفى قصة يوسف ألوانٌ من الشدائد : فى الجبّ ، وفى بيت العزيز ، وفى السجن ، وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس ، ثم كانت العاقبة خيرًا للذين اتقوا ، كما هو وعد الله الصادق الذى لا يخيب[٣٨] .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات:

عبرة: عظة .

لأولى الألباب: لأصحاب العقول .

يفترى: يخترع ويلفق .

بين يديه: ما تقدم عليه .

التفسير:

١١١- لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ...

تأتى هذه الآية فى ختام سورة يوسف ؛ فتبرز الهدف من ذكر هذه القصة فتقول : لقد كان فى ذكر قصص الرسل والأنبياء عبرة وعظة لأصحاب العقول ؛ حيث تعرَّض يوسف لألوان من البلاء فصبر وتمسك بالتقوى ؛ وكان جزاء ذلك الفلاح فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة .

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ .

أى : ما كان هذا القرآن حديثًا يختلق ويكذب من دون الله ؛ لأنه كلام أعجز رواة الأخبار ، وحملة الأحاديث ، وإنما هو كلام الله من طريق الوحى والتنزيل ، المشتمل على العقائد والأخلاق ، وقصص الأمم الخالية فى أعلا درجات الفصاحة والبلاغة ، وذلك كله فوق طاقة الإنس والجن .

قال تعالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ .

جاء القرآن مصدقًا للكتب السماوية التى سبقته ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، أى : تصديق ما جاء فيها من الصحيح والحقّ ، ونفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، فهو مصدّق أصولها الصحيحة ، ومبين ما وقع فيها من اختلاف .

قال تعالى : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (النمل : ٧٦) .

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ .

والقرآن أيضا فيه تفصيل كلِّ شىء من الحلال والحرام ، والمحبوب والمكروه ، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وصفات الله الحسنى ، وقصص الأنبياء .

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى : هداية للناس من الضلال والحيرة ، ورحمة لقوم يؤمنون به ويسلكون سبيله ، ويهتدون بهديه .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره :

« وتفصيل كل شىء من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات ، والواجبات والمستحبات ، والنهى عن المحرمات ، وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الربّ تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ؛ فلهذا كان : هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد »[٣٩] .

خاتمة سورة يوسف

لقد كانت قصة يوسف مشتملة على العظات والعبر ؛ ففيها محن ليوسف فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن ، ومحن لإخوة يوسف حتى ضاقت ذات يدهم ؛ فقالوا : مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ، وفيها محن ليعقوب وابتلاء ؛ بغياب يوسف ؛ وغياب بنيامين ، حتى ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ، ثمَّ جمع الله الشمل ،ورفع الحسد والحقد ، فعفا يوسف عن إخوته ، وقدموا جميعا إلى مصر ، وتمّ سجودهم ليوسف ، ثم إكرام يوسف لوالديه وإخوته ، ثم حسن إدارته لمصر ، وعزوفه عن كل مظاهر الترف ، واعترافه لله تعالى بالفضل .

وفى ختام القصة اجتماع بعد فرقه ، وتكامل وتآلف ، وكأنَّ الله تعالى يذكر ذلك لرسوله ؛ مذكّرا بعاقبة الصبر والإيمان والتقوى ؛ وبهذا كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★


تفسير سورة الرعد

نظرات فى سورة الرعد(٤٠)

سورة الرعد من السور التى اختلف فى مكيتها ومدنيتها ؛ فقال قوم : إنها مكية ؛ لأنها شبيهة بالسور المكية فى قصتها وموضوعاتها ، وقال آخرون : إنها مدنية . ولكن موضوعاتها تشبه السور المكية . وفى المصحف المطبوع بالقاهرة : سورة الرعد مدنية ، وآياتها ٤٣ نزلت بعد سورة محمد .

وفى تفسير مقاتل بن سليمان : سورة الرعد مكية ويقال : مدنية . وتسمى : الرعد ؛ لقوله سبحانه فيها: وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ . (الرعد: ١٣) .

وسورة الرعد من أعاجيب السور القرآنية التى تستولى على النفس وتثير الوجدان وتزحم الحس بالصور والمشاهد ، ثم تأخذ النفس من أقطارها جميعا ، فإذا هى فى مهرجان من الصور والمشاعر . وتسلك السورة سبيلها إلى القلب وترتاد به آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا ، وهو مستيقظ مبصر مدرك شاعر بما يموج حوله من المشاهد والصور .

إنها ليست ألفاظا وعبارات ولكنها صور حية تستولى على الفؤاد وتلمس الوجدان وتوحى بالإيمان.

موضـوع السـورة

إن موضوع سورة الرعد الرئيس هو : العقيدة ، وقضاياها هى : التوحيد ، والبعث وهذا الموضوع تكرر عرضه فى سور سابقة ولاحقة .

ولكنه يعرض فى كل مرة بطريقة جديدة ، وفى ضوء جديد ، ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد .

تطوف سورة الرعد بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق وآماد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله فى شتى مجالاته الأخاذة : فى السماوات المرفوعة بغير عمد ، وفى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، وفى الليل يغشاه النهار ، وفى الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية ، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت فى قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد ، وفى البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال ، والمطر فى الوديان ، والزبد الذى يذهب جفاء ؛ ليبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

وهى تلاحق ذلك القلب أينما توجه – تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يلم بالشارد والوارد والمستخفى والسارب . ويتعقب كل حى ويحصى عليه الخواطر والخوالج . والغيب المكنون الذى لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى ، المحيطة بالكون ظاهره وخافيه ، جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه ، وهذا القدر الذى يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف ، ترجف له القلوب .

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل فى مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال إلى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، وخلجات الأنفس فى هذا وذاك ، إلى وقفات على مصارع الغابرين وتأملات فى سير الراحلين ، وفى سنة الله التى مشت عليهم فإذا هم داثرون .

مشاهد الكون فى سورة الرعد

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحى بهذا الكتاب ، والحق الذى اشتمل عليه فيقول سبحانه :

ٱلْمٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . (الرعد: ١) .

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها ، وتسترسل السورة فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون ، الدالة على قدرة الله الخالق ، وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة ؛ أن يكون هناك وحى ؛ لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس ، و أن مقتضيات تلك القدرة ؛ أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم ، وسخره لهم ؛ ليبلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الآيات الرائعة فى رسم المشاهد الكونية الضخمة ؛ نظرة إلى السماوات ، ونظرة إلى الأرضين ونظرة إلى مشاهد الأرض وكوامن الحياة .

قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الرعد: ٢ ، ٣).

وهذه اللفتة الأولى إلى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان ؛ فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد – أو حتى بعمد – إلاَّ الله ، وقصارى ما يرفعه الناس

بعمد أو بغير عمد ، تلك البنايات الصغيرة الهزيلة ، القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه ، ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنايات من عظمة ومن قدرة وإتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد وعما وراءها من القدرة الحقة ، والعظمة الحقة ، والإتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان.

ومن هذا المنظور الهائل الذى يشاهده الناس فى خلق الله ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار .

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ .

أى : استولى على ملك جميع الموجودات وأحاطت قدرته بجميع الكائنات ، ومع الاستعلاء والتسخير، الحكمة والتدبير .

كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ . ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فتجرى لأجل لا تتعداه ، ومن قدرة الله : أنه مد الأرض وبسطها أمام البصر ، وأمدها بمقومات الحياة .

وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ . ليكمل ، إبداع الخلق وتناسقه ، ثم تابع الله بين الليل والنهار فى انتظام عجيب ، ونظام دقيق يبعث على التأمل فى ناموس هذا الكون والتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أدلة الألوهية فى سورة الرعد

نحن فى سورة الرعد أمام عدد من أدلة الألوهية تتوارد وراء بعضها فى سياق بديع ، وعرض شائق.

فهناك الأرض التى تزرع بألوان مختلفة من النبات فيها : جَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .

منه ما هو عود واحد ، ومنه ما هو عودان أو أكثر فى أصل واحد وكله : يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَٰحِدٍ .

والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم : وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ .

فمن غير الخالق المدبر يفعل ذلك ؟!

إن القرآن بمثل هذه اللفتة يبقى جديدا أبدا ؛ لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون والنفس وهى لا تنفد ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الرعد: ٤) .

ومن أدلة الألوهية : إحاطة علم الله بالجنين فى بطن أمه ، وبالسر المكنون فى الصدر ، وبالحركة الخفية فى جنح الليل ، وبكل مختف بالليل وظاهر بالنهار ، وهو سبحانه محيط بكل من تكلم دمسا أو تكلم جهرا ؛ فإن كل شىء مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله وتتعقبه حفظة تحصى الخواطر والنوايا ، إلا إنها الرهبة الخاشعة التى لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن فى حماه ، وهى تتصور علم الله المحيط بكل شىء .

وتلحظ أن بعض الآيات فى سورة الرعد تلمس آفاق الكون الهائل مثل : الآيات الأربع الأولى من السورة ، وبعض الآيات تلمس أغوار النفس ومجاهل السرائر مثل : الآيات من ٨ إلى ١٠ حيث يقول سبحانه: ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ * عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ .

ثم يأخذ السياق فى جولة جديدة فى واد آخر تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس متداخلة متناسقة ، حيث يقول سبحانه : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ . (الرعد : ١٢، ١٣) .

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التى تصاحبها فى بعض الأحيان ، وهى بذاتها مشاهد ذات أثر فى النفس حتى اليوم ،وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها . والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع ؛ لتصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، وقد سميت السورة بسورة الرعد ؛ لقوله سبحانه : وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ .

والرعد هو ذلك الصوت المقرقع المدوى ، وهو أثر من آثار الناموس الكونى الذى صنعه الله – أيا كانت طبيعته وأسبابه – فهو رجع صنع الله فى هذا الكون ، وهو يحمد ويسبح بلسان الحال للقدرة التى صاغت هذا النظام ، كما أن كل مصنوع جميل متقن ، يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه ، بما يحمله من جمال وإتقان .

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحا للحمد ؛ اتباعا لمنهج التصوير القرآنى فى مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة ؛ لتشارك فى المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله ، وقد انضم إلى تسبيح الرعد بحمد الله ، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه ، وفى آية أخرى يقول سبحانه : وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . (الشورى:٥) .

وفى الحديث النبوى يقول الرسول ﷺ : « أطّت السماء ، وحق لها أن تئط : ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد يسبح الله تعالى » .

ثم يعبِّر السياق عن خضوع جميع الكائنات لمشيئة الله بالسجود ، وهو أقصى رمز للعبودية ، فتسجد الكائنات ويسجد ظلها معها عند انكسار الأشعة ، وامتداد الظلال ، فإن الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء ، كلها تسجد لله .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ . (الرعد: ١٥) .

النصف الثانى من سورة الرعد

فى النصف الأول من سورة الرعد حدثتنا السورة عن المشاهد الهائلة فى آفاق الكون وفى أعماق الغيب وفى أغوار النفس .

وفى النصف الثانى من السورة تسترسل الآيات فى لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رقيقة، حول قضية الوحى والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد . وهى جولة جديدة حول تلك القضايا فى السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة فى طبيعة الإيمان ، وطبيعة الكفر ؛ فالأول : علم ، والثانى : عمل ، أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ . (الرعد: ١٩)

وتبين الآيات طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين ، والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء ، ثم يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين ، ويعقب ذلك لمسة فى بسط الرزق وتقديره، وردهما إلى الله ، فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله ، فوصف لهذا القرآن الذى يكاد يسير الجبال ، وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى ، فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم ، أو تحل قريبا من دارهم ، فجدل تهكمى حول الآلهة المدعاة ، فلمسة عن مصارع الغابرين ، ونقص أطراف الأرض منهم حينا بعد حين ، يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول ﷺ بتركهم للمصير المعلوم .

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية فى شطر السورة الأول ، وتحضّر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل فى شطرها الثانى وهى على استعداد وتفتح لتلقيها ، وأن شطرى السورة متكاملان ، وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة ، هى الإيمان عن يقين كامل ، وأدلة مقنعة يطمئن لها القلب وتسكن إليها النفس . قال تعالى :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ . (الرعد: ٢٨) .

فقلب الكافر فى ضلال ، وقلب الجاحد مضطرب هواء ، وقلب المؤمن يطمئن لصلته بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه وحماه ، يطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدإ والمصير ويطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء الله ، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء ، ويطمئن برحمة الله فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة .

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله ، ليس أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعانى فى الحياة ؟ . ليس أشقى فى الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا فى فلاة عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك شدائد فى الحياة لا يصمد لها بشر ؛ إلا أن يكون مرتكنا إلى الله مطمئنا إلى حماه ، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . ففى الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله : أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ .

التناسق الفنى فى سورة الرعد

مما نلحظه فى سورة الرعد عنايتها بالمقابلة بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والاطمئنان والحيرة ، وحين تعرضت السورة لرسم مشاهد الكون عنيت بإبراز المشاهد المتقابلة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وشخوص وظلال ، وجبال راسية وأنهار جارية ، وزبد ذاهب وماء باق ، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن ثم تطرد هذه التقابلات فى كل المعانى وكل الحركات وكل المصائر فى السورة ؛ لتناسق التقابل المعنوى فى التقابلات الحسية ، وتتسق فى الجو العام.

ومن ثم يتقابل الاستعلاء فى الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد ، ويتقابل من أسر القول مع من جهر به ، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا ،

وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل المحو مع الإثبات فى الكتاب ..

وبالإجمال : تتقابل المعانى وتتقابل الحركات وتتقابل الاتجاهات ؛ تنسيقا للجو العام فى الأداء ، وهذا التناسق الفنى ، من بدائع الإعجاز فى القرآن الكريم . هذا القرآن العجيب الذى لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال ، أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ؛ لكان فى هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات ، ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء فإذا لم يستجيبوا له ؛ فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون وأن يدعوهم ويتركوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين .

قال تعالى : **وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ** . (الرعد: ٣١).

ولقد صنع هذا القرآن فى النفوس التى تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى ، لقد صنع فى هذه النفوس ، وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارا فى أقدار الحياة بل أبعد أثرا فى شكل الأرض ذاته ، فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ .

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها ، طبيعته فى دعوته وفى تعبيره ، طبيعته فى موضوعه وفى أداته ، طبيعته فى حقيقته وفى تأثيره . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام واستعداد لإدارك ما يوجه إليه ويوحى به ، والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال وهو تاريخ الأمم والأجيال ، وقطَّعوا ما هو أصلب من الأرض وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد. وأحيوا ما هو أخمد من الموتى ، وهو الشعوب التى قتل روحها الطغيان والأوهام ، والتحول الذى تم فى نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات: **بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا**

وهو الذى يختار نوع الحركة وأداتها فى كل حال . فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم ؛ فما كان أجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم وأن يدعوا الأمر لله فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى وهدى الناس جميعا على نحو خلقه الملائكة لو كان يريد .

لقد شاء الله أن يوجد الإنسان على وجه الأرض ومعه العقل والإرادة والاختيار والكسب ؛ حتى يتميز المؤمن من الكافر والمستقيم من العاصى وبذلك تتحقق الحكمة الإلهية فى تنوع الخلق واختلاف مشاربهم:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود: ١١٨، ١١٩) .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٤) ﴾

المفردات :

المـر : هذه حروف للتحدى والإعجاز ، أو هى مما استأثر الله بعلمه ، أو هى لافتتاح الكلام، أو أسماء للسور ، وقيل : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، ويجوز أن تشتمل على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها .

وسخر الشمس والقمر : لمصالح خلقه .

لأجل مسمى : لوقت معلوم وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة ، التى عندها تكور الشمس ويخسف القمر .

يدبر الأمر : أمر السماوات والأرض وحده بلا ظهير ولا معين .

يفصل الآيات : يبينها لكم .

لعلكم بلقاء ربكم توقنون : وبوحدانيته ووعده ووعيده .

مد الأرض : بسطها أمام البصر طولا وعرضا ، وأمدها بمقومات الحياة .

وجعل فيها رواسى : جبالا ثابتة ، وهى : جمع راسية ، يقال : أرسيت الوتد فى الأرض ؛ إذا أثبته .

ومن كل الثمرات : وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات .

زوجين اثنين : نوعين وضربين .

يغشى الليل النهار : يجلل الليل النهار فيلبسه ظلمته ، والنهار الليل فيلبسه ضياءه .

إن فى ذلك لآيات : استدلالات وحجج لمن فكر ؛ فيعلم أن العبادة لا تجوز إلا للخالق عز وجل .

وفى الأرض قطع متجاورات: أراضى يجاور بعضها بعضًا مع اختلاف طبيعة كل قطعة ولونها فهذه طيبة، وهذه سبخة مالحة ، وهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة ، وهذه سميكة وهذه رقيقة .

صنوان وغير صنوان : من النبات ما له أصول مجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وهو الصنوان أى: ما له عودان أو أكثر فى أصل واحد ، وغير صنوان ما كان على أصل واحد وعود واحد ، وواحد الصنوان : صنو وفى الصحيح : (عم الرجل صنو أبيه) .

يسقى بماء واحد : من السماء ، ومن شِرب واحد .

ونفضل بعضها على بعض فى الأكل : فمنها حلو ومنها حامض ومر ، وقيل : هو مثل فى بنى آدم ، أبوهم واحد ومنهم الصالح والخبيث .

التفسير:

١ - الٓمٓر ...

سبق أن ذكرنا : عدة آراء فى تفسير الأحرف المقطعة فى فواتح السور ، ومجملها ما يأتى :

(أ) أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه .

(ب) أنها فواتح للسور .

(ج) أنها للتحدّى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع أنَّه مؤلف من حروف عربية ينطقون بها ؛ فدلّ ذلك : على أن القرآن ليس من صنع بشر ، ولكنَّه تنزيل من حكيم حميد.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : هذه آيات هذه السورة من الكتاب ، أو هذه آيات القرآن البالغ حد الكمال ، المستغنى عن الوصف؛ الجدير بأن يختص باسم الكتاب .

وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ . أى : كل القرآن الذى أنزله إليك حق لا شك فيه ، لا يلتبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس ، وهذا التعبير جار على سنن العرب فى تخاطبهم ، حيث يميلون إلى الإجمال بعد التفصيل ، سئلت فاطمة الأنمارية عن بنيها : أيّهم أفضل فقالت : ربيعة ، بل عماره ، بل قيس، بل أنس ، ثكلتُهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها .

فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجملت القول ، وأثبتت لهم الفضل جميعا .

وكذلك هنا عندما قال : تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ .

أى : تلك آيات هذه السورة ، التى تستعرض آيات القدرة وعجائب الكون ، وحقائق القيامة ، والقرآن كله حق لا ريب فيه ، وصدق لا شك فيه .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم ؛ فهم لذلك لا يصدّقون بما أنزل عليك ، ولا يقرّون بهذا القرآن ، وما اشتمل عليه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف العصور والأزمان ، والتى لو سار عليها الناس ؛ لسعدوا فى الدنيا والآخرة .

٢- ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .

وهذه اللفتة الأولى إلى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان ؛ فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد – أو حتى بعمد – إلا الله ، وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنايات الصغيرة الهزيلة ، القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه ، ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنايات من عظمة ومن قدرة وإتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ، وعما وراءها من القدرة الحقة ، والعظمة الحقة ، والإتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان .

ومن هذا المنظور الهائل الذى يشاهده الناس فى خلق الله ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار .

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ . أى : استولى على ملك جميع الموجودات ، وأحاطت قدرته بجميع الكائنات وفى روايه : «العرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل»[41] .

ونحن نؤمن بهذه الآيات كما وردت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، تعالى الله علوًا كبيرًا .

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ . أى : ذلل الله الشمس والقمر وسائر الكواكب لمصالح عباده ، ولنفع الناس وإعمار الكون ، وذكر الشمس والقمر ؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة .

كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ . ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فتجرى لأجل لا تتعداه .

يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

٣- وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ... الآية .

بسط الله الأرض أمام البصر ، وجعلها صالحة للحياة ، فجعل الجبال أوتادا ؛ لحفظ توازنها ، وأمدها بالأنهار والمياه ، والماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية . قال تعالى : وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . (طه : ٥٣) .

ويقول سبحانه : وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ؛ ليكمل إبداع الخلق وتناسقه .

« والمعروف أن الثمرة هى نتاج عملية تناسل النباتات العليا التى تمتلك نظامًا مركبًا والمرحلة التى تسبق الثمرة هى مرحلة الزهرة بأعضائها الذكرية (الأبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات) وبعد نقل اللقاح تعطى هذه الأخيرة الثمار التى تعطى هذه الحبوب بعد النضج . إن كل ثمرة تتضمن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة ، ونلمح ذلك من المقطع السابق من الآية .

يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ . أى : جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتابع الله بين الليل والنهار فى انتظام عجيب ونظام دقيق يبعث على التأمل فى ناموس هذا الكون والتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . فإن التفكر والتأمل عبادة روحية صامتة تقود الإنسان إلى اليقين بقدرة الله رب العالمين .

٤- وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ..

والتربة واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم .

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ . أى : هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ؛ فهذا فى غاية الحلاوة ، وهذا فى غاية الحموضة ، وذا فى غاية المرارة، وذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا أصفر وهذا أحمر ، وهذا أبيض وكذلك الزهور مع أنها كلها تسقى من طبيعة واحدة وهو الماء ، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط ؛ ففى ذلك آيات لمن كان واعيًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

إن القرآن بمثل هذه اللفتة يبقى جديدًا أبدًا ؛ لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون النفس وهى لا تنفد ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود .

قال فى الميزان :

ومعنى الآية : أن من الدليل على أن هذا النظام الجارى قام بتدبير مدبر وراءه ، يخضع له الأشياء بطبائعها ، ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء ؛ أن فى الأرض قطعًا متجاورات متقاربة بعضها من بعض متشابهة فى طبع ترابها وفيها جنات من أعناب ، والعنب من الثمرات التى تختلف اختلافًا عظيمًا فى الشكل واللون والطعم والمقدار ، واللطافة والجودة وغير ذلك ، وفيها زرع مختلف فى جنسه وصنفه من القمح والشعير وغير ذلك وفيها نخيل صنوان أى : أمثال ثابتة على أصل مشترك فيه . وغير صنوان أى: متفرقة . تسقى الجميع من ماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض بما فيه من المزية المطلوبة فى شىء من صفاته[٤٢] .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

وإن تعجب : العجب والتعجب كلاهما يستعمل على وجهين : أحدهما : فيما يستحسن ويحمد ، والثانى : فيما يكره وينكر .

الأغـــلال : جمع غُل بضم الغين . وهو طوق من حديد ، أو غيره يوضع فى العنق أو فى اليد ؛ فتشد به إلى العنق .

التفسير :

٥ – وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ...

أنكر الكفار البعث والحشر والجزاء والحساب ، مع ما تقدم لهم من دلائل القدرة الإلهية ، التى تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحىّ فغفلوا عن تقدير هذه القدرة ، وظنوا أن موت الإنسان ودفنه فى التراب ، يصعب معه حياة الإنسان مرة أخرى .

والمعنى : وإن تعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ما شاهدوه من دلائل قدرة الله تعالى . فعجب أشدّ منه قول المشركين :

أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أى : إذا فنيت أجسامنا ، وتفتت عظامنا ، وبليت وتحللت أجسامنا ، فإن الإعادة والبعث فى صورة خلق جديد أمر بعيد مستغرب ، ولو عقلوا ؛ لأدركوا أن قدرة الله على البدء متوفرة فى الإعادة ؛ بل الإعادة أهون .

قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . (الروم. ٢٧) .

من تفسير الكشاف للزمخشرى :

وَإِن تَعْجَبْ . يا محمد من قولهم فى إنكار البعث ؛ فقولهم عجيب ، حقيق بأن يتعجب منه ؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد من الفطر العظيمة ، ولم يعْى بخلْقهنّ ؛ كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره ؛ فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب[٤٣] . وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعا فى تسع سور من القرآن الكريم ، فى الرعد والإسراء والمؤمنون والنحل والعنكبوت ، والسجدة والصافات والواقعة والنازعات ، وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد ، مثل قوله تعالى : يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً * قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ . (النازعات ١٠–١٤) .

ومثل قوله تعالى : وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . (الواقعة: ٤٧–٥٠) .

ومثل قوله تعالى : وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . (الإسراء : ٤٩) .

وجوّز بعضهم : أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أى : وإن تعجب أيها العاقل بشىء ؛ فازدد تعجبا ممن ينكر قدرة الله على إحياء الموتى .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ .

أى : هؤلاء المنكرون للبعث المستبعدون له ، هم الذين كفروا بربّهم وخالقهم ، وجحدوا نعمه المتعددة ، ولم يتأمّلوا بعقولهم فى أن من أوجدهم قادر على إعادتهم بعد الموت .

وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ .

لقد حجّروا أنفسهم ، كأنما وضعوا قيودًا فى أيديهم وأعناقهم من الضلال ، تصدهم عن التأمل والتفكر واتباع الحق ، كما قال القائل :

كيف الرشاد وقد خلقت فى نفر   لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى :

أولئك الذين توضع القيود والأغلال فى أيديهم وأعناقهم يوم القيامة ؛ عندما يساقون إلى النار بذلة وقهر ؛ كما يقاد الأسير الذليل فى القيد والغلّ .

قال تعالى : إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ . (غافر: ٧١ ، ٧٢).

وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

أى : وأولئك الملازمون للنار ، حتى كأنهم أصحابها ؛ من طول إقامتهم فيها ، وهم ملازمون لها لا يخرجون منها أبدًا .

★ ★ ★

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

السيئة : العقوبة .

الحسنة : العافية والسلامة .

المثـــلات: جمع مَثُله - بفتح الميم وضم الثاء . وهى العقوبة ، سميت بذلك ؛ لأنها تماثل الذنب ، والمراد بالمثلات فى الآية الكريمة عقوبات أمثالهم المكذبين قبلهم .

التفسير:

٦ - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ...

أى : إن هؤلاء المشركين لظلمهم وعدوانهم وعنادهم ؛ إذا توعدهم النبى بالعذاب إن لم يؤمنوا ؛ قالوا له : أرنا هذا العذاب إن كنت صادقًا ، وقد عبّر عن هذا المعنى فى قوله سبحانه : وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال: ٣٢) .

أى : أنهم بدل أن يطلبوا من الرسول : الدعاء لهم : بالأمان والخير ، والعافية والهداية والأمور الحسنة، فإنهم يستعجلون الأمور السيئة ، ووقوع العذاب بهم تهكما وعنادًا .

وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ .

أى : هلاك الأمم المكذبة ، الذين جعل الله هلاكهم سلفا ومثلا للآخرين ، فمنهم : أمة مسخت قردة ، وأخرى : خنازير ، وثالثة : أهلكت بالخطف ، ورابعة : أهلكت بالرجفة ، وخامسة : بالغرق ، حيث جعل الله العقوبة التى أنزلها بالمكذبين عظة وعبرة ومثلا واضحًا لجزاء كلّ مكذب .

قال تعالى : وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

أى : إن الله تعالى فتح بابه للتائبين ، وستر على المذنبين ، وقبل توبة التائبين ، ولم يعجل بعقوبة المذنبين ، قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ .. (فاطر ٤٥) .

وهو سبحانه شديد العقاب لمن مات مصرًا على المعصية ، وبهذا نجد الآية الكريمة قد جمعت بين الرحمة والعذاب والرجاء والخوف ؛ حتى يتكامل الموقف ، ويأخذ الإنسان بنصيبه فى العمل والتوبة قبل أن ينزل به العذاب ، وفى هذا المعنى قال تعالى : نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩ ، ٥٠) .

قال ابن جرير الطبرى :

وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر خير ، فإنه وعيد من الله ، وتهديد للمشركين من قوم رسول الله ﷺ؛ إن هم لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم ، قبل حلول نقمة الله بهم[٤٤] .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

الذين كفروا : المراد بهم هنا : كفار أهل مكة .

لولا أنزل : لولا بمعنى : هلاّ ، فكلتاهما للحض والحث على فعل الشيء .

آية من ربه : الآية : العلامة ، والمراد بها هنا : ما طلبوه من الخوارق مثل : تفجير الينابيع والأنهار ، والرقى فى السماء .

التفسير :

٧ - وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ...

وهذا لون آخر من تعنت المشركين من أهل مكة ، فقد أنزل الله القرآن الكريم ، معجزة خالدة على رسوله محمد ﷺ ، وآية باقية ، لكن كفار مكة اقترحوا على الرسول : أن ينزل عليهم آية مثل آيات الرسل السابقين ، أى : كعصا موسى ، أو ناقة صالح ، أو إحياء الموتى على يد عيسى .

أى : هلاّ أنزل على محمد معجزة مادية ملموسة تدلّ على صدقه ، مثل : تفجير ينابيع الأرض ، وزحزحة الجبال من حول مكة ، ثم ينبت مكانها الأعناب وصنوف النباتات ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم مثل هذه الاقتراحات فى سورة الفرقان فى الآيات ٧ - ١١ ، وكذلك فى سورة الإسراء ، حيث يقول سبحانه: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا . (الإسراء: ٩٠-٩٣).

إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ .

أى : إن وظيفتك قاصرة على إبلاغ الرسالة ، وتبشير المؤمنين بالجنة ، وإنذار المشركين بالعذاب، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ؛ لإفهام المشركين : أن وظيفة الرسل قاصرة على تبليغ الرسالة والدعوة إلى الإيمان ، وإنذار المكذبين ، والرسول بعد ذلك بشر يوحى إليه ، فليس إلها ، ولا يملك الاستجابة لمطالبهم وتحقيق رغباتهم المتعنِّتة ، قال تعالى : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا . (الإسراء:٥٩) ؛ فهؤلاء كفار مكة إذا جاءتهم معجزة مادية ، سيصرُّون على كفرهم وبذلك يستحقون نزول العذاب بهم ؛ عقوبة على كفرهم وعنادهم ، وقد شاء الله أن يكون الإسلام آخر الرسالات ، وأن يكون محمد ﷺ خاتم الرسل ، وأن تكون معجزته عقلية خالدة باقية ، وألا يهلك قومه فى حياته ، قال تعالى : وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ . (الأنفال: ٣٢ ، ٣٣) .

وكان النبى ﷺ حريصًا على هداية قومه ، فكان الوحى يرشده إلى الصبر والاحتمال ، وبيان أن هذه سنة الله فى خلقه ، قال تعالى : لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ . (البقرة: ٢٧٢) . إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ . (الشورى: ٤٨) ، فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ . (الغاشية: ٢١ ، ٢٢) .

وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ .

أى : نبى يدعوهم إلى الهدى والرشاد ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو يعطى كل رسول ما يناسبه من الآيات والمعجزات وقد شاء سبحانه أن يؤيد محمدا بمعجزة خالدة باقية داعية إلى الهداية .

أى : لكل قوم من أقوام الرسل معجزة داعية إلى الهدى لمن اهتدى بها ، وقد أعطى الله محمدًا القرآن أبلغ داعية إلى الهدى[٤٥] ، قال تعالى : أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ . (العنكبوت: ٥١) .

★ ★ ★

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

تغيض الأرحام : تنقص ، ومنه : غِيضَ ٱلۡمَآءُ .

بمقدار : أى : بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه .

عالم الغيب والشهادة : يعلم ما غاب عن الحسّ مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل ، كما يعلم الحاضر المشاهد .

الكبير المتعال : العظيم الشأن ، المستعلى على كل شيء فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله .

سواء منكم من أسر القول ومن جهر به : أى : هو سبحانه مستو فى عمله : من أخفى منكم القول ، ومن أعلنه ، ومن بالغ فى الاستخفاء ، ومن ظهر .

التفسير :

٨- ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ...

تأتى هذه الآية وما بعدها ؛ لبيان علم الله الشامل وقدرته الحقة ، وفى مقام الردّ على من أنكر البعث والحشر والجزاء .

فهو سبحانه عالم بكل شيء : إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ . يعلم ما تحمل كل أنثى من ذكر أو أنثى ، طويل أم قصير ، تام الخلقة أو ناقصها ، صبيح أم قبيح ، صالح أم طالح ، شقى أم سعيد ، قال تعالى : وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ . (لقمان: ٣٤) .

وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ .

إنه سبحانه يعلم ما يكون فى داخل الأرحام من نقص فى الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص فى العدد أو زيادة فيه ، فقد يكون واحدًا وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، وقد تكون مدة الحمل أقل من تسعة أشهر ، وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، وقد دلت البحوث : على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حىّ أكثر من ٣٠٨ أيام ، أى : عشرة أشهر وبضعة أيام .

وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ . أى : ولكل شىء ميقات معين ، لا يعدوه زيادة ولا نقصا .

قال تعالى : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . (القمر: ٤٩) ، كما قال سبحانه : وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . (الحجر: ٢١) .

وقد روى الشيخان : أن زينب بنت النبى ﷺ أرسلت إليه تخبره : أن ابنًا لها فى الموت يحتضر ، وتدعو النبى أن يحضر إليها ، فبعث إليها رسول الله ﷺ من يقول لها : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ؛ فاصبرى واحتسبى »[٤٦] .

٩- عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...

إنه سبحانه مطلع على السرّ والنجوى ، محيط علمه بكل غائب وحاضر ، مطلع على ما هو غائب لا تدركه الأبصار من عوالم لا نهاية لها ، ومن أفلاك وملائكة وجن وقوى خفية ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ . (المدثر: ٣١) ، ومطلع أيضا على الظاهر المشاهد ، ثم هو يجازى ويحاسب الجميع ، قال تعالى : يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (غافر: ١٩ ، ٢٠) .

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ .

أى : هو العظيم الشأن ، المستعلى على كل شىء بقدرته وجبروته ، وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

الْمُتَعَالِ . الذى يجلّ عما وصفه به الخلق من صفات ، ويستعلى على ما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله.

١٠- سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ .

إن علم الله يشمل السر والجهر ، والخفى والظاهر ، يستوى عنده كلّ ذلك ؛ فعلمه ممتد شامل ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

قال الشوكانى :

سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ . فهو يعلم ما أسره الإنسان ، كعلمه بما جهر به من خير أو شر، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ . أى : مستتر فى الظلمة متوار عن الأعين ، وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . أى : بارز وظاهر بالنهار فالظاهر فى الطرقات ، والمستخفى فى الظلمات ، علم الله فيهم جميعًا سواء[٤٧] . اهـ .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) ، ويقول سبحانه: وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . (النمل: ٢٥) .

ويقول عز شأنه : وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ . (البقرة: ٢٨٤) .

وقد سمع سبحانه المرأة المجادلة من فوق سبع سماوات وأنزل آيات بشأنها فى صدر سورة المجادلة، فبدأ بقوله تعالى : قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ . (المجادلة: ١) .

★ ★ ★

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

معقبات : هم الحفظة ، يأتى بعضهم بعقب بعض .

من بين يديه : من قدّامه .

من خلفه : من ورائه .

من أمر الله : أى : بأمره وإعانته .

وال : ناصر .

التفسير :

١١ – لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ...

أى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين ممن يسرُّون القول أو يجهرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ، ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ – إنما هو بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك ، فإذا جاء قدر الله تخلَّوا عنه ، وفى الحديث الصحيح : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا

فيكم؛ فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلُّون ، وتركناهم وهم يصلُّون»[٤٨] . (أخرجه البخارى) .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ .

جعل الله لهذا الكون نواميس وأسبابا ؛ فمن سلك طريق الهدى ؛ يسر الله له سبل الهداية ، ومن بدَّل نعمة الله كفرا ؛ غير الله عطاءه له إلى نقمة وعقاب فى الدنيا والآخرة ، وتلك آية فى العدالة الإلهية ؛ فقد جعل للنصر أسبابا ، وللهلاك أسبابا ، فلا يسلب الله نعمة أنعم بها على قوم ؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم ، من الخير والأعمال الصالحة .

قال تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ . (النحل: ١١٢) .

ويصح أن يكون المعنى : إن الله لا يغيِّر ما بقوم من العقاب والبلاء ؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصى ؛ ليكونوا أهلاً لعفوه ورحمته .

ومن أسباب استحقاق الناس للعقوبة : ظهور الفاحشة يتعامل بها علانية ، وإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

جاء فى تفسير المراغى :

روى : أن أبا بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ؛ يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب »[٤٩] .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً . (الأنفال : ٢٥) .

وأشار إلى ذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمة التاريخ تحت عنوان : (فصل : فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران).

وأخذ يضرب الأمثال بكثير من الأمم ، التى ثلَّ الظلم عروشها ، وأذلَّ أهلها ، وجعلها طعمة للآكلين ، ومثلا للآخرين .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) ، أى : الصالحون لعمارتها والانتفاع بها .

وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

أى : إذا أراد الله بقوم سوءا ، من مرض وفقر ونحوهما ، من أنواع البلاء ، كالهلاك والعذاب فَلَا مَرَدَّ لَهُ. فلا دافع لبلائه على اختلاف أنواعه ، وقيل : المعنى : إِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا ؛ أعمى أبصارهم وبصائرهم؛ فاختاروا ما فيه هلاكهم وعملوه بأنفسهم ، فيستحيل لذلك ردّه عنهم .

وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ . أى : ليس لهم ملجأ أو ناصر غيره يقيهم من أخذ الله لهم ، ويدفع عنهم السوء، وفى هذا دلالة قاطعة على أن تخلف مراد الله تعالى محال، وإيذان بأنهم حين أنكروا البعث ، واستعجلوا السيئة ، واقترحوا الآية ؛ قد استحقوا العذاب ، الذى لا يستطيع أحد دفعه عنهم : إذا أراد الله نزوله بهم .

★ ★ ★

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

خوفا وطمعا : خوفًا للمسافرين فى أسفارهم من مشقته وأذاه ، وطمعًا للمقيم أن يمطر فينتفع به.

وينشئ السحاب الثقال : الذى فيه ماء .

ويسبح الرعد بحمده : يخضع الرعد لقدرة الله ونظامه المحكم فى هذا الكون فهو يعظم الله ويحمده.

والملائكة من خيفته : من خوف الله عز وجل ورهبته .

ويرسل الصواعق : جمع صاعقة ، وأصل الصاعقة : كل أمر جسيم يؤدى إلى هلاك أو ذهاب عقل أو فقد بعض الجسم .

وهم يجادلون فى الله : ذكر : أن رجلا أنكر القرآن ، وكذب النبى ﷺ ؛ فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته

وهو شديد المحال : شديد المماحلة فى عقوبة من طغى وعتا عليه ، و المحال مصدر من ما حلت فلانًا محالا ؛ إذا عرضته لما يهلكه ، وقيل : شديد الأخذ ، شديد القوة .

له دعوة الحق : لا إله إلا الله .

والذين يدعون من دونه : يعنى : آلهة المشركين .

إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه : أى : كالرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ؛ ليرتفع إليه الماء ، فلا يدركه .

وما هو ببالغه : حتى يموت عطشًا ، وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو من دونه آلهة لا تضر ولا تنفع.

إلا فى ضلال : فى غير هدى ولا استقامة .

ولله يسجد من فى السماوات
والأرض طوعًا وكرهًا : المؤمن يسجد طوعًا ، والكافر يسجد كرهًا .

وظلالهم بالغدو والآصال : يقول : ويسجد أيضًا ظلال كل من يسجد لله طوعًا وكرهًا .

بالغدو : أى : البكور .

والآصال : جمع أصيل وهو ما بين العصر إلى مغيب الشمس .

التفسير :

١٢ ، ١٣ - **هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ .**

يخبر الله تعالى : أنه هو الذى يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعًا من خلل السحاب[٥٠].

خَوْفًا وَطَمَعًا . قال قتادة : خوفًا للمسافر ؛ يخاف أذاه ومشقته ، وطمعًا للمقيم ؛ يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله .

وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ . قال مجاهد : السحاب الثقال : الذى فيه الماء .

وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ . أى : يظهر قدرته تعالى وجبروته وتسخيره لجميع ظواهر هذا الكون كقوله تعالى : **وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ...**

وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق ؛ قال : « اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[٥١] ، وعن أبى هريرة مرفوعًا : أنه كان إذا سمع الرعد قال : سبحان من يسبح الرعد بحمده،

وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد؛ ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض[٥٢].

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة، وكذلك الصواعق التى تصاحبها فى بعض الأحيان، وهى بذاتها مشاهد ذات أثر فى النفس حتى اليوم، وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها. والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع؛ لتصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر[٥٣].

وقد سميت السورة بسورة الرعد؛ لقوله سبحانه فيها: وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ. (الرعد: ١٣)

والرعد هو ذلك الصوت المفرقع المدوى، وهو أثر من آثار الناموس الكونى الذى صنعه الله أيا كانت طبيعته وأسبابه فهو رجع صنع الله فى هذا الكون، وهو يحمد ويسبح بلسان الحال، للقدرة التى صاغت هذا النظام، كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من جمال وإتقان.

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحًا للحمد؛ اتباعًا لمنهج التصوير القرآنى فى مثل هذا السياق، وخلق سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة؛ لتشارك فى المشهد كله، وقد انضم إلى تسبيح الرعد بحمد الله، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه، وفى آية آخرى يقول سبحانه: وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ. (الشورى: ٥).

وفى الحديث النبوى يقول الرسول ﷺ: «أطّت السماء، وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد يسبح الله تعالى»[٥٤].

وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ. أى: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء.

قال قتادة: ذكر لنا: أن رجلا أنكر القرآن، وكذب النبى ﷺ؛ فأرسل الله صاعقة؛ فأهلكته.

وذكروا فى سبب نزولها: قصة (عامر بن الطفيل) و (أربد بن ربيعة)، لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه: أن يجعل لهما نصف الأمر؛ فأبى عليهما رسول الله ﷺ: فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله، أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا، ورجالا مردا؛ فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله ذلك وأبناء قيله» يعنى: الأنصار، ثم إنهما همًّا بالفتك برسول الله، فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه؛ ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا فى أحياء العرب يجمعان الناس؛ لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أربد) سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما (عامر بن

الطفيل)، فأرسل الله عليه الطاعون ، فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول : يا أهل عامر ، غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية ، حتى ماتا لعنهما الله وأنزل الله فى مثل ذلك : وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ .(٥٥).

وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ . أى : يشكون فى عظمته وأنه لا إله إلا هو .

وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ . قال ابن جرير : شديدة مما حلته فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . (النمل: ٥٠ ، ٥١) ، وعن على رضى الله عنه : وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ. أى : شديد الأخذ ، وقال مجاهد : شديد القوة .

١٤ - لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ...

من الدعاء ما يحظى بالإجابة وما يكون دعاء حقًا ، وهو دعاء من يملك الإجابة ، أى : دعاء الله جل جلاله ؛ فهو سبحانه يسمع الداعى ويستجيب له ، قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . (البقرة: ١٨٦) .

وقال سبحانه : ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ . (غافر: ٦٠) .

ومن الدعاء ما يتجه به الداعى إلى الأصنام والنجوم وغيرها من المخلوقات التى لا تملك الإجابة ، فالأصنام لا تسمع وغيرها من الملائكة أو الجن ، أو البشر لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فكيف بغيرهم ؟!

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر: ١٤) .

وهذا القسم من الدعاء جدير بأن يسمى : دعاء الباطل ، وهو الذى لا يهتدى إلى هدف الإجابة كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابة .

لقد ذكر الله فى الآيات السابقة : أنه عليم بكل شىء ، قدير على كل شىء ، ثم ذكر فى هذه الآية : أن له حقيقة الدعاء والاستجابة ؛ فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير .

وقد ذكر ذلك فى الآية بطريقى الإثبات والنفى ، أعنى : إثبات حق الدعاء لنفسه ونفيه عن غيره .

أما الأول فقوله :

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ . وتقديم الظرف يفيد الحصر ، ويؤيده ما بعده من نفيه عن غيره .

وأما الثانى فقوله :

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ .

وقد أخبر فيه : أن الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يستجيبون لهم بشىء ، ثم صورة معبرة تؤكد ضلال من يدعو غير الله وهى صورة ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه إلى بئر سحيق فيه ماء وفمه مفتوح يلهث بالدعاء ، يطلب الماء ؛ ليبلغ فاه فلا يبلغه ، وما هو ببالغه ، بعد الجهد واللهفة والعناء ، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد ، حين يدعون الشركاء .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ .

فهذا الدعاء للأصنام ليس له من الدعاء إلا صورته كما أن باسط كفيه إلى الماء ليس له إلا صورة الطلب ببسط الكفين ، ولن ينتقل الماء إلى فمه .

ومن هنا نعلم أن هذا الاستثناء : **إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ** ... إلخ ، لا ينتقض به عموم النفى المستثنى منه ولا يتضمن إلا صورة الاستثناء فهو يفيد : تقوية الحكم فى جانب المستثنى منه فإن مفاده : إن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه إلى الماء ولن يستجاب له ، وبعبارة أخرى : لن ينالوا بدعائهم إلا عدم الإجابة ، أى : لن ينالوا شيئًا البتة .

وهذا من لطيف كلامه تعالى[٥٦] ، ويناظر من وجه قوله سبحانه : **قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا** . (الرعد: ١٦) .

وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ . أى : فى ضياع وانحراف ، فإن الأصل فى الدعاء أن يتوجه به الإنسان إلى من يملك الإجابة وهو الله سبحانه وتعالى :

فمن دعا غير الله ؛ فقد ضل دعاؤه وانحرف وضاع ، والضلال : هو الخروج عن الطريق وسلوك ما لا يوصل إلى المطلوب .

قال الطبرى : وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ .

وما دعاء من كفر بالله ما يدعو من الأوثان والآلهة إلا فى ضلال ، يقول : إلا فى غير استقامة ولا هدى؛ لأنه يشرك بالله .

١٥- وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ .

كل من فى الكون خاضع لأمر الله وإرادته ؛ إذ إنه يعيش فى ملكه ويسير وفق قانونه ، المؤمن يخضع لله ؛ طاعة وإيمانًا وغير المؤمن يخضع كرهًا وإرغامًا ، فإذا مسه الضر أو خاف الموت أو الغرق ؛ لجأ إلى الله داعيًا مستجيرًا .

قال تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّـٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ... (الإسراء: ٦٧).

وقال تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ. (العنكبوت: ٦٥) .

وقال سبحانه : لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ . (يونس : ٢٢) .

وفى ظلال القرآن ما يأتى :

والسياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ثم يضم إلى شخوص من فى السماوات والأرض ظلالهم كذلك ، ظلالهم بالغدو فى الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال يضم هذا الظلال إلى الشخوص فى السجود والخضوع والامتثال وهى فى ذاتها حقيقة ، فالظلال تبع للشخوص ، ثم تلقى هذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب ، وإذا الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله .. وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله[٥٧] .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير :

١٦ – قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ...

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السماوات والأرض ، خاضع لقُدرته ، منقاد لإرادته بالغدوّ والآصال، اتجه فى هذه الآية إلى مناقشة المشركين عن طريق السؤال والجواب .

والمعنى : قل لهم يا محمد : من ربّ هذه الأجرام العظيمة التى ترونها ، فيبهركم ما فيها من دقة وكمال وجمال ؟! ، فإذا تأخروا فى الجواب ؛ عنادًا أو مكابرة ؛ فقل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع هو الله ، وهذا جواب يتفق عليه السائل والمجيب ، بدليل قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ . (الزخرف: ٨٧) .

قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا .

أى : إذا علمتم أن خالق هذا الكون البديع هو الله ؛ فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرًا ؟! فكيف تنفع غيرها أو تضرّ ؟!

وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السَّفه ، الذى لا يرضاه لنفسه رشيد .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ .

أى : توجه بالسؤال إليهم يا محمد ، وقل لهم : هل يستوى الأعمى الذى لا يبصر ، والبصير الذى يرى ويهدى الأعمى إلى سواء الطريق ؟!

لاشك أنهما غير مستويين ؛ فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتّبعه ، ويعرف الهدى فيسلكه ، لا يستوى هو والكافر ، الذى أعرض عن الحق .

أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ .

أى : هل يستوى ظلام الكفر ونور الإيمان .

أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ .

ترى أن الآية تلاحق المشركين بهذه الأسئلة فلا يجدون مناصا من الإذعان ، وكأنها تأخذ بتلابيبهم فى أسلوب تبكيتى تهكمى ، فتقول : هل خلقت هذه الأصنام مخلوقات كما خلق الله ، فتشابه الخلق على المشركين ، فلم يستطيعوا التمييز بين خلق الله وخلق آلهتهم ؟! فيكون لهم بعض العذر فى عبادة هذه الأصنام ، ولكن الأمر ليس كذلك ؛ لأنهم جعلوا لله شركاء عاجزين لا يقدرون على شىء ، ثم بين فذلكة لما تقدم ، ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت لها فقال :

قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : الله تعالى هو الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وهو سبحانه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، ٱلْقَهَّـٰرُ . لكل ما سواه ، والغالب لكل من غالبه .

★ ★ ★

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

المفرادت :

أوديــــة : جمع واد ، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام . ويكون منفذا للسيل .

الــزبــد : ما يعلو وجه الماء كالرغوة .

رابيــا : مرتفعا فوق الماء .

الحليـة : ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

مـتـاع : المتاع كل ما ينتفع به من الطعام والثياب وأثاث البيت . ويراد بالمتاع هنا : أثاث البيت المتخذ من نحو الحديد والنحاس والرصاص .

جـفـاءً : مرميًا به ، يقال : جفأ الماءُ بالزبد ؛ إذا قذفه ورمى به ، وجفأتِ القِدْرُ : رمت بزبدها عند الغليان.

استجابوا : أجابوا بصدق .

الحسنى : مؤنث الأحسن ، والمراد بها : المثوبة الحسنى ، وهى : الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

التفسير :

١٧- أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ...

تمهيد :

ضرب الله تعالى بهذه الآية مثلا فى بقاء الحق ونقائه ، وهلاك الباطل وفنائه ، فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وقد يرتفع شأن الباطل إلى حين ؛ لكنه لا أساس له ، قال تعالى : **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**. (إبراهيم : ٢٤-٢٦) .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ...

ضرب الله مثلا للحق فى عموم فائدته ، وعظيم بركته بالماء الصافى الذى أنزله الله من السماء فسالت به أودية بين الجبال والآكام ؛ بحسب مقدارها فى الصغر والكبر ، فحمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدًا عاليا ، مرتفعا فوقه ، طافيا عليها ، وهذا هو المثل الأول الذى ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر ؛ فالحق يشبه الماء ؛ فهو ينساب فى بطون الأرض ، ثم تحيا به الأرض ، وتثمر ما ينفع الإنسان والحيوان ، والباطل يشبه الرَّغوة التى تعلو فوق سطح الماء ؛ لكنَّها تضمحل وتزول وتنتهى .

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ .

أى : ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أو فضة ، وكذلك من سائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص ؛ عندما يطرح الناس هذه المعادن فى النار ؛ لتصفيتها وصهرها ، وليتخذوا حليا تصنع من

الذهب والفضة ، أو أوانى ينتفعون بها ويصنعونها من الحديد والرصاص والنحاس ، وفى أثناء صهر هذه المعادن يعلو فوقها زبد كزبد الماء فى كونه رابيا فوقه ولا ينتفع به ، والزبد الذى يعلو فوق الماء ، ومثله الزبد الذى يعلو فوق المعادن عند صهرها ؛ مثل للباطل ، لا ثبات له ولا دوام له أمام الحق .

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ .

أى : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق والباطل إذا اجتمعا ؛ بأن يبين : بأنه لا ثبات للباطل مهما علا وارتفع – مع وجود الحق – كما أنه لاثبات للزبد مع الماء الصافى ، ولامع المعادن النقية ، وتقدير الكلام : (كذلك يضرب الله مثل الحق ، ومثل الباطل).

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ .

أى : فأما الزبد الذى يعلو السيل ؛ فيذهب فى جانبى الوادى ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شىء ؛ وأما ما ينفع الناس من الماء الخالص الصافى ، وما خلص من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ، فيمكث فى الأرض ، فالماء يُشرب بعضه ، ويذهب بعضه الآخر إلى جوف الأرض ؛ لينتفع به العيون والآبار والأفلاج ، وأما المعادن فيصاغ من بعضها أنواع الحلىّ والنقود ، ويؤخذ من بعضها الأوانى وأصناف الآلات والأدوات ، والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ . أى : مثل ذلك البيان البديع الذى اشتملت عليه الآية الكريمة ، يضرب الأمثال للناس فى كل باب ؛ حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها ، وطرق الباطل فيتركوها .

من أقوال العلماء

قال الإمام الشوكانى :

هذان مثلان ضربهما الله تعالى فى هذه الآية للحق والباطل يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال ؛ فإن الله تعالى سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله ، كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ؛ فإنه وإن علا عليها ، فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذى ينفع الناس ، وينبت المرعى ؛ فيمكث فى الأرض ، وكذلك الصافى من هذه الأجسام؛ فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

وقال الزجاج :

(مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به فى نبات الأرض ، وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ؛ لأنها كلها تبقى منتفعا بها .

ومثل الكافر وكفره ، كمثل الزَّبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد ، وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى ينتفع به)[٥٨] .

من الصحيحين

روى البخارى ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به ، ونفع به الناس فَعَلِمَ وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[٥٩] .

١٨- لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ... الآية .

أى : الذين أجابوا داعى الله وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هؤلاء المؤمنين الطائعين لله ، لهم الحسنى وهى الجنة ، أو المنزلة الحسنة فى الدنيا والآخرة .

وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ .

أى : إن الذين أعرضوا عن الحق ، وعاندوا واستكبروا وأصروا على الباطل ؛ سينالهم عذاب رهيب أليم؛ يتمنّون أن يفتدوا من عذاب الآخرة ، بكل غال ونفيس ؛ فلو أنهم يملكون ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال المتنوعة ، ويملكون مثل ذلك معه ، لقدّموه افتداءً لأنفسهم ؛ ليتخلّصوا مما هم فيه من عذاب ونكال، ولن يقبل ذلك منهم .

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ . هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء .

وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . إن مسكنهم جهنم وبئس الفراش الذى أعدّوه لأنفسهم ، وبئس المستقر الذى يستقرون فيه .

★ ★ ★

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير :

تأتى هذه الآية فى أعقاب مثل ضربه للحق والباطل ؛ فالحق يشبه الماء والمعادن النفيسة الخالصة من الشوائب ، والباطل يشبه الزَّبَد والرغوة التى تعلو فوق ماء السيل ، أو خبث المعادن الذى يرتفع فوقها عند صهرها .

وهنا يبين القرآن : أن المستفيد بضرب الأمثال ، هم أصحاب العقول المستنيرة ، والقلوب النظيفة الذين يؤمنون بالله ويستجيبون لداعى الهدى ، ولا يستوى أبدًا البصير صاحب البصيرة ، والأعمى الذى انطمس بصره وبصيرته .

١٩ – أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ...

أى : أيستوى فى الجزاء مؤمن وكافر ؟!

فالمؤمن استجاب للحق وآمن به وأشرق قلبه بالهدى ؛ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ . (الزمر: ٢٢) .

والكافر ضلَّ عن الحق ، وانطمست بصيرته ، فلم يستفد بأنوار الهداية ، ولم يسترشد بنور الرسالة المحمدية .

قال قتادة :

هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق ، فلا يبصره ولا يعقله .

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ . أى : إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ، ويصل إلى لبِّها وسرِّها ؛ أصحاب العقول السليمة ، والقلوب المشرقة بنور الإيمان .

★ ★ ★

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ ﴾

المفردات :

بعهد الله : بما عاهدوه عليه من الإيمان به ، والعمل بما أمرهم به في كتبه التي أنزلها إليهم .

ولا ينقضون الميثاق : المراد بالميثاق : ما أخذوه على أنفسهم من العهود نحو ربهم ، ونحو عباده ، وقال القفال: وهو ما ركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات والشرائع ، ونقض الميثاق: عدم العمل به .

ابتغاء وجه ربهم : الابتغاء معناه : الطلب ، والمراد بالوجه : الذات .

ويدرءون : أى : يدفعون .

عقبى الدار : عاقبة دار الدنيا التى أعدت للصالحين – وهى الجنة .

التفسير :

٢٠ – ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ .

مدح الله فى هذه الآيات المؤمنين أصحاب العقول المستنيرة أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ، بصفات متعددة ؛ فهم أوفياء بالعهود ، سواء أكانت بينهم وبين خالقهم ؛ كإطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، أو بينهم وبين المخلوقين ، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف وتكريم ؛ فالوفاء بالعهد صفة من صفات المؤمنين ، والغدر صفة من صفات المنافقين .

قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الناس اضمنوا لى ستا ؛ أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدَّثتم ، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدُّوا الأمانة إذا اؤتمنتم ،وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفُّوا أيديكم »[٦٠] .

وروى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »[٦١] .

وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ . لا يفسخون العهود ، ولا يقطعون المواثيق ، التى التزموا بها بينهم وبين ربهم من الإيمان به وطاعته ، وبينهم وبين الناس ، من العقود كالبيع والشراء ، وسائر المعاملات والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها .

قال تعالى : وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ . (البقرة: ١٧٧) .

والفقرة الثانية يمكن أن تكون تأكيدًا لما جاء فى الفقرة الأولى ، أو هى من باب النعيم بعد التخصيص لتشمل عهودهم مع الله تعالى ، ومع غيره من عباده .

٢١- وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ...

أى: إن من صفات أُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ : أنهم يصلون كلَّ ما أمر الله بوصله ، كصلة الأرحام ، وإفشاء السلام، والإحسان إلى المحاويج ، وذوى الخلّة منهم ، بإيصال الخير إليهم ، ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من سرَّه أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله؛ فليصل رحمه»[٦٢] .

ويدخل فى ذلك جميع حقوق عباد الله تعالى ، ووصل قرابة المسلمين بسبب الإيمان ، كالإحسان إليهم، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومرعاة حق الأصحاب والخدم والجيران ، والرفقة فى السفر إلى غير ذلك .

وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ .

أى : يخافون الله خوف إجلال ومهابة وتعظيم ؛ قال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ . (فاطر:٢٨). أى : أن العلماء هم أقدر الناس على معرفة قدرة الله وعظمته وجلاله ؛ فهم أهل خشيته وإجلاله وتعظيمه وتوقيره .

وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ . أى : يخافون مناقشة الله لهم الحساب ، وتذكيرهم بذنوبهم ، وعدم الصفح عن سيئاتهم ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

٢٢- وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .

تستمر هذه الآية مع ما سبقها فى وصف أولى الألباب ؛ فهم صابرون على البأساء ، راضون بالقضاء، والصبر على المكاره جزاؤه عظيم ، وقد ذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعا ،

وهو أنواع : منه : الصبر على الطاعات ، ومنه : الصبر عن المعاصى ، ومنه : الصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، فهم صابرون ابتغاء وجه الله ، أى : رغبة فى ثوابه ، لا خوفا من شماتة الشامتين ، كما قال الشاعر:

وتجلدى للشامتين أريهم أنّى لريب الدهر لا أتضعضع

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . أى : أدّوا الصلاة فى أوقاتها محافظين على خشوعها وخضوعها .

وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .

فهم ينفقون سرًّا حيث يكون السرّ أفضل ، مثل: صدقة التطوع ، ومثل: الصدقة على كرام الناس المتعففين تجملا ، ومن يزعجهم الصدقة عليهم فى الملإ ؛ وينفقون علنًا فى أداء الفريضة ، وعند التسابق؛ ليقتدى بهم غيرهم ، أى: أنهم حكماء فى تصرفهم ، ينفقون فى جميع الأحوال ، وحسب ما تقتضيه الحكمة.

وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ . أى : يقابلون إساءة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، إذا كان ذلك من الحكمة؛ كما قال عز شأنه : وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ . (فصلت: ٣٤) .

وقد أباح الإسلام مقابلة السيئة بالسيئة ؛ إذا كان المسىء لئيما لا يردعه إلا العقوبة ، أما إذا كان المسىء كريما فالصفح أنسب ، قال تعالى : وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . (الشورى : ٤١).

وذكر بعض المفسرين : أن الآية تشير إلى اتباع السيئة بالحسنة ، أو الاستغفار والتوبة : فى أعقاب الذنب .

أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ . أى : حسن الجزاء من العاقبة ، وهو دخول الجنة فى الآخرة .

قال تعالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

والجملة الكريمة خبر عن الذين يوفون بعهد الله ... وما عطف عليها .

★ ★ ★

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات :

جنات عدن : العدن فى اللغة : الإقامة ، ومنه عدن بالمكان ، أى : أقام به ، وفى عرف الشرع: اسم لجنة من جنان الآخرة ، والمراد هنا : المعنى الأول ، أى : جنات إقامة ، فهم يقيمون فيها لا يبرحونها.

سلام عليكم : أمان لكم من المحن ، والآفات .

التفسير :

٢٣- جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ .

تأتى هذه الآية بمثابة التوضيح والتفصيل لحسن عاقبة هؤلاء المؤمنين .

أى : هؤلاء الذين قدموا فى دنياهم ما قدَّموا : من الوفاء ، وصلة الرحم ، وخشية الله ، والصبر الجميل، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإخراج الصدقة ، ومقابلة السيئة بالحسنة ؛ لهم حسن العاقبة فى الجنة ، ثم وضح نعيم هذه الجنة ؛ فبين : أنها جنات عدن ، أى : إقامة دائمة باقية ، يدخلونها هم ومن كان صالحا لدخولها من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، أى : من أصولهم وفروعهم وأزواجهم ؛ على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسرتهم .

وفى الآية إشارة إلى العدالة والفضل الإلهى ، فهؤلاء الأقارب لا يدخلون الجنة ؛ إلا إذا اشتركوا فى الصلاح والعمل الصلاح ؛ فإذا كانوا قصَّروا عن أقاربهم الأعلون ؛ جاء فضل الله فرفع الأدنى إلى منزلة الأعلى ، ولا ينقص الأعلى شيئا من درجته ومنزلته ، قال تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ . (الطور: ٢١) .

وزيادة فى تكريم هؤلاء المؤمنين ؛ فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب منازلهم فى الجنة ، وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ .

٢٤- سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

أى : تقول لهم الملائكة : سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ .

أى : أمان عليكم من المكاره والمخاوف التى تحيق بغيركم ؛ بسبب صبركم على مشاق الحياة ومتاعبها وآلامها ؛ كأنهم يقولون لهم : لئن تعبتم فى الدنيا ؛ فقد استرحتم ونعمتم وسعدتم فى الآخرة .

فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ . فنعم عاقبة الدنيا ؛ الجنة ، وفيها مالا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، أخرج ابن جرير : أن النبى ﷺ كان يأتى على قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم .

من مسند الإمام أحمد

روى الإمام أحمد - بسنده - عن عبد الله بن عمرو بن العاص : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله، الفقراء والمهاجرون ، الذين تُسدّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلّم عليهم ؟! ، قال : إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى ؛ لا يشركون بى شيئًا ، وتسدّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، فلا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ، سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ .»[٦٣].

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

ينقضون عهد الله : المراد بعهد الله : ما أوجبه عليهم من طاعته ، وبنقضه عصيانه .

من بعد ميثاقه : من بعد توثيقه وتوكيده .

اللعنة : الطرد من رحمة الله .

سوء الدار : أى : سوء عاقبة الدار الدنيا ، أو هو : من إضافة الصفة للموصوف ، أى : الدار السيئة ، وهى : جهنم فهى دارهم ومأواهم – وبئست الدار والمأوى .

يبسط الرزق : يوسعه .

ويقدر : يضيق .

متاع : شئ قليل يتمتع به ، كزاد الراكب .

التفسير :

٢٥– وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ... الآية .

من عادة القرآن أن يقابل بين الحق والباطل ، وبين المؤمنين وصفاتهم الحسنة ، والكافرين وصفاتهم المرذولة ؛ فلما ذكر المؤمنين بوفائهم العهد ، وصلتهم الرحم ؛ بيَّن هنا : أنَّ الكافرين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ . من بعد أن وثقوه وأكدوا التزامهم به ، وعهد الله : هو ما أخذه الله على بنى آدم من الإيمان بالله تعالى ، أوما ركبه فيهم من العقول ، ودعاهم إلى التأمل فى ملكوت السماوات والأرض ؛ ليتبينوا قدرة الخالق وعظمته ، أو يرتكبون المنكرات ، ويعصون أوامر الله تعالى .

وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ .

أى : يقطعون كل ما أوجب الله تعالى وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول محمد ﷺ ؛ بالاتباع والموالاة، ووصل المؤمنين ؛ بالمودة والمحبة والمعاونة ، ووصل أولى الأرحام ؛ بالتعاطف والتعاون ؛ فالجملة بيان لحال هؤلاء الأشقياء : بأنَّهم كانوا على الضدّ ، من أولئك الأوفياء الأخيار ، الذين كانوا يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ . بالظلم وإثارة الفتن وإشعال نار الحرب ؛ فهم عنصر شرير وراء كلّ فساد .

أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ . أى : هؤلاء لهم الطرد من رحمة الله .

وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ . أى : جهنم فليس فيها إلا ما يسوء أهلها وبئست دار ومقرًّا .

٢٦ - ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ...

فهو سبحانه حكيم عليم بما يناسب عباده ، وليس سعة الرزق كرامة ، ولا نقصانه إهانة ؛ فالأنبياء والأولياء كانوا أكثر بلاء وأشد امتحانا فى هذه الدنيا ، وقد نزلت هذه الآية فى أهل مكة ، وكانوا على جانب من الغنى والمال ، فنزلت هذه الآية تنهاهم عن الفرح والبطر ، والغرور بالحياة الدنيا ؛ لأنها إلى زوال .

وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ .

أى : فرح أهل مكة بما أحرزوا من المال والجاه ، ولم يعملوا لما بعد هذه الحياة ، مع أن متاع الدنيا قليل ، ومتاع الآخرة دائم مستمر ، وليس متاع الدنيا فى جانب متاع الآخرة إلا شيئًا قليلا ، وليس له بقاء، كعجالة الراكب وزاد الراعى .

أخرج الترمذى وصححه : عن عبد الله بن مسعود ، قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ؛ فقام ، وقد أثر فى جنبه ، فقلنا : يا رسول الله : لو اتخذنا لك وطاءً ، فقال : « مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٦٤] .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

من أناب : من رجع إلى الحق .

تطمئن قلوبهم : تستقر وتستريح وتستأنس .

طوبى لهم : قال الزجاج : طوبى : فُعْلَى ؛ من الطيب ، وهى : الحالة المستطابة لهم . وقال ابن عباس : فرح لهم وقرة عين . وقال قتادة : حسنى لهم ، إلى غير ذلك من المعانى التي ترجع إلى ما ذكره الزجاج ، وقيل : هى : اسم للجنة ، أو لشجرة فيها .

وحسن مآب : وحسن مرجع .

التفسير :

٢٧- وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ...

لازال الحديث متصلا فى شأن أهل مكة ، والمراد بهم : عبد الله بن أمية وأصحابه ، حين طالبوا النبى ﷺ بالآيات الكونية ؛ فقد اقترح مشركو مكة على النبى ﷺ ، أن يأتى بآيات ومعجزات حسية كناقة صالح ، وعصا موسى ونحو ذلك ؛ من الآيات الحسية الملموسة .

قال تعالى : وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا . (الإسراء : ٩٠ - ٩٤)

والمعنى : يقول الذين كفروا من أهل مكة : هلاّ أنزل على محمد معجزة ملموسة ، مثل : تحويل الصحراء إلى بساتين كأرض الشام ، أو إحياء جدّهم قصىّ ، أو سقوط السماء عليهم كسفًا ، أو تحويل الصفا ذهبا ، أو تفجير ينابيع المياه فى مكة وما حولها ، أو أن يمتلك محمد بيتا من ذهب ، أو يصعد إلى السماء ويعود ومعه كتاب من الله يفيد : أن محمدًا رسول حقًّا ، أو يأتى بالله والملائكة جميعا أمامهم ؛ ليشاهدوهم ، وغير ذلك من الآيات التى تفيد : تعنت المشركين ؛ لأنهم لم يستخدموا عقولهم ، ولم يفتحوا قلوبهم ؛ ليتدبروا أن هذا الذى أرسل إليهم بشر مثلهم ، يوحى إليه بوحى فمن اهتدى به ؛ آمن ، ومن أعرض عنه ؛ جحد وكفر ، ولن يفيد الكافرين كثرة الآيات ، ولا حجم المعجزات ، مادامت قلوبهم تصرّ على الجحود والإعراض ، قال تعالى : وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ . (يونس: ١٠١) .

وقال سبحانه : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . (الأنعام: ١١١) .

قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ .

إن هداية السماء تحتاج إلى إقبال وتفتح ، ورغبة فى المعرفة والفهم ، وتبصّر فى حقيقة الإيمان ، فمن أعرض عن الهدى ، واختار الضلال والكفر ؛ سلب الله عنه أسباب الهداية ، وتركه فى حيرة وضلال ، ومن اختار أسباب الهداية ؛ يسر الله له الهدى ؛ لأنه رجع عن العناد ، وأناب إلى الله وتبصر فى وحيه ودعوته،

أى : قل لهم يا محمد : إن الله يضل الكافرين ؛ لإعراضهم ، ويهدى إلى دينه ، مَنْ أَنَابَ ، أى : رجع إليه وسلك سبيله ، ثم بين حال من أناب إليه فقال :

٢٨- ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ .

تمهيد :

اشتمل القرآن الكريم على عدد من المعجزات ، منها : الإخبار عن الأمم السابقة ، وبيان : نواميس الكون، ونواميس الله فى خلقه ، ونواميس الاجتماع البشرى ، وأشار إلى طائفة من المعارف والعلوم ، وقدَّم نموذجًا رائعًا من الآداب والهداية والتشريع ، وأشار إلى نصر الروم ، وانتشار الإسلام ، ومع هذا طلب الكفار معجزات مادية ؛ فبين الله : أن الإعراض عن هداية القرآن ؛ هو الضلال الذى يضلّ الله به من أعرض عنه ، والهداية بالقرآن والاستمساك به ؛ هو الهدى الذى يهدى به الله من أناب إليه من المؤمنين .

والمعنى : من أناب إلى الله هم المؤمنون ، الذين استجابوا لداعى الإيمان فآمنوا ، وإذا تلى عليهم القرآن؛ زادهم إيمانا واطمئنانا ؛ فقلوبهم تستروح بذكر الله ، وتلاوة القرآن والحديث عن الإيمان .

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ .

بتذكر عظمة الله ، وتلاوة كتابه ، تطمئن القلوب ، ويزول عنها القلق والاضطراب ؛ بما يفيضه عليها من نور الإيمان ، وهداية الرحمان ، التى تذهب الهلع والوحشة .

وذكر الله يمكن أن يطلق على : القرآن الكريم ؛ فهو ذكر وأعظم ذكر ، فكل حرف منه له ثواب عشر حسنات ، قال تعالى : **وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** . (الأنبياء: ٥٠) ، وقال سبحانه : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ** . (الحجر: ٩) .

ويمكن أن يراد به : التسبيح والتحميد والتهليل ، قال تعالى : **وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** . (الأحزاب: ٣٥) .

ويمكن أن يراد به : ما يشمل القرآن ، والذكر ، وتذكر عظمة الله وجلاله .

٢٩- ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ .

جاءت هذه الآية ؛ لتبشير المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم للإيمان والقرآن وذكر الله .

والمعنى : الذين آمنوا بالله وبالنبى ، وعملوا الأعمال الصالحة ؛ لهم فى آخرتهم عيش طيب ، وخير كامل ، ومرجع حسن حين يرجعون إلى ربهم وخالقهم ، أو طُوبَىٰ لَهُمْ . الجنة لهم ؛ ينعمون فيها بكل ما يشتهون ، كما جاء فى الحديث : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(٦٥) .

★ ★ ★

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير :

٣٠- وَكَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ... الآية .

أى : كما أرسلنا المرسلين قبلك يا محمد أرسلناك فى أمة قد سبقتها أمم أرسلت إليهم رسل ، فلست بدعًا فى رسالتك إلى أمتك ، كما قال سبحانه : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ . (الأحقاف: ٩) .

وقيل : الإشارة راجعة إلى إرسال محمد مؤيدا بالقرآن ، فكأنه قيل : مثل هذا الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن أرسلناك يا محمد فى أمة قد خلت من قبلها أمم .

وخلاصة المعنى : إننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك ، وأعطيناهم كتبا تتلى عليهم ، أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب ؛ لتتلوه عليهم فلماذا يقترحون غيره ؟!

وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ أى : أرسلناك لتتلو عليهم كتاب الله ، داعيا لهم إلى الهدى ، والحال والشأن أنهم يكفرون بمن أحاطت بهم نعمه ، وشملتهم رحمته ، حيث أرسلك إليهم ؛ رحمة بهم ، قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . أى : قل لهم : إن الرحمان الذى كفرتم به هو ربى وخالقى ، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه ؛ فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ . على الله وحده توكلت واعتمدت فى جميع أمورى ، وإليه وحده توبتى وإنابتى .

وفى معنى هذه الآية ورد قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا . (الإسراء: ١١٠) .

« وقد ثبت فى الحديث الصحيح : أنهم لم يرضوا بكتابة : الرحمن الرحيم فى صلح الحديبية ؛ فعندما قال ﷺ لعلى : « اكتب : باسم الله الرحمان الرحيم » ؛ قال أحد زعمائهم : ما ندرى ما الرحمان الرحيم ، اكتب: باسمك اللهم ؛ فقال الصحابة للنبى ﷺ : دعنا نقاتلهم ! قال : «لا ، اكتبوا كما يريدون»[٦٦]

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

المفردات :

سيرت به الجبال : أزيلت من أماكنها .

يـيـئـس : بمعنى : يعلم ، كما حكاه القشيرى عن ابن عباس ، وذكره بهذا المعنى الجوهرى فى الصحاح ، ويرى هذا الرأى مجاهد ، والحسن ، وأبو عبيدة ، وأنشد فى ذلك أبو عبيده لمالك ابن عوف النصرى :

أقول لهم بالشعب إذ ييسروننى: ألم تيئسوا أنِّى ابن فارس زهدم

وييسروننى من الميسر – ويُرْوَى : يأسروننى من الأسر – انظر القرطبى : وقال رباح بن عدى :

ألم ييئس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وهو بهذا المعنى فى لغة النخع – كما حكاه الفَرَّاء عن الكلبى – انظر القرطبى – وقيل: فى لغة هوازن ، كما قاله القاسم بن مِعْن ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى التفسير .

قـارعـة : مصيبة من قرعه ؛ إذا أصابه ، والأصل فى القرع : الضرب ؛ فكأنها إذ تصيبهم ؛ تدق قلوبهم وتضربها .

التفسير :

٣١- وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ... الآية.

جاء في تفسير الطبرى وابن كثير والشوكانى وغيرهم :

ما روى عن ابن عباس : أن نفرا من قريش قالوا للنبى ﷺ : إن سرك أن نتبعك ؛ فسير لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا ؛ حتى تتسع أرضنا الضيقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارًا ؛ حتى نغرس ونزرع ، فلست بأهون على ربك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام ؛ نقضى عليها حوائجنا ثم نرجع من يومنا ؛ فقد سخرت الريح لسليمان ، وأرنا أشياخنا الأول من الموتى ؛ نكلمهم ونسألهم ، أحق ما تقول أم باطل ؛ فإن عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والآيات التى قبلها ؛ للردّ عليهم .[٦٧] ، وجواب لو محذوف يفهم من السياق .

والمعنى : لو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال .

أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ . أى : شققت وجعلت أنهارًا وعيونا .

أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ. أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم ؛ بأن أحياهم بقراءته فتكلَّم معهم .

لو أن كتابا مقروءًا كان من وظيفته أن يفعل ذلك ؛ لكان هذا القرآن ؛ لكونه مشتملا على الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والترغيب والترهيب .

والمقصود : بيان عظمة القرآن ، وأن من شأنه أن يرقق القلوب وأن يهدى النفوس ، وأن يصلح الأفراد والجماعات كما قال عز شأنه : لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر:٢١) .

ويجوز أن يكون المعنى :

لو أن كتابا فُعلت بواسطته هذه الأفاعيل العجيبة : من إحياء الموتى ، وزحزحة الجبال ؛ لما آمنوا؛ لفرط عنادهم ، وغلوّهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . (الأنعام:١١١).

بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا .

أى : أن الله قادر على أن يأتى بمثل هذه الآيات التى اقترحها المشركون ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك؛ لأنها اقتراحات صادرة عن التشهى والهوى ، والتمادى فى الضلال ، والمكابرة والعناد ، ولو أجيبوا إلى مقترحاتهم ؛ لكفروا وكذبوا وعاندوا .

أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا .

أى : أفلم يعلم ويتبين ويتيقن الذين آمنوا : أن الله لو شاء هداية الناس أجمعين ؛ لهداهم من غير أن يشاهدوا الآيات ؛ لكنه لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب .

ويجوز أن يكون المعنى :

أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . من إيمان جميع الخلق ، ويعلموا ويتبينوا : أن الله لو شاء هداية الناس جميعا؛ لفعل ، ولكنه جعل سبيل الهداية إلى الحق اختيار العبد وفعله ، بعد أن يسر الله له أسبابها وأزاح موانعها .

ذكر السيوطى فى تفسيره : أن بعض الصحابة قالوا للرسول ﷺ : اطلب للمشركين ما اقترحوه ؛ عسى أن يؤمنوا . اهـ .

لقد مرت البشرية بأطوار سابقة ، وجاءت بعض الرسل بمعجزات مادية ملموسة ؛ كناقة صالح ، وعصا موسى التى ضرب بها الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان عيسى يشفى المرضى بإذن الله ويحيى الموتى بإذن الله .

وفى رسالة الإسلام الخالدة ، ورسالة النبىّ الخاتم محمد ﷺ ، أراد الله أن تكون المعجزة التى تمّ بها التحدّى والإعجاز : القرآن الذى اشتمل على صنوف البلاغة ، وألوان الإعجاز والهداية والبيان ، وأخبار السابقين ، ونواميس الكون ، وسبل التقدم .

صحيح : أن النبى ﷺ كانت له معجزات فى مكة والمدينة ، مثل : الإسراء والمعراج فى مكة ، ومثل : نبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام فى الجيش ، وشفاء بعض المرضى فى المدينة ، لكن ذلك لم يكن على سبيل التحدّى .

كان القرآن وحده هو المعجزة الخالدة ، التى تحدّى بها الله العرب والعجم والناس أجمعين، وسيظل معجزة خالدة إلى يوم الدين ، مع أن المعجزات السابقة لم يشاهدها إلا أهلها ، وكانت أمرًا خارجا عن

الرسالة ؛ لكن هذا القرآن يشاهده الناس الآن وغدًا إلى ما شاء الله ، والقرآن فى نفس الوقت هو عين الرسالة وحقيقتها ، وهو الدليل على صدقها .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[٦٨].

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ .

ولا يزال الذين كفروا تصيبهم البلايا والرزايا ؛ والقوارع التى تقرع القلوب بأهوالها . وفى هذا إشارة إلى ما نزل بهم فى غزوة بدر وغيرها من الأسر والقتل .

أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ . كما حدث فى صلح الحديبية ؛ فقد كانت سببا فى تقدم الإسلام ، وزلزلة أقدام المشركين .

حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ . بفتح مكة أو انتصار الإسلام ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ .

إن الله سبحانه منجز وعده لرسوله وللمسلمين بالنصر ، قال تعالى: **فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ** . (إبراهيم : ٤٧) .

من تفسير الطبرى

قال أبو جعفر : فتأويل الكلام إذًا : ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن كان سيرت به الجبال ؛ لسير بهذا القرآن ، أو قطعت به الأرض ، لقطعت بهذا ، أو كلّم به الموتى ؛ لكلّم بهذا ، ولكن لم يُفعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيفعل بهذا ، **بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا** . يقول : ذلك كله إليه وبيده ، يهدى من يشاء إلى الإيمان فيوفقه له ، ويضلّ من يشاء فيخذله .

أفلم يتبين الذين آمنوا بالله وبرسوله ، إذ طمعوا فى إجابتى من سأل نبيهم : تسير الجبال عنهم ، وتقريب أرض الشام عليهم ، وإحياء موتاهم ، أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا إلى الإيمان ، من غير إيجاد آية ، ولا إحداث شىء مما سألوا إحداثه ؟! يقول تعالى ذكره : فما معنى محبتهم ذلك ، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إلىّ وبيدى ، أنزلت آية أو لم أنزلها ، أهدى من أشاء بغير إنزال آية ، وأضل من أردت مع إنزالها[٦٩].

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

فأمليت للذين كفروا : أي : أمهلتهم وتركتهم ملاوة من الزمان دون عقاب .

قائم على كل نفس : رقيب ومهين عليها .

التفسير:

٣٢ - وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ .

تأتى هذه الآية فى أعقاب طلب كفار مكة من النبى ﷺ ، عددًا من الآيات المادية على سبيل السخرية والاستهزاء ، والتعنت والعناد ، حيث طلبوا : زحزحة الجبال عن مكة ، وتفجير عيون الأرض ، وإحياء الموتى، فقال الله لنبيه : لا تحزن ولا تبتئس من تعنت هؤلاء المشركين ، فكثيرا ما سخر الكافرون من المرسلين قبلك.

قال تعالى عن نوح : **وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** . (هود: ٣٨ ، ٣٩) .

فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . أى : أمهلتهم وتركتهم مرة من الزمان فى أمن ودعة .

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ . أى : أحللت بهم عذابى ونقمتى حين تمادوا فى غيهم وضلالهم ؛ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** . فانظر كيف كان عقابى إياهم حين عاقبتهم ، ألم أذقهم أليم العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟![٧٠] .

وقد عقب ابن كثير على تفسير هذه الآية بقوله :

ومثل هذه الآية قوله تعالى : **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ** . (الحج:٤٨) .

وفى الصحيحين : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .[٧١] (هود:١٠٢).

٣٣- أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ... الآية .

هذا الاستفهام إنكارى وجوابه محذوف دلّ عليه السياق ، والمراد من الآية : الإنكار على الكفار اتخاذ الشركاء لله ، وعبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع ، وقد ترقّى القرآن فى مناقشتهم فى هذه الآية ، فبدأ بهذا الاستفهام الإنكارى : أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ، أى : حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير أو شر ولا تخفى عليه خافية ، فهو سبحانه : يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) ، وهو مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (الحديد: ٤) ، أفمن كان كذلك يشبه الأصنام التى لا تسمع ولا تنفع ولا تجيب ؟!

والمراد : نفى المماثلة بين الخالق الرازق النافع المحيى المميت ، وبين الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ . أى : قل لهم أيها الرسول : اذكروا أسماءهم وصفاتهم التى جعلتهم فى نظركم يستحقون العبادة مع الله .

أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ . أى : بل أتخبرون الله بشركاء زاعمين : استحقاقها للعبادة ، وهو لا يعلمها فى أرضه ، مع أنه العليم بكل شيء ، ولا تغيب عن علمه ذرة فى الأرض ولا فى السماء

أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ . بل أتخبرونه عن ألوهيتها بظاهر من القول ليس له حقيقة واقعة ، وليس له ظل فى الخارج ، فكلامكم قول باطل كاذب ، تقولونه بأفواهكم فقط ، وليس لله شريك أبدًا .

بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ .

وبَلْ هنا للإضراب ، ونلمح هنا التدرج فى الإضراب على ألطف وجه ؛ فبعد أن عددت الآية عددًا من الأساليب البديعة على ضلال الكافرين ، وانتقلت من الخبر إلى التحدى بتسمية الشركاء ، إلى الاستفهام الإنكارى ، انتقلت إلى بيان حقيقتهم فقالت : دع عنك أيها الرسول مجادلتهم ؛ لأنه لا فائدة من ورائها ؛ فإن هؤلاء الكافرين قد زين لهم الشيطان مكرهم ، وكيدهم للإسلام وأتباعه ، كما أن رؤساءهم فى الكفر شجعوهم على هذا الباطل ، وصدُّوهم عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ . أى : من يسلب عنه الهدى بسبب ضلاله وإعراضه ؛ فلن يجد هاديا يهديه ، كما قال سبحانه : وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا . (المائدة: ٤١) ، وقال سبحانه : إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَالَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . (النحل: ٣٧) .

٣٤- لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ .

يعذب الله هؤلاء الكافرين فى الدنيا عن طريق القوارع والمصائب التى ينزلها الله بهم ، وعن طريق القتل والأسر بيد المؤمنين .

وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ . إن عذاب الآخرة أشقّ وأصعب من عذاب الدنيا ؛ فهو أبدى سرمدى لا نهاية له .

وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ . أى : ليس لهؤلاء الكافرين من أحد يقيهم من عذابه . أو يحفظهم ويعصمهم منه ، لا حميم ولا ولى ولا نصير .

★ ★ ★

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) ﴾

المفردات :

مثل الجنة : المثل هنا بمعنى : الصفة العجيبة . وأصله بمعنى : الشبيه والنظير .

أكلها دائم : أى : ثمرها باق لا يغيب ولا ينقطع .

عقبى الذين اتقوا : أى : مآلهم وعاقبتهم .

التفسير:

٣٥ – مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ... الآية .

صفة الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين ، الذين راقبوه وأطاعوا أمره واجتنبوا معاصيه ، هذه الجنة جزاء جميل بديع للأتقياء ، ومن صفتها : أن الأنهار تجرى من تحت أشجارها وقصورها ، وتتحرك الأنهار حسب ما يشاء أهل الجنة ؛ قال تعالى : عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . (الإنسان: ٦) .

وفى الجنة : أنهار من لبن ، وأنهار من خمر ، وأنهار من عسل ، قال تعالى : فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد: ١٥) .

ومن صفة الجنة : أن أُكُلُهَا[٧٢] دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ، أى : ثمرها باق لا ينقطع ، مع اعتدال مناخها ، وطيب هوائها ، قال تعالى : لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . (الإنسان: ١٣، ١٤) .

تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ .

أى : تلك الجنة الموصوفة بما ذكر هى : مآل المتقين الذين استقاموا على طريق الحق والإيمان ، أما مآل الكافرين بالله ورسوله ؛ فعاقبتهم النار ، وبئس القرار .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) ﴾

المفردات :

الكتاب : المراد به هنا : التوراة والإنجيل .

الأحزاب : الجماعات القوية والأقوام المتشابهون فى ميولهم وعقائدهم .

مـئاب : مرجع ومصير .

التفسير :

٣٦ – وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ...

تكلم سبحانه عن ثواب المؤمنين وعقوبة الكافرين فيما سبق ، وفى هذه الآية تحدث عن فريق ثالث وهو أهل الكتاب ، والمراد بهم : اليهود والنصارى ، الذين آمنوا بالنبى ﷺ ، فكانوا يفرحون بنزول القرآن على النبى ﷺ ؛ لأنهم يرونه مطابقا لما عندهم فى التوراة والإنجيل .

قال تعالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلاَوَتِهِۦٓ أُولَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ . (البقرة: ١٢١) ، وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران.

وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ . أى : الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ ، بالعداوة والبغضاء ، وهم: المشركون ، واليهود ، والنصارى ، الذين أنكروا بعض القرآن ، وهو مالم يوافق ما حرّفوه من كتبهم وشرائعهم؛ ككعب بن الأشرف ، والسيد والعاقب : أسقفى نجران وأشياعهم .

قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ .

أى : إنما أمرت فيما أوحى إلىّ من القرآن : أن أعبد الله وحده ، ولا أشرك بعبادته أحدًا سواه ، وهذا مالا سبيل إلى إنكاره ؛ فهو أمر اتفقت عليه الشرائع والمِللُ ، المقتدية بالرسل .

قال تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا . (آل عمران: ٦٤).

وذلك ما دلت عليه دلائل الآفاق والاكتشافات العلمية ، التى ذكرت : أن هذا النظام المذهل ، فى الآفاق والأفلاك والمجرات والكواكب ؛ لا يمكن أن يتم إلا إذا كان فى يد الله وتدبيره .

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ . أى : إلى الله تعالى وحده ، أدعو جميع الناس إلى عبادته وتوحيده ، وتنزيهه عن الصاحبة والولد ؛ فلذلك لا أقرّ ما أنتم عليه من اتخاذ اليهود عزيرا ابنا لله ، واتخاذ النصارى المسيح ابنا لله .

وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ . وإليه وحده مرجعى ومصيرى ومصيركم للجزاء .

قال تعالى : إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ . (العلق: ٨).

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

أنزلناه حكما عربيا : أى : أنزلنا القرآن حاكمًا للناس فى قضاياهم بلسان العرب .

ولا واق : أى : ولا حافظ . من وقاه ، يقيه وقاية ، أى : حفظه.

التفسير:

٣٧ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ... الآية .

أى : وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتاب بلغاتهم وألسنتهم ؛ أنزلنا عليك القرآن مشتملا على فضيلتين :

﴿حُكْمًا﴾ . أى : بيان الأحكام والشرائع ، التى يحتاج إليها المكلفون وتقتضيها الحكمة .

﴿عَرَبِيًّا﴾ ؛ ليفهمه قومك ، ويسهل عليهم معرفة معانيه والرجوع إليه فى الأحكام ، وهو شرف ورفعة لهم، كان الأولى أن يقابلوه بالقبول والتصديق ، بدلا من الرفض والتكذيب ، فلو أنزل القرآن على جبل لخشع، ولان لسماعه ، وقد سمعته الجن ؛ فقالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ . (الجن: ١، ٢) .

وفى معنى الآية بين الله : أن القرآن كتاب عربى ، يشرِّف هذه الأمة ويعلى شأنها قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ . (الزخرف: ٤٤) ، وقال عز شأنه : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. (الأنبياء: ١٠) ، أى : فيه مجدكم وعزتكم وشرفكم .

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ . أى : إذا اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ؛ ابتغاء رضاهم ، كالتوجه إلى بيت المقدس ، بعد تحويل القبلة ، أو عبادة آلهتهم يوما ؛ ليعبدوا إلهك يوما مثله .

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ . أى : ليس لك من دون الله ﴿وَلِىٍّ﴾ يلى أمرك وينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك عذابه إن أراد عذابك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم أو تنهج نهجهم ، والخطاب هنا للنبى ﷺ ، والمراد : أمته ، وفى هذا وعيد للعلماء ؛ إن هم حادوا عن الطريق، واتبعوا سبل أهل الضلالة .

جاء فى تفسير المراغى :

ومثل هذا الخطاب من باب : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) ، فهو إنما جاء ؛ لقطع أطماع الكافرين، وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين .

وقال الدكتور/ محمد طنطاوى فى التفسير الوسيط :

فكأنه سبحانه يقول: لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندى ؛ لعاقبته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة ، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ . (الزمر: ٦٥) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾

المفردات :

لكل أجل كتاب : الأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد ؛ حسب ما تقتضيه الحكمة .

التفسير:

٣٨ -وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبِلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ... الآية .

أرسل الله الرسل من البشر ومن شأن البشر أن يتزوجوا ويولد لهم الولد قال سبحانه : وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلأَسْوَاقِ . (الفرقان: ٢٠). ومن مقتضى هذه البشرية ؛ إتيان الزوجات ، وكفالة الأولاد .

ولم يكن محمد ﷺ بدعًا من الرسل ، فلماذا ينكر عليه اليهود وغيرهم زواج النساء . روى :: أن أعداء النبى محمد ﷺ قالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا فى النساء ، ولو كان رسولا من عند الله حقا ؛ لما اشتغل عن رسالته بالنساء ؛ فردّ الله عليهم بهذه الآية ، حيث قال سبحانه : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبِلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً . وفى هذا تذكير بما كان عليه داود وسليمان عليهما السلام ؛ حيث كانت لهما زوجات كثيرات وذرية كثيرة ، ولم يقدح ذلك فى نبوتهما .

على أن النبى ﷺ اقتصرت حياته الأولى على زوجة واحدة ، هى : السيدة خديجة ، فلم يتزوج عليها فى حياتها ، وحين ماتت كان عمره يناهز الخمسين .

فحياته فى مكة كلها ، كانت مع زوجة واحدة هى : السيدة خديجة ، ولما هاجر إلى المدينة حدثت ظروف ودواع ؛ اقتضت الإصهار إلى القبائل لمصلحة الإسلام ، فكان من الخير أن تتعدد زوجاته ؛ لأهداف متعددة ، وأغراض حكيمة لهذا التعدد ، وقد كان لزوجات الرسول ﷺ ، دور رئيس فى بيان حياة الرسول الداخلية والخارجية ، وكانت عائشة رضى الله عنها تناقش الصحابة وتستدرك عليهم ، وتشرح وجهة نظرها لهم ، وكذلك بقية أمهات المؤمنين ، فكانت حكمة إلهية فى زواجه عليه الصلاة والسلام ؛ تحقيقا لمعنى البشرية ، وتأكيدا لهذه القدوة العملية .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[٧٣] .

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ .

أى : ما صح ولا استقام لرسول من رسل الله ، أن يأتى لقومه بمعجزة إلا بإذن الله ومشيئته وحكمته، وقد تضمنت الردّ على المشركين ، حين اقترحوا على الرسول ﷺ طائفة من المعجزات مثل : زحزحة جبال مكة ، وتسخير الرياح لهم ، وتفجير ينابيع الأرض .... .

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .

لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله ، وينتهى بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع ؛ لذلك ذكر العلماء : أنه لا ينكر تغيّر الأحكام بتغير الأزمان ؛ فقد أرسل الله موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فى أزمنة متعددة ، رأى الله سبحانه وجودهم فى هذه الأزمنة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا أعمار الناس وآجالهم ، كلها كتبت فى آجال ومدد معينة ، لا تقديم فيها ولا تأخير .

ولكل أمر قضاه الله أجل وموعد لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ولكل وقت من الأوقات كِتَابٌ . أى : حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية .

★ ★ ★

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

يمحـــوا : المحو : الإزالة ، والمراد به هنا : نسخ الشرائع والأحكام وتغييرها .

أم الكتاب : أصل الكتاب ، والمراد به : علم الله تعالى ، أو اللوح المحفوظ .

التفسير:

٣٩ -يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ...

أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام ؛ لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت .

وَيُثْبِتُ . بدله ما فيه المصلحة[٧٤] ؛ فإن الحكمة تقتضى : أن ينسخ الله ما يشاء أن ينسخه من الأحكام والشرائع بحسب الوقت ، ويثبت بدله ، أو يبقيه على حاله من غير نسخ ؛ لأن الشرائع كلها لإصلاح أحوال

العباد فى المبدإ والمعاد ، وقد جعل الله الشرائع كلها متفقه فى الأصول ، التى لا سبيل إلى تغييرها[٧٥] ، مثل: عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى الوالدين ، وتحريم القتل والزنا ، وأكل مال اليتيم ، والأمر بالعدل ، والوفاء بالعهد ، والتزام آداب الإسلام .

فهذه الأصول وأمثالها : لا تتغير ولا تتبدل بتغير الرسالات والكتب السماوية ، أما الفروع : فإنها عرضة للتغير والتبديل ، كطريقة الصيام وزمنه ، ومقادير الزكاة والأصناف التى تزكى ، وغير ذلك مما يتغير بتغير الأجيال وأحوالهم[٧٦] .

وقد أورد ابن جرير الطبرى آراء متعددة فى تفسير هذه الآية ، ونقلها عنه ابن كثير فى تفسيره ، ولخَّصها عدد من المفسرين ، ومن هذه الآراء ما يأتى :

١- الآية عامة فى كل ما يمحوه الله ويُثبته ، وظاهر النظم القرآنى : العموم فى كل شىء مما فى الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة ، أو رزق أو عمر ، ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا، لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم.

روى ابن جرير ، وابن كثير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكى : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنبا فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة.

٢- روى عن ابن عباس فى معنى : يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ : قال : كل شىء إلا الموت والحياة ، والشقاء والسعادة ؛ فإنهما قد فرغ منهما .

٣- يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتابة كل قول وعمل : مالا يتعلق به الجزاء، أو يمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنة .

٤- وقال آخرون : يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدِّله .

٥- وقال آخرون : يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء .

قال أبو السعود فى التفسير :

والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات ؛ ليشمل الكلّ .

وقال الإمام الشوكانى فى فتح القدير :

الأولى حمل الآية على عمومها ، فالمراد منها : أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ ، فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء ، مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته . وهذا لا ينافى ما ثبت عنه ﷺ من قوله : جَفَّ الْقَلَمُ[٧٧] ؛ لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه سبحانه .

وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ . هو علم الله ، وجميع ما يكتب فى صحف الملائكة ، لا يقع حيثما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه ، فهو أمّ لذلك ، فكأنه قيل : يمحو الله ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء ، وهو ثابت عنده فى علمه الأزلى ، الذى لا يكون شىء إلاّ وفق ما فيه .

★ ★ ★

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

وإما نريـنك : ما هنا ؛ لتأكيد معنى الشرط ، أى : وإن أريناك ، والتعبير بالمضارع ؛ لحكاية الحال الماضية ، أو لإفادة تجدد الوعيد .

من أطرافها : الأطراف : الجوانب .

لا معقب لحكمه : أى : لا راد له . والمعقب : هو الذى يكر على الشىء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق الذى يطالب به : معقب ؛ لأنه يتتبع غريمه بالاقتضاء والطلب .

التفسير:

٤٠ - وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ .

أى : إن أريناك أيها الرسول مصارع أعدائك ، المصرِّين على الكفر ، وما وعدناهم به من نزول العذاب بهم ؛ فهذا انتقام عاجل لك من أعدائك ، وإن توفيناك قبل نزول العذاب بهم ؛ فلا تجزع لذلك واترك الأمر لنا، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك ، لا طلب صلاحهم ولا فسادهم ؛ وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم . (الغاشية: ٢١-٢٦) .

٤١ - أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ...

ألم يشاهد أهل مكة أمام أعينهم ، انخفاض شأن الكفر وانزواء أهله ، وتقدم شأن الإسلام وتفوق أهله، فقد نصر الله المسلمين فى بدر ، وفى غزوات متتابعة ، حتى جاء نصر الله والفتح ، وتمّ فتح مكة ودانت أم

القرى بالإسلام ، فالمراد بالأرض : أرض الكفر ، ونقصانها من أطرافها : انتصار المسلمين على المشركين مرة إثر أخرى .

وقيل : المعنى : أَعَمِيَ هؤلاء الكافرون عن التفكر والاعتبار ؟! ، ولم يشاهدوا أن قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية القادرة ؛ حين كفرت بنعمة الله ؛ فصيَّرت غناها فقرا ، وعزها ذلا ، وما أصاب هذه الأمم يمكن أن يصيب أهل مكة عقابا عادلا ، قال تعالى : أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . (الأنبياء : ٤٤) .

وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ . أى : إن الله تعالى يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه ؛ لا رادّ لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم سبحانه بعزة الإسلام وعلو شأنه.

وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . فعمَّا قريب سيحاسبهم فى الآخرة ، كفاء جحودهم وعنادهم ؛ فلا تستعجل عذابهم ؛ فإنه آت لا محالة، وكل آت قريب .

★ ★ ★

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

مــكــر : المكر : هو تدبير المكروه فى خفية .

فلله المكر جميعا : أى : أنه تعالى يعلم المكر كله ، فلا تخفى منه خافية عليه سبحانه .

عقبى الدار : أى : عاقبة دار الدنيا .

علم الكتاب : أى : علم القرآن وما هو عليه من البيان المعجز ، والحكمة التى لا تضارع ، أو علم التوراة والإنجيل ، وما فيها من البشارات برسول الله والإسلام .

التفسير :

٤٢ - وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ...

أى : دبَّر الكافرون السوء لرسلهم ، الذين سبقوا قومك يا محمد ، وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولكن الله تعالى نصر رسله ، وأحبط كيد الكافرين .

فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا . أى : لا تأثير لمكر الكافرين أصلا ؛ لأنه معلوم لله وتحت قدرته .

قال الشوكانى :

مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة ، بمن أرسله الله إليهم من الرسل ، فكادوهم وكفروا بهم ، ومكرهم هذا كالعدم.

فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا . أى : لا اعتداد بمكر غيره ؛ فلا قيمه له ولا تأثير له فى مواجهة مكر الله تعالى بالماكرين ا .هـ .

يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ . إنه سبحانه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس ، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعدّ لها جزاءها ، كان المكر كلّه له ، ولا أثر لمكر غيره فى مقابلة مكره .

وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ . وسيعلم الكفار حين ينزل العذاب بهم ، لمن العاقبة المحمودة من الفريقين ، فى دار الدنيا أو فى الدار الآخرة ؛ هل ستكون العاقبة للكافرين أم للمؤمنين ؟ ، لا شك أنها ستكون للمؤمنين .

قال تعالى : تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . (القصص: ٨٣) .

٤٣ – وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ...

يقول من أنكر نبوتك وكفر برسالتك : لست رسولا من عند الله ، وإنما أنت متقوّل على الله تعالى .

يقولون ذلك بعد أن أيده الله بالمعجزات ، وبعد أن تحدّاهم أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، ولزمهم العجز وثبت قصورهم وضعف حجتهم ، وبدل أن يؤمنوا ويشهدوا له بالرسالة ، كابروا وعاندوا ، وقالوا : لست مرسلا من عند الله ، ولكنك تدّعى الرسالة .

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ . أى : قل : حسبى الله شاهدا لى بتأييد رسالتى وصدق مقالتى ، وشاهدًا عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ . ممن أسلم من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ؛ فإنهم كانوا يجدون البشارات بالرسول محمد ﷺ فى كتبهم ، وحاصل الجواب بذلك : لستم بأهل للحكم فى شأنى ، فاسألوا أهل الكتاب ؛ فإنهم يجاورونكم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر : عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم : عبد الله بن سلام ، والجارود ، وتميم الدارى ، وسلمان الفارسى ، رضى الله عنهم .

موجز أفكار سورة الرعد

١- إقامة الأدلة على التوحيد .

٢- إثبات البعث ويوم القيامة .

٣- استعجالهم العذاب من الرسول ﷺ .

٤- بيان : أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه ، وتسجل عليه ما يكتسبه من الحسنات والسيئات .

٥- ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ، ولمن يعبد الصنم ، بالسيل والزبد الرابى .

٦- بيان : حال المتقين ، الواصلين للرحم ، المقيمى الصلاة .

٧- بيان : حال الناقضين لعهد الله من بعد ميثاقه .

٨- إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أنه لا شريك لله .

٩- وصف الجنة التى وعد بها المتقون .

١٠- بيان : أن كثيرا ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن ؛ إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب.

١١- بيان : أن مهمة الرسول : عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، والدعوة إلى الله بالحسنى .

١٢- بيان : أن كل رسول أرسل بلغة قومه ؛ ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها .

١٣- تحذير الرسول ﷺ وأمته من قبول دعوة المشركين .

١٤- إن جميع الرسل كانت لهم أزواج وذرية .

١٥- المعجزات ليست بمشيئة الرسل ؛ وإنما هى بإذن الله .

١٦- إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ﷺ ليس ببدع جديد ، بل سبقهم إلى ذلك كثير من الأمم التى مكرت بأنبيائها ، وفى النهاية ينصر الله المتقين ، وينكل بالظالمين .

★ ★ ★


تفسير سورة ابراهيم

نظرات فى سورة إبراهيم[٧٨]

سورة إبراهيم سورة مكية . موضوعها الأساسى هو موضوع السور المكية الغالب وهو العقيدة فى أصولها الكبيرة ، وتشمل : الرسالة ، والتوحيد ، والبعث ، والحساب ، والجزاء .

ولكن السياق فى هذه السورة يسلك نهجا خاصا فى عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصلية . نهجا مفردا يميزها عن غيرها من السور ، يميزها بجوها ، وطريقة أدائها ، والحقائق الكبرى التى تتضمنها ، ولون هذه الحقائق التى قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها فى السور الأخرى ولكنها تعرض من زاوية خاصة . كما تختلف مساحتها فى رقعة السورة وجوها ، فتزيد أطرافًا وتنقص أطرافًا . فيحسبها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد ، وذلك من الإعجاز القرآنى فى طريقة الأداء .

ويبدو أنه كان لأسلوب السورة من اسمها نصيب .. إبراهيم أبو الأنبياء .. المبارك . الشاكر ... الأواب المنيب . وكل الظلال التى تخلعها هذه الصفات ملحوظة فى جو السورة وفى الحقائق التى تبرزها ، وفى طريقة الأداء . وفى التعبير والإيقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسة فى العقيدة ، ولكن حقيقتين كبيرتين تظهران أكبر من غيرهما فى سورة إبراهيم :

الحقيقة الأولى : وحدة الرسالة والرسل ووحدة دعوتهم . ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الفرقة المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان .

والحقيقة الثانية : بيان : نعمة الله على البشر وزيادة النعمة بالشكر ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران .

تبدأ السورة ببيان : وظيفة الرسول ، وبيان : هدف القرآن . وهذه الوظيفة هى : هداية الناس ، وإبطال عادات الجاهلية وقيمها . وإرساء معالم التوحيد والعدالة والمساواة . قال تعالى : ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ .(إبراهيم: ١) .

وتختم السورة بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التى تتضمنها الرسالة حقيقة التوحيد فى قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ . (إبراهيم: ٥٢) .

وفى أثناء السورة نجد أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد ﷺولنفس الهدف وهو : إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، قال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . (إبراهيم: ٥) .

وتذكر السورة : أن وظيفة الرسل عامة ، هى : بيان الحق وتوضيح طريق الهداية إلى الله ، قال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . (إبراهيم: ٤) .

وتبين السورة : أن الرسول ﷺ بشر يوحى إليه وأن بشريته هى التى تحدد وظيفته ؛ فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين ، ولكنه لا يملك أن يأتى بخارقة أو بمعجزة إلا بإذن الله وحين يشاء هو أو قومه ، ولا يملك الرسول أن يهدى قومه أو يضلهم ، فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التى اقتضتها مشيئة الله المطلقة. ولقد كانت بشرية الرسل هى موضع الاعتراض من جميع الأقوام فى جاهليتهم . والسورة هنا تحكى قولهم مجتمعين : قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ . (إبراهيم: ١٠) .

وتحكى رد رسلهم كذلك مجتمعين :

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . (إبراهيم : ١١) .

ويتضمن السياق كذلك : أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم : بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .

وكل رسول يبين لقومه ؛ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (إبراهيم : ٤) .

وبهذا أو ذاك تتحدد حقيقة الرسول ؛ فتتحدد وظيفته فى حدود هذه الحقيقة ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشىء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة ، كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا ، ويتحقق ذلك الوعد فى الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفى الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

ويصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة فى نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ * وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . (إبراهيم: ١٣–١٥) .

وحدة الرسالات السماوية فى سورة إبراهيم

الظاهرة البارزة فى سورة إبراهيم : أنها تتحدث عن الرسل جميعا كأنهم أصحاب فكرة واحدة وهدف واحد ، وكأن جواب قومهم كان جوابا موحدا فى جميع العصور والأحوال .

وتعرض السورة هذه الفكرة بطريقة فريدة فى الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية فى صورة توحيد الدعوة التى يجىء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضى ثم يجىء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذبين ما يصيبهم فى الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل فى الأرض أو إلى أجل فى يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول فى مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى ، وأقرب مثل لهذا النسق : سورة هود ، فأما سورة إبراهيم – أبى الأنبياء – فتجمع الأنبياء كلهم فى صف وتجمع المكذبين كلهم فى صف ، وتجرى المعركة بينهم فى الأرض ، ثم لا تنتهى هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك فى يوم الحساب .

ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وفرقة المكذبين فى صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أما الحقيقة الكبرى فى هذا الكون – حقيقة الإيمان والكفر – فهى أضخم وأبرز من عرضى الزمان والمكان .

قال تعالى :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . (إبراهيم: ٩-١١) .

فهاهنا تتجمع الأجيال من لدن نوح ، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان والمكان وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهى واحدة ، واعتراضات المكذبين ، وهى واحدة ، وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهى واحدة ، وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهى واحدة ، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهى واحدة ، وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهى واحدة .

ولا تنتهى المعركة بين الكفر والإيمان هنا ، بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة فتبرز معالمها فى مشاهد القيامة المتنوعة التى تتضمنها السورة ، وهى تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة ولا انفصال بينهما ، إنما تكمل إحداهما الأخرى .

وتكمل الأمثال التى تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة : إبراز معالم المعركة بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة ، مثل : الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوة وشجرة الإيمان ، وشجرة التوحيد والخير ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة : شجرة الباطل والتكذيب والشر والطغيان ... فالتوحيد وكلمته: شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . أصله ثابت موصول بالله وفرعه مرتفع إلى السماء ويؤتى ثماره كل حين ؛ بالصلاة والزكاة وسائر العبادات والأعمال النافعة فى الدنيا والآخرة . أما شجرة الكفر فلا أصل لها تعتمد عليه ؛ فهى تمثل الباطل فى الدنيا ، والخيبة فى الآخرة.

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ . (إبراهيم: ٢٤-٢٧) .

المقطع الثانى من سورة إبراهيم

تنقسم سورة إبراهيم إلى مقطعين متماسكى الحلقات :

المقطع الأول : يتضمن بيان حقيقة الرسل ، ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين فى الدنيا والآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، وقد تحدثنا عن هذا المقطع .

والمقطع الثانى من سورة إبراهيم : يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعم وبطروا ، والذين آمنوا بها وشكروا ، ونموذجهم الأول هو إبراهيم ، ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله ، فى سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة .

نعم الله

لقد عدد الله نعمه على البشر كافة : مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم ، وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل ؛ أن يتيح للكافر والفاجر والعاصى نعمه فى هذه الأرض

كالمؤمن والبار والطائع ؛ لعلهم يشكرون ، ويعرض هذه النعم فى أضخم مجالى الكون وأبرزها، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ . (إبراهيم: ٣٢-٣٤) .

وفى إرسال الرسل نعمة تعدل تلك أو تربوا عليها : كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . (إبراهيم: ١) .

والنور أجلى نعم الله فى الوجود ، والنور هنا هو النور الأكبر ، النور الذى يشرق به كيان الإنسان، ويشرق به الوجود فى قلبه وحسه .. وكذلك كانت وظيفة موسى فى قومه ، ووظيفة الرسل كما بينتها السورة .

وفى قول الرسل مجتمعين : يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ . (إبراهيم: ١٠) .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى منه قريب : وفى هذا الجو يذكر وعد الله للرسل. فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ . (إبراهيم: ١٣، ١٤) ، وهى نعمة . ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ . (إبراهيم: ٧) .

مع بيان : أن الله غنى عن الشكر وعن الشاكرين : إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ . (إبراهيم :٨) .

ويقرر السياق : أن الإنسان فى عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر : وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ . (إبراهيم : ٣٤) .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتتفتح لها بصائرهم ؛ يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . (إبراهيم: ٥) .

ويتمثل الصبر والشكر فى شخص إبراهيم حين يقف خاشعا ويدعو ربه عند البيت الحرام دعاء مخلصًا كله حمد وشكر ، وصبر وإيمان :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ * رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ . (إبراهيم: ٣٥-٤١) .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة ؛ تجىء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو ، فى قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . (إبراهيم : ٥) .

وقوله سبحانه : ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . (إبراهيم: ٦) .

وفى رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر ؛ يجىء قوله سبحانه : وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ . (إبراهيم: ١١) .

فيبرز منة الله ؛ تنسيقا للرد مع جو السورة كله ، جو النعمة والمنة ، والشكر والكفران ، وهكذا يتساوق التعبير اللفظى مع الفكرة العامة للسورة على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ ﴾

المفردات :

الـر : هذه وأمثالها من فواتح بعض السور ، قيل : إنها أسماء لها ، وقيل: أسرار محجوبة ، وقيل: إنها رمز للتحدى ، وقيل : إشارة لابتداء كلام وانتهاءِ كلام ، وقيل : غير ذلك .

الظلمات : الضلالات ؛ فإنها ظلمات معنوية .

إلى النور : إلى الهدى ، فإنه نور معنوى يهدى إلى الحق .

بإذن ربهم : بتيسيره وتوفيقه .

إلى صراط : أى : إلى طريق .

الحميد : أى : المحمود ، والمراد : أنه تعالى مستحق للحمد لذاته وإن لم يحمده الناس .

وويل : الويل : الشر والهلاك .

يستحبون : يختارون .

ويصدون عن سبيل الله : يمنعون غيرهم عن دينه الذي يوصل إلى مرضاته وثوابه .

ويبغونها عوجا : أى : ويطلبونها . والضمير عائد على السبيل؛ فإنها مؤنثة ، أى: ويطلبون لسبيل الله العوج.

التفسير:

١ - آلـر ....

حروف للتنبيه بمثابة الجرس الذى يُقرع ؛ ليتنبه الناس إلى ما يلقى إليهم .

وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، مع أنه مكون من حروف عربية ينطقون بها ، وينظمون منها كلامهم وأحاديثهم ؛ فدل ذلك : على أن القرآن ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ . أى : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو كتاب جليل الشأن عظيم القدر .

لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . لكى تخرج الناس من ظلمات الكفر والضلالة ، إلى نور الإيمان والعلم والحياة الرشيدة ؛ لما اشتمل عليه القرآن ، من المنهج السديد الذى تسعد به البشرية ؛ كلما سلكته ، وتشقى ؛ كلما ابتعدت عنه .

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . أى : بتوفيقه ومشيئته وإرادته وأمره .

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ . أى : إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم، وهو العزيز الذى لا يُغالب ، المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . (الحديد: ٩) .

٢- ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

أى : الله تعالى وحده هو الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ملكا وخلقا لا يشاركه فى ذلك مشارك ولا ينازعه منازع ، ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجرِّ ؛ على أنه بدل ، أو عطف بيان من ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ. وقرأ نافع وابن عامر : ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... برفع لفظ الجلالة على الاستئناف .

وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . أى : الهلاك والفضيحة والخسران ، ناشئ من عذاب شديد للكافرين بما أنزلناه إليك ، أيها الرسول الكريم .

٣- ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ ...

وصف سبحانه هؤلاء الكافرين بصفات ثلاث هى :

(أ) إيثار الدنيا وشهواتها وآثامها وموبقاتها ، على الأعمال الصالحة ، التى تقرِّبهم من الله زلفى ، وينسون يوما تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وفصيلته التى تؤيه ، ومن فى الأرض جميعًا .

(ب) وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . يصنعون العراقيل فى طريق دعوة الحق ؛ حتى يبتعد الناس عنها ، ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، من السير فى طريق الإيمان ، وذلك بسبب الكفر والطغيان ، الذى ران على قلوبهم بما كانوا يكسبون .

(ج) وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . ويطلبون لطريق الله ودعوته وسبيله : الميل والعوج ؛ لتوافق فجورهم ونزواتهم، وسبيل الله أبعد ما تكون عن العوج والاضطراب ؛ لأن سبيل الله صراط مستقيم قويم ، وبعض الناس يدّعى: أن أحكام القرآن وآدابه ، وتشريعاته وقوانينه ، تناسب أمة البدو العربية ، ولا تناسب الشعوب المتحضرة المتقدمة ، ونقول لهؤلاء : إن أحكام هذا القرآن ، وهدى هذه الشريعة ، غيَّرت وجه البسيطة ، وصنعت خير أمة أخرجت للناس ، آمنت بالله وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، وكانت مضرب الأمثال فى العدل وترك الجور، وثلَّت عروش الأكاسرة والقياصرة وامتلكت بلادهم ، إلى أن غيَّر أهلها معالمها ، فأركسهم الله بما كسبوا ، فبدّل عزهم ذلا ، وسعادتهم شقاءً ، وتلك سنة الله ؛ أن الأرض يرثها عباده الصالحون؛ لاستعمارها.

ثم حكم سبحانه على الكافرين بما يستحقون فقال : أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ .

أى : أولئك الموصوفون بإيثارهم الدنيا وزهرتها ، وصدّهم عن الدين ، وابتغائهم له الزيغ والعوج – أولئك فى ضلال بعيد عن الحق ، لا يرجى لهم والحالة هذه ؛ هداية ولا رشاد .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

بلسان قومه : أى : بلغة قومه .

بآياتنا : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يد موسى عليه السلام ، وهى : الطوفان – والجراد – والقمل – والضفادع – والدم – والعصا – ويده – والسنون – ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

من الظلمات : من الكفر والجهالات المشبهات للظلمات .

إلى النور : إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو النور الهادى إلى سواء السبيل .

وذكرهم بأيام الله : أى : بوقائعه التى وقعت على الأمم السابقة ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى : بحروبها وملاحمها .

صبار شكور : كثير الصبر ، كثير الشكر .

التفسير:

٤ - وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...

أى : وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم ، من قبلك ومن قبل قومك ، إلا بلغة قومه الذين أرسلناه إليهم؛ ليفهمهم ما أرسل به إليهم ، من أمره ونهيه بسهولة ويسر ، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر ، وقد جاء هذا الكتاب بلغته ، وهو يتلى عليهم فأى عذر لهم فى ألا يفقهوه ، وما الذى صدّهم عن أن يدرسوه ؛ ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام ، وإصلاح لنظم المجتمع ؛ ليسعدوا فى حياتهم الدنيوية والأخروية ، والنبى ﷺ ، وإن أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ، وألسنتهم مختلفة ، فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، فإذا فهم قومه الرسالة ، وعرفوا أهدافها ، أمكن ترجمة ذلك إلى غيرهم من الأمم . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه »[٧٩] .

فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ . أى : فبعد إرسال كل رسول بلسان قومه ؛ ليبين لهم طريق الهداية، ويرشدهم إلى ترك الضلال والغواية ، فيستجيب للرسل من اتبع سبيل الرشاد ، وجانب أسلوب العناد، فانشرح صدره للإسلام ؛ بهداية الله وتوفيقه ، ومن الناس من يعرض عن الهدى ، ويختار الضلال والكفر ، ومثل هؤلاء يسلب الله عنهم هداه وتوفيقه ، ويتركهم فى ضلال مبين .

وللعلماء فى مثل الجملة كلام كثير يمكن تلخيصه فيما يأتى :

إن هداية الله غالية ، فمن رغب فى الهدى ؛ يسر الله له أسبابه ، وأعانه باللطف والتوفيق ، ومن أعرض عن الهدى ، وصدّ عن رسالات السماء ؛ سلب الله عنه الهدى وتركه فى ضلال وحيرة ، وفى معنى هذه الآية قال تعالى : **فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ** . (البقرة: ١٠) .

وقال عز وجل : **بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** . (المطففين : ١٤) .

ويكون معنى الآية :

يضل الله ؛ من ران على قلبه الغواية والضلالة ، واختار الكفر على الإيمان ، ويهدى الله ؛ من اختار الإيمان ، وسلك فى طريق الهدى ، فيلهمه الله الهدى والرشاد .

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ . فلا يغالب فى مشيئته .

ٱلْحَكِيمُ . فى تشريعاته وبيانه ، وأوامره ونواهيه .

٥- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...

هذا تفريع على إرسال كل رسول بلسان قومه ؛ ليبين لهم .

والمعنى : كما أرسلناك يا محمد بلسان قومك ؛ لتبين لهم ، أرسلنا موسى - عليه السلام - بآياتنا ، وهى الآيات التسع : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، ويده ، والسنون ، والنقص من الثمرات .

أو المراد بالآيات : آيات التوراة ، ويمكن أن يراد بالآيات : ما هو أعمّ وأشمل فتشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة .

أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ .

أى : ادع قومك إلى الايمان وترك الكفر ، وبذلك تخرجهم من ظلمات الكفر وضلاله ، إلى نور الإيمان وهدايته .

وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ . أى : ذكرهم بنعم الله عليهم ، حين نجاهم من فرعون ، وفلق بهم البحر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وأنقذهم من فرعون وقومه ؛ فأيام الله يراد بها : المحن التى نجّاهم الله منها ، والنعم التى أكرمهم الله بها ، أو ذكّرهم بوقائع الله فى القرون الأولى .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونقمه ؛ لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية الله تعالى وقدرته ، وعلمه وحكمته ، لكل صَبَّارٍ فى المحنة والابتلاء ، شَكُورٍ فى النعمة والمنحة .

جاء فى تفسير ابن كثير : قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلى ؛ صبر ، وإذا أعطى ؛ شكر .

وكذا جاء في الصحيح : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أمر المؤمن كلّه عجب ، لا يقضى له قضاء إلاَّ كان خيرا له ، إن أصابته ضرَّاء ؛ صبر ؛ فكان خير له ، وإن أصابته ؛ سرَّاء ؛ شكر فكان خيرًا له »(٨٠)

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾

المفردات :

يسومونكم سوء العذاب : أي : يذيقونكم شديد العذاب .

ويستحيون نساءكم : أي : ويبقونهن أحياء فلا يقتلونهن .

بلاء من ربكم : أي : ابتلاء بمعنى : اختبار .

تأذن : أي : آذن بمعنى : أعلم ، كتوعده بمعنى : أوعده ، غير أنه أبلغ منه .

التفسير :

٦- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ... الآية .

أي : واذكر لقومك يا محمد ، حين قال موسى لقومه : يا قوم ، تذكروا إنعام الله عليكم وفضله بكم ؛ حين أنجاكم من عذاب قوم فرعون ، حيث كانوا يذيقونكم مرّ العذاب ، ويكلفونكم من الأعمال مالا يطاق مع القهر والإذلال ، ويذبّحون أبناءكم الذكور ، ويستبقون الإناث ، ذليلات مستضعفات ، وهذا من أسوإ ألوان البلايا والرزايا ، قال الشاعر :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا

وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . كان هذا امتحانا واختبارًا وابتلاءً عظيما من الله ؛ حيث اختبرهم بالبلاء حين أقاموا مع فرعون وقومه ، فذاقوا ألوان العذاب وذبحت أطفالهم ، واستبقيت إناثهم للخدمة والمذلة .

والابتلاء يكون بالشرّ والخير ، قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥) .

ثم اختبرهم الله بالنجاة من فرعون ، وشق الطريق اليابس لهم فى البحر ، وأنزل عليهم المن والسلوى، ورزقهم من الطيبات .

٧- وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ...

وأى : واذكروا يا بنى إسرائيل حين آذنكم ربكم ، وأعلمكم بوعده ووعيده ، حين قال : لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .

وشكر النعمة : استخدامها فيما خلقت له ، فمن شكر الله على النعمة ، وأخرج زكاة المال ، وحفظ شبابه وقوته من الفسوق والعصيان ، وأطاع الله واجتنب المعاصى ؛ زاده الله نعمة التوفيق فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، وفى الحديث الشريف : « من ألهم الشكر ؛ لم يحرم الزيادة »[٨١] .

وسئل بعض الصلحاء عن الشكر فقال : ألاَّ تتقوى بنعمه على معاصيه .

فحقيقة الشكر : الاعتراف للمنعم بالفضل ، وألا تستخدم النعمة فى معصية الله ، وأنشد الهادى وهو يأكل :

أنا لك رزقه لتقوم فيه بطاعته وتشكر بعض حقّه
فلم تشكر لنعمته ولكن قويت على معاصيه برزقه

فغص باللقمة وخنقته العبرة .

وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ .

أى : ولئن كفرتم نعمة الله ، وجحدتم فضله عليكم ، وقد وهبكم العديد من النعم وسخَّر لكم هذا الكون، وأمدكم بمقومات الحياة ، وأرسل لكم الرسل وأنزل الكتب ، وأرشدكم إلى الطريق المستقيم ، فإذا كفرتم نعم الله ، وجحدتم فضله ، وخالفتم أمره ؛ عذَّبكم أشد العذاب .

إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ . فإن الله يزيل النِّعم عن الكافرين ، وينتقم منهم فى الدنيا ، ويعاقبهم فى الآخرة .

قال تعالى : ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ . (سبأ: ١٧) .

وفى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق ؛ بالذنب يصيبه »[٨٢] .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

حميد : مستوجب للحمد لذاته ، وإن لم يحمده أحد .

بالبينات : أي : بالآيات الواضحات .

فردوا أيديهم في أفواههم : أي : ردوها ؛ لكي يعضوها في أفواههم غيظًا .

مريب : الريبة هنا بمعنى : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها .

التفسير :

٨- وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ .

أحسّ موسى بالاستكبار والإعراض عن قومه ؛ فوجه لهم هذا القول المناسب لإعراضهم ، ومضمونه ما يأتي :

إن تعرضوا عن طريق الله وتجحدوا نعمه ، أنتم ومعكم من في الأرض جميعا من الخلائق ، فلن تضرُّوا الله شيئا ؛ لأن الله غني عنكم ، وعن عبادتكم ، ولن يقع الضرر إلاَّ على المخالفين لله ، الخاسرين لفضله ورضوانه .

فإن الله غَنِيٌّ . عن عباده حَمِيدٌ . مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر: ١٥) .

وقال سبحانه : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . (الإسراء: ٤٤) .

وفي صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا .. إلخ الحديث »[٨٣].

٩- أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ...

يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، فيكون داخلا تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ؛ تذكيرا لأهل مكة ، وتحذيرا لهم من مخالفة رسوله محمد ﷺ .

والمعنى : ألم يأتكم يا أهل مكة خبر قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ، ممن لا يحصى عددهم ، ولا يحيط بهم علما إلا الله سبحانه وتعالى .

جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ . أى : جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، والدلائل الواضحة فى الدعوة إلى الإيمان والهدى .

فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ . أى : عضُوا بنان الندم ؛ غيظا مما قاله الرسل لهم ، كما قال سبحانه : عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ . (آل عمران: ١١٩) .

وقال أبو عبيدة والأخفش : هو مثل ، والمراد : أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد ردّ يده فى فيه ، وقيل : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ؛ ردًّا لقولهم .

وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ .

أى : نحن لا نصدقكم فيما جئتم به من دعوى الرسالة . ولا نُصَدِّقُ ما جئتم به من المعجزات والبينات .

وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ .

أى : نحن نشك فى ما جئتم به من النُّبوات والشرائع ، شكًّا يوقع فى الريبة والتوجّس ، فنحن كافرون بدعوتكم ، ولا نصدق بها ، وعلى الأقل نشك فى حقيقة ما أتيتمونا به ، أى : هو أمر غير يقينى ، فكيف تريدوننا أن نؤمن به ؟! إنا نشك فى صحة نبوّتكم .

وجاء فى زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى :

ويحتمل أنهم ادعوا على الرسل : أن لهم نيات غير ما يظهرونه ، من الحصول على الملك فى أقوامهم، واكتساب الأموال والدنيا العريضة ، وأنهم قالوا ذلك ؛ لتوهين عزم الرسل وتفتير همتهم فى الدعوة .

★ ★ ★

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

أفي الله شك : الاستفهام للإنكار بمعنى : النفى ، وفيه معنى التعجب .

فاطر السماوات والأرض : خالقهما على غير مثال سابق .

بسلطان مبين : ببرهان بين له سلطان واضح على النفوس .

التفسير :

١٠ - قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...

أى : اتجهت الرسل إلى قومها ، فى مناقشة هادئة ؛ لتقول لها : أفى وجود الله شك ؟! أو أفى وحدانيته وتفرده بالألوهية شك ؟!

وهو فاطر السماوات والأرض ، أى : خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق .

ونجد هذه الدعوة إلى التفكر والتدبر ، والتأمل فى الخلق والكون والسماء والأرض ، والليل والنهار والبحار والأنهار والهواء والفضاء ، قد وردت على لسان الرسل جميعا .

وفى سورة نوح يقول نوح لقومه : أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا * وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا . (نوح: ١٥- ٢٠) .

ثم قالت الرسل لقومهم :

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .

أى : يدعوكم الله إلى الإيمان به ، وبوحدانيته وسائر صفاته وكمالاته ؛ ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ؛ ليغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهى الذنوب التى بين العباد ورب العباد ، أو ليسامحكم عن كفركم فيما مضى ، ويغفر لكم فى الدار الآخرة .

وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . أى : أن الإيمان بالله يجعلكم فى أمن وأمان ؛ فلا يستأصلكم الله بالعذاب، كما استأصل الكافرين قبلكم ، بل يمنعكم بالطيبات واللذات إلى الموت .

قال تعالى : وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ . (هود: ٣) .

قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا .

أى : قال الظالمون لرسلهم : إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا . فى الهيئة والصورة ، والمأكل والمشرب ، تريدون أن تمنعونا عن عبادة الآلهة ، التى كان يعبدها آباؤنا .

فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ . أى : قدموا لنا برهانا يشتمل على حجة واضحة ، ومعجزة خارقة تؤيدكم فى دعوى الرسالة ، وكأن ما قدمه الرسل من المعجزات ليس كافيا فى نظر المكذبين .

١١ - قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ... الآية .

أى : قال الرسل لأممهم : نحن حقًّا بشر مثلكم ، نأكل ونشرب ونسير فى الأسواق ، لكنَّ هذا لا يمنع من أن يتفضل الله على بعض عباده ، بالنبوّة والرسالة فهى منحة إلهية ، يختار الله لها من هم أهل لذلك ، ولا تنال بالكسب ولا بالعبادة .

جاء فى منظومة الجوهرة للشيخ/ اللقانى :

ولم تكن نبوة مكتسبة ... ولو رقى فى الخير أعلا عقبه

بل ذاك فضل الله يعطيه من ... يشاء جلّ الله واهب المنن

وقد أراد الله أن تكون الرسل من جنس البشر ؛ لتكون القدوة العملية متيسِّرة ، أمَّا إذا كان الرسول ملكا من الملائكة ، وخالفه المشركون ؛ أمكن القضاء عليهم مباشرة ، والله يريد أن يتمتع البشر بفرصة كافية ؛

للتأمل والتفكر وتقليب وجهات النظر ، قال تعالى : وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٨، ٩) .

وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ .

أما المعجزة الباهرة التى طلبتموها ؛ فليس لنا سبيل إلى تحقيقها ؛ لأننا بشر نحمل رسالة إلى الناس،والله سبحانه هو الذى يؤيدنا بالمعجزة بإذنه وأمره ، وليس فى مقدورنا إتيان المعجزات إلى قومنا؛ إلا إذا كان ذلك بأمر الله وتقديره .

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

ليس أمامنا إلا التوكل على الله ، والاعتماد عليه وحده ؛ فهو الخالق القادر القوىّ الفعّال لما يريد ، ونحن نلجأ إليه متوكلين عليه ، أمام كفركم وعنادكم .

١٢- وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ...

وما يمنعنا من التوكل على الله والاعتماد عليه ، وقد هدانا إلى أقوم السُّبل ، وأرشدنا إلى طريقه القويم وشرعه الحكيم .

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا . أى : سنصبر صبرًا جميلاً ، على كفركم وتطاولكم فى العناد والتكذيب ، والسفه واللجاج .

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . أى : وعلى الله وحده فليتوكل المتوكلون على ربهم وخالقهم ؛ فهو مبعث رجائهم ومعقد آمالهم .

وقد ذكر التوكل فى السياق ثلاث مرات ؛ لأنه الملجأ الذى يلجأ إليه المرسلون ، أمام عناد المكابرين؛ فالتوكل على الله زاد قوىٌّ ؛ وسند متين للمؤمن ، بعد أن يؤدى ما عليه من الواجبات ، ثم يعتمد بعد ذلك على الله ؛ وأَنْعِمْ به من سند قوى متين ! قال تعالى : وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق: ٣) .

★ ★ ★

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

المفردات:

لتعودن: لتصيرن.

مقامى: أى : الموقف المملوك لله ، الذى يقف به العباد بين يديه للحساب ، أو قيامه على عبده ومراقبته إياه .

وعيد: وعدى بعذاب الكفار والعصاة يوم القيامة .

التفسير:

١٣- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ... الآية .

تمهيد:

بعد أن أفحم الرسلُ الكفَّارَ والمشركين بالمنطق والحجة والدليل ؛ لجأ الكفار إلى منطق القوة والقهر.

والمعنى : وقال الذين كفروا بالله ورسله ، لرسلهم : ليس أمامكم إلا أحد أمرين لا محالة ، إما إخراجكم من بلادنا مطرودين مقهورين ، وإما أن تعودوا إلى ملتنا ، ملة الآباء والأجداد ، وهى عبادة الأصنام والأوثان ، وقد يسر لهم هذا الأمر أنهم كانوا كثرة ، أصحاب جاه ومال وسلطان ، وكان الرسل أصحاب الحق ودعوة الحق ، قلة ضعيفة أمام بطش الباطل وجبروته ، وقد تكرر هذا المعنى فى قصة نبى الله شعيب ، وقصة نبى الله لوط وغيرهما .

فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : أعلم الله رسله قائلا لهم : لنهلكن الظالمين ، وأكد الأمر بوسائل التوكيد ، مثل : لام القسم ، ونون التوكيد ؛ زيادة فى إدخال السرور على المؤمنين ، وتثبيت قلوبهم على الحق .

وقريب من هذه الآية ما ورد من قول قوم شعيب له ولمن آمن به : لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ . (الأعراف:٨٨).

وقال سبحانه عن قوم لوط : فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . (النمل: ٥٦) .

١٤- وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ .

أى : أوحى الله إلى رسله : بأن العاقبة ستكون للمؤمنين ، فى ميراث أرض الكافرين ؛ تلك سنة الله تعالى فى خلقه ، أن يعاقب الظالمين المعْتَدين ، وأن يأخذ بيد المؤمنين العاملين .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ . (الأنبياء: ١٠٥) .

وفى سورة القصص ، ذكر الله تعالى جانبا كبيرا من قصة موسى مع فرعون ، وصدَّر قصة موسى فى سورة القصص بالعبرة والمغزى ، حيث قال سبحانه : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ . (القصص: ٥، ٦) .

وقال سبحانه : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ . (المجادلة: ٢١) .

وقال عز شأنه : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ . (الصافات: ١٧١-١٧٣) .

وفى ختام الآية نجد قوله تعالى :

ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ .

أى : ذلك الذى مر بيانه من إهلاك الظالمين ، وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم ، أمر ثابت لكل من خاف قيامى عليه بحفظ أعماله ، ومراقبتى إياه ، وزادت خشيته من مقام ربه ، وجلال عظمته ؛ وخاف وعيدى بالحساب والعذاب للكفرة والعصاة والظالمين .

من تفسير الكشاف للزمخشرى

قال الزمخشرى : والمراد بالأرض فى قوله تعالى : وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ . (إبراهيم:١٤) : أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه : وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا . (الأعراف: ١٣٧).

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ ﴾ . (الأحزاب: ٢٧) .

وعن النبى ﷺ : « من آذى جاره ؛ ورَّثه الله داره »[٨٤] .

ثم قال الزمخشرى : ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة ، كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها، ويؤذينى فيه ، فمات ذلك العظيم ، وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالى يترددون فيها ، ويدخلون فى دورها ويخرجون ، ويأمرون وينهون ؛ فذكرت قول رسول الله ﷺ ، وحدثتهم به ، وسجدنا شكرا لله .

★ ★ ★

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

واستفتحوا : وطلبوا الفتح ، والمراد به هنا : النصر .

وخاب : وخسر وهلك .

كل جبار : الجبار فى اللغة : من يقهر الناس على ما يريده ، والمراد به هنا : المتكبر عن عبادة الله تعالى وطاعته ، المتعالى على رسله .

عنيد : شديد العناد والمكابرة .

من ورائه : من خلفه أو من أمامه ، وأصل معنى وراء : ما توارى عنك قدامك أو خلفك .

ماء صديد : هو ماء يسيل من أجساد أهل النار . وأصل الصديد : الماء الرقيق الذى يخرج من الجرح .

يتجرعه : أى : يتكلف بلعه مرة بعد أخرى من الجرْع وهو البلع .

ولا يكاد يسيغه : ولا يقارب أن يبتلعه بسهولة .

التفسير :

١٥- وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

أى : والتمس الرسل من خالقهم : أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين .

قال ابن كثير :

وَٱسْتَفْتَحُواْ . أى : استنصرت الرسل ربَّها على قومها ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتاده .

وقال عبد الرحمن بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها ، كما قالوا : ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال: ٣٢) .

ويحتمل أن يكون هذا مرادًا ، وهذا مرادًا ؛ كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... (الأنفال: ١٩)، والله أعلم[٨٥] .

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وهذه الجملة معطوفة على محذوف والتقدير : واستفتحوا فنصر الله تعالى رسله على أعدائهم .

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وخسر كل متكبر متجبِّر معاند للحق ، :وقريب من هذه الآية قوله تعالى : أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ . (ق : ٢٤-٢٦).

١٦- مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ .

أى : من خلفه جهنم تنتظره بحرِّها ولهيبها ، وحميمها وغسلينها .

والصديد : هو ما يسيل من أجساد أهل النار ، وهو ماء فى غاية الحرارة إذا قدِّم إليهم لم يستسيغوه ، فَيُكْرَهون على شربه ، فإذا قدِّم إليهم شوى وجوههم من حرارته ، وإذا شربوه قطع أمعاءهم عقوبة لهم ، قال تعالى : وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد: ١٥) .

وقال عز شأنه : وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف: ٢٩) .

١٧- يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ...

يكلَّف شربه ولا يستسيغ ذلك ؛ لمرارته ورداءة طعمه ، ولونه وريحه ، وشدة حرارته ، لكنه يكلف أن يتجرعه جرعة بعد جرعة ، ويسقاه على الرغم من قهرًا وقسرا .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى والحاكم ، وصححه غيرهم : عن أبى أمامة : عن النبى ﷺ أنه قال فى الآية : « يُقرَّب إليه فيتكرَّهه ؛ فإذا أُدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطّع أمعاءه ، حتى يخرج من دبره » .

يقول الله تعالى : وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد: ١٥) .

وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ .

أى : تأتيه أسباب الموت من كل مكان فى جسمه ، فكل عضو يعذب عذابا شديدًا ، حتى أطراف شعره، وإبهام رجله .

أو المراد : تأتيه أسباب الموت من الشدائد ، وأنواع العذاب فى كل موضع ، والمراد : أنه يحيط به من جميع الجهات ، من قدامه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته ، وعن يمينه وشماله ، فى نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، لكنه لا يموت !

قال تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر: ٣٦) .

وقال سبحانه : وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ . (الزخرف : ٧٧) .

فهم مخلدون فى جهنم يستقبلون فى كل وقت عذابا أشد وأشق .

وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ . أى : وله من بعد هذه الحال ، عذاب آخر مؤلم أغلظ من الذى قبله .

وعذاب النار وأهوالها متفاوت فى شدته ؛ فالنار دركات ، كما أن الجنة درجات ، فلا يستوى فى الجزاء كافر عنيد متمرد يسعى فى الأرض فسادا ، وكافر مغلوب على أمره .

قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ . (النساء: ١٤٥) .

روى الشيخان : عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة، لرجل وُضِع فى أَخْمَص[٨٦] قدميه جمرة يغلى منها دماغه »[٨٧] .

★ ★ ★

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

مثل الذين كفروا : المثل فى اللغة : بمعنى : الشبيه والنظير ؛ كالمثل والمثيل ، ويطلق على الحال والصفة التى لها شأن وفيها غرابة ، كما فى هذه الآية وأمثالها مما تقدم مرارا ويأتى كثيرا .

فى يوم عاصف : العصف : اشتداد الريح ، وُصف به زمان هبوبها ؛ تقوية لشدتها ، وتوكيدا ، كما وصف النهار بالصيام ، والليل بالقيام فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم ؛ لكثير الصيام والقيام.

التفسير :

١٨ - مَّثَلُ[٨٨] ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ....

كان بعض الكفار يعمل الأعمال الصالحة كصلة الرحم ، أو يتقدم للأصنام بالقرابين ؛ طمعا فى المثوبة وحسن الجزاء ، ولما كانت هذه الأعمال لم تبن على إيمان سليم ، ويقين بالله الواحد الأحد ، بين القرآن : أنها أعمال باطلة ضائعة ، ذاهبة كذهاب الرياح بالرماد عند شدة هبوبها .

والآية اشتملت على تشبيه بليغ ، ووجه الشبه الضياع والتفرق وعدم الانتفاع .

ومعنى الآية :

حال أعمال الذين كفروا ، فى حبوطها وذهابها ، وعدم انتفاع الكافرين بها فى الآخرة، كحال رماد مجتمع ، أتت عليه عاصفة ، فى يوم عاصف ، فبددت الرياح هذا الرماد بددا ، ولم تبق منه شيئا .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا . (الفرقان: ٢٣) .

وقوله سبحانه : لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ .

أى : لا يقدر هؤلاء الكفار على الاستفادة بأى شىء ، من جزاء ما عملوه من خير فى هذه الدنيا ؛ فقد أضاع ثواب جميع أعمالهم ، الكفرُ والشركُ بالله .

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ . أى : ذلك الكفر ، والإشراك بالله ، هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ، أى : البالغ أقصى نهايته، والموصل بصاحبه إلى الهلاك والعذاب .

ملحق بتفسير الآية

نطق القرآن الكريم: بخلود الكافرين فى النار خلودًا أبديًا ، قال تعالى : وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ .(البقرة: ١٦٧).

لكن النار دركات ، وعذابها متنوع ، قال تعالى : ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ . (غافر: ٤٦) .

وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية وغيرها من الأحاديث الصحيحة : أن عدالة الله الكاملة ، وفضله وبرّه ، وكمال رحمته ، تأبى أن تضيع أعمال البر للكافرين ، ورأوا أن الله يخفف عنهم بعض العذاب فى الآخرة ، كما أنه يعجل لهم بعض الجزاء فى الدنيا ، واستشهدوا بقوله تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧ ، ٨) .

وقال عز شأنه : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧) .

وقد روى البخارى ومسلم : عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أنه قال للنبى ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ! قال ﷺ: « هو فى ضحضاح من النار ، ولولا أنا ؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار »[٨٩] .

والخلاصة : أن بعض العلماء ذهب إلى أن أعمال الكافرين ، التى عملوها فى وجوه الخير ؛ كالصدقة وصلة الرحم ، ينتفعون بثوابها فى الدنيا ، فيكافئهم الله عليها بنعم فى دار الدنيا ، ولا ثواب لهم عليها فى الآخرة ؛ لأنها بنيت على غير أساس ؛ حيث كانوا كافرين أو مشركين بالله . وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . (البينة : ٥) .

ويرى بعض العلماء : أنه يجوز أن يخفف الله تعالى ، عذاب بعض الكفار فى الآخرة ؛ بما لهم من حسنات عملوها فى الدنيا ، معتمدين على الأساس العام الذى وضعه القرآن الكريم ، وهو : العدالة التامة وحسن الجزاء ، فلا يسوّى بين كافر فاجر فاسق مفسد ، وكافر كفّ أذاه عن الناس ، أو ساهم فى أعمال الخير والإصلاح ؛ فالأول يستحق أشد العذاب . وما دام فى النار شديد وأشدّ ، وخفيف وأخف ؛ فإن الثانى يستحق تخفيف العذاب بمقدار ما قدّم من أعمال[٩٠] ، والله تعالى أعلم .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

ألم تر : أى : ألم تعلم ، والاستفهام للتقرير ، أى : لقد علمت أيها المخاطب ، فاشهد بما تعلم .

بالحق : أى : بالأمر الثابت ، وهو الحكمة المنزهة عن العبث .

يذهبكم : يفنكم حتى لا يبقى لكم أثر .

وما ذلك على الله بعزيز : أى : وليس ذلك بممتنع ، فلا يصعب تحقيقه على الله تعالى .

وبرزوا لله جميعا : أى : ظهروا لله جميعا . والمراد : أنهم خرجوا من قبورهم ؛ لحساب الله تعالى وحكمه.

مغنون عنا : أى : دافعون عنا ، يقال : أغنى عنه ؛ إذا دفع عنه الضر ، وأغناه ؛ إذا وصَّل له النفع.

سواء علينا أجزعنا أم صبرنا : أى : مستو علينا الجزع والصبر ، والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

محيص : معدل ومهرب ، يقال : حاص عنه يحيص ؛ إذا عدل عنه وحاد إلى جهة الفرار .

التفسير :

١٩ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ .

ألم تعلم أيها العاقل أن الله جلت قدرته ، خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . أى : بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ؛ ليُستدل بهذا الخلق البديع المنظم على كمال القدرة ، وجلال الوحدانية ، وليتأمل الإنسان فى هذا الكون ونظامه ، وما فيه من إبداع وجمال وتناسق وتكامل ، ثم يقول : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ . (آل عمران: ١٩١) ، أى : لم تخلقه عبثا ، بل خلقته بالحق .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

إن يشأ الله سبحانه إهلاككم أيها المكذبون ؛ يهلككم حتى لا يبقى منكم أحد ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . أطوع لله منكم ، فإن من قدر على خلق هاتيك الأجرام العظيمة ، البالغة حدًّا كبيرا فى الدقة والنظام والإبداع ، قادر على إهلاك الناس ، والإتيان بخلق جديد ، أطوع لله من السابقين .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر: ١٥-١٧) .

وقال تعالى : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا . (النساء : ١٣٣) .

إن قدرة الله صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ، فالكون جميعه فى قبضته وفى تصرفه ، وكل شىء فى الوجود ممتثل لأمره ، قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة: ٢٠) .

وقال سبحانه : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (يس: ٨٢) .

٢٠- وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ .

أى : وما إذهابكم ، والإتيان بخلق جديد مكانكم ، بممتنع على الله ولا متعسر عليه .

٢١- وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ...

أى : برزت الخلائق كلها ، برّها وفاجرها ، لله الواحد القهار ، أى : اجتمعوا له فى براز من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شىء ليستر أحدا ، ومعنى بروزهم لله : ظهورهم من قبورهم للحساب والجزاء ، أمام الله سبحانه وتعالى ، ولما كان هذا البروز أمرًا محققا كائنا لا محالة عبَّر عنه بصيغة الماضى ، كأنه وقع فعلاً ودخل فى دائرة الوجود .

وهذه على طريقة القرآن الكريم فى عرض مشاهد القيامة أمام المشاهد ، كأن الأمر قد وقع فعلا ، فأنت تشاهد الناس جميعا ، قد برزوا ظاهرين أمام الله ، حيث كانوا فى الدنيا يستترون ويختفون خلف الجدران والأماكن ، لكنهم فى عرصات القيامة يظهرون بارزين ، لا يستطيعون الاستخفاء ، ولا إخفاء أى شىء، فقد ورد فى الحديث الصحيح : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا »[٩١] ، فهم حفاة الأقدام ، عراة الأجساد ، غرلا لم تزل قلفتهم بل حشروا كيوم ولدتهم أمهاتهم بدون ختان .

وطريقة العرض هذه تبعث الرهبة فى النفوس ، حيث تشاهد المشهد أمامك ، حيث ظهرت الخلائق جميعا ، فى مكان بارز أمام الله تعالى ، لا شىء يسترهم ، ولا مكان يختبئون فيه .

فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا .

أى : قال الأتباع الضعفاء فى رأيهم وفكرهم ، الذين انقادوا لسادتهم وكبرائهم فى الدنيا - قال

الضعفاء للكبراء والقادة ؛ الذين استكبروا عن عبادة الله واتِّباع الرُّسل : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا . أى : كنا تابعين لكم تأمروننا فنأتمر ، وتنهوننا فننتهى .

فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ . أى : فهل تدفعون عنا اليوم شيئا من ذلك العذاب ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا ؟!

قَالُواْ لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ . أى : لو أرشدنا الله إلى طريق الهدى ، وأضاء أنوار بصائرنا ، وأفاض علينا من توفيقه ومعونته ؛ لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ، ولكنه لم يهدنا ؛ فضللنا السبيل وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، لو كنا نستطيع النفع لنفعنا أنفسنا !

سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ . أى : ليس لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه ، إن صبرنا أو جزعنا وتألَّمنا.

روى : أن أهل النار قال بعضهم لبعض[٩٢]: إنما أدرك أهل الجنة منازلهم ؛ بسبب بكائهم وتضرعهم إلى الله ؛ تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا بدون فائدة ، فقالوا : تعالوا ؛ فإنما أدرك أهل الجنة منازلهم بالصبر ، تعالوا نصبر ، فصبروا صبرًا طويلاً فلم ينفعهم ، فعند ذلك قالوا :

سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ .

أى : مستو عندنا الجزع والهلع مما نحن فيه ، أو الصبر عليه ، وليس لنا منجى ولا مهرب من هذا المصير المؤلم .

ونرى فى الآية جانبا من هوان الضعفاء ، وذلتهم وانكسارهم ، فهم يطلبون وسيلة ما ؛ لتخفيف بعض بعض عذاب الله .

ونجد أيضا حسرة المستكبرين وضعفهم وعجزهم ، وتصريحهم بذلك حين قالوا :

لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ . وفي مثل هذه الآية قوله تعالى:

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ . (غافر: ٤٧، ٤٨) .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

لما قضى الأمر : أى : لما أحكم وفرغ منه .

وعد الحق : وعدًا من حقه أن ينجَّز .

فأخلفتكم : أى : لم أنجز وعدى لكم ، يقال : أخلف وعده ، أى : لم يبرّ به .

سلطان : أى : تسلط .

بمصرخكم : أى : بمغيثكم ، من أصرخه أى : أغاثه ، يقال : استصرخه فأصرخه ، أى : استغاث به فأغاثه.

بمصرخىّ : أى : بمغيثىّ .

إنى كفرت بما أشركتمون من قبل : أى : إنى كفرت بإشراككم إياى فى الدنيا ، أو إنى كفرت بالذى أشركتمونيه ، أى : بالله تعالى . من قبل إشراككم أنتم به ، فأنا هالك مثلكم .

التفسير:

٢٢ – وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ... الآية .

حملت سورة إبراهيم مواقف الحوار فى الحشر، بين المستكبرين وأتباعهم ، وهذه الآية تعرض حوارًا آخر ، بين الشيطان وأتباعه ، ومزية هذا الحوار ، أنه يبعث الحياة والحركة فى المشهد ، ويجعل الغائب حاضرًا، ويعرض أمام الإنسان موقفًا سيأتى يوم القيامة ، بلغة الحديث عن الماضى كأنَّه مشاهد ملموس.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ .

أى : عندما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنة ، وأسكن الكافرين النار ، شاهد الكفار أن الرسول قد شفع للمسلمين ، فقال الكفار : من يشفع لنا ، ما هو إلاَّ إبليس الذى أضلّنا ، فيأتونه ويسألونه ، فعند ذلك[٩٣] يقول هذا القول .

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ .

أى : على ألسنة رسله بأن يبعثكم ويحاسبكم ، ويجازيكم على أعمالكم بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، ووعد الله حق وخبره صدق ، وقد أنجز ما وعد .

وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . أى : وعدتكم : أن لا جنة ولا نار ولا حساب ولا جزاء ؛ ولئن كانا فنعم الشفيع لكم الأوثان والأصنام .

فَأَخْلَفْتُكُمْ . ما وعدتكم به ، وظهر كذبى فيما قلته لكم ؛ فقد كان وعدًا باطلاً ، زخرفا وأمانى خادعة.

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ . أى : من قوة وتسلط ؛ تجعلنى ألجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى.

إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي . أى : ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال ، بوسوستى وتزيينى ؛ استجبتم لدعوتى ، واتبعتم شهوات النفوس ، وخضتم فى مسالك الردى .

فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم . أى : فلا تلومونى بسبب وعودى الكاذبة ، ولكن لوموا أنفسكم ، فإنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة ، بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من ربكم .

مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ . أى : بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من العذاب والنكال ؛ فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات ، والشيطان هنا يتبرأ من أتباعه ، ويلقى التبعة عليهم ؛ حتى ييأسوا من نصره لهم ؛ لأنه لا يستطيع نصر نفسه ، فكيف يستطيع أن ينصرهم.

إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ . أى : إنى برأت اليوم من إشراككم إياى مع الله فى الدنيا ، حيث أطعتمونى فى الشرّ ، كما يطاع الله فى الخير ، كأنى معبود معه ، ونظير هذا قوله تعالى : وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ . (فاطر: ١٤) .

ونرى أن الشيطان قد قدّم للكافرين ، سلسلة من المعلومات تقصم ظهورهم ، وتضاعف عليهم الحسرات والمصائب :

١- أوضح لهم : أن مواعيده التى وعدهم بها فى الدنيا كانت باطلة ، معارضة لوعد الحق سبحانه .

٢- أوضح لهم : أنهم قبلوا ما لا يتفق مع العقل .

٣- لم يكن قوله إلاّ مجرد دعوة خالية عن البرهان .

٤- عليهم أن يلوموا أنفسهم ، فقد اختاروا الباطل المحض .

٥- لا نصر عنده ولا إغاثة فهو مثلهم فى بلاء وحيرة .

٦- أعلن : أنه كفر بمن أشركه فى العبادة وأطاعه .

وفى ختام الآية :

إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وهى تقرر حقيقة ثابتة ، بأن جزاء الظلم ؛ العذاب الأليم فى الآخرة ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الشيطان يقرر حقيقة واقعة أمام أتباعه ، تضاعف عليهم الحسرات واليأس والإحباط ، جزاءً وفاقا لما عملوه فى دنياهم ، وإنما حكى الله عنه ذلك ؛ لتكون بمثابة الإنذار المبكِّر لهؤلاء الظالمين ؛ حتى يثوبوا إلى رشدهم .

ويحتمل أن تكون هذه الجملة ، حكاية لرد الله سبحانه وتعالى على الشيطان وأتباعه جميعا ، تابعين كانوا أو متبوعين – أى : إن الظالمين لهم منا عذاب أليم ، فلا ينفعهم فى ذلك اليوم الندم ، ولا إلقاء بعضهم التبعة على بعض .

ولما كان هذا جزاء الظالمين ، من حسرات متتابعة ، قابل القرآن بين موقفهم وموقف المؤمنين ، على طريقة القرآن الفذّة فى الجمع بين الأضداد . فقال سبحانه وتعالى :

٢٣- وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ...

أى : أدخل الله تعالى فى ذلك اليوم العظيم المؤمنين الصالحين ، جنات وبساتين يانعة تجرى الأنهار من تحت أشجارها وقصورها ؛ زيادة فى البهجة وحسن المنظر .

خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . أى : ماكثين فيها أبدًا ، خالدين فيها خلودًا أبديا ، نعيمهم دائم سرمدى لا ينقطع.

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . بأمر الله وفضله ، وهو أمر نافذ لا يردّه أحد ، وبفضله الذى لا حدّ له ، الذى يتفضل به على المؤمنين فيضاعف لهم الثواب ، رحمة منه وفضلا .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « لن يُدخِل أحدًا عملُه الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : « ولا أنا ؛ إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يُستعتب »[٩٤] .

ومعنى يستعتب : يتوب ويندم ويستغفر .

تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ .

أى : تحيتهم فى الجنة : سلام ، بمعنى : أمان وتحية ، وهى : تحية الله لهم ، وتحية الملائكة لهم ، وتحية المؤمنين بعضهم لبعض .

قال تعالى : سَلَٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ . (يس: ٥٨) .

وقال سبحانه : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ . (الأحزاب: ٤٤) .

كما أن الملائكة تحيى المؤمنين بالسلام فى الجنة ، قال تعالى : وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (الرعد: ٢٣، ٢٤) .

وقال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ . (الزمر: ٧٣) .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

ألم تـــــر : الخطاب هنا لكل ذى عقل يحسن فهم الخطاب ، والاستفهام هنا للتقرير بالعلم ، والمعنى: ألم تعلم .

ضرب الله مثلا : المثل : الصفة العجيبة ، وضرب المثل : تبيينه ووضعه فى المكان اللائق به .

كلمة طيبة : المراد بها هنا : كلمة التوحيد .

تؤتى أكلها كل حين : تعطى ثمرها فى كل وقت .

التفسير :

٢٤ – أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

ذكر سبحانه وتعالى فيما سبق : عقوبة الظالمين ، وجزاء المؤمنين ، وهنا ضرب لذلك مثلا حسيا ملموسًا فيه تشبيه للمعنويات بالملموسات ، والخطاب فى الآية للرسول ﷺ ، أو لكل من يتأتى منه الخطاب.

والمعنى : ألم تر أيها المخاطب ، كيف اختار الله تعالى مثلا ، ووضعه فى موضعه اللائق به والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتى الإيمان والكفر .

فكلمة الإيمان والتوحيد فى الإسلام ، وهى : شهادة ألا لا إله إلا الله ، أصلها ثابت متين ، معتمد على الإيمان بالله ، وصدق التوحيد ، والإخلاص له ، وتثمر أعمالا صالحة من الصلاة والصيام والحج والجهاد ، وسائر آداب الإسلام فى العبادات والمعاملات .

شبَّه الله كلمة التوحيد بشجرة طيبة مثمرة هى : النخلة ، أصلها ثابت فى الأرض لا تزعزعه الرياح ، وفرعها متجه إلى السماء ، فهو عال رشيق مثمر .

٢٥– تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...

فالنخلة لا تضن بثمارها فى أى وقت من الأوقات ، ويؤكل البلح ليلا ونهارًا ، صيفًا وشتاءً ، ويؤكل منه الجمار والبلح والبسر والرطب والتمر ، وكل نتاج النخلة خير وبركة ، وهى كقلب المؤمن لا تجفّ صيفا ولاشتاء .

وكذلك الإيمان فى قلب المؤمن ثابت كجذور النخلة ، وأعمال المؤمن تصعد إلى السماء : إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ . (فاطر: ١٠) ، والإيمان يؤتى ثماره فى كل حين وآن ، من الأعمال الصالحة، والجهاد ، والذكر ، والصدقة ، وصلة الرحم ، ونشر العلم ، وأداء العبادات والمعاملات ، وكذلك النخلة أو كل شجرة مثمرة نافعة ، تؤتى أكلها وثمارها كل وقت وآن ، بِإِذْنِ رَبِّهَا . أى : بأمره ومشيئته ، حيث شاء أن ينتفع الناس بهذه الثمار فى كل حين .

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

ختم الله هاتين الآيتين ببيان الحكمة من ضرب الأمثال فى القرآن الكريم ، وهى : الحث على التفكر والتأمل والاعتبار ، وفيها زيادة إفهام وتذكير للناس ؛ لأن أنس النفوس بها أكثر ، فهى تخرج المعنى من خفى إلى جلى ، ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالحس والطبع ، وفيها تقريب للبعيد ، وتقرير للقريب ، وإبراز المعانى المقولة بالصور المحسوسة .

فى أعقاب تفسير الآيتين :

المراد بالشجرة الطيبة عن جمهور المفسرين : النخلة ، وقيل : هى كل شجرة مثمرة طيبة الثمار والمنظر والرائحة ، وقيل : غير ذلك ، وقد رجح الآلوسى والطبرى وغيرهم : أن المراد بالشجرة الطيبة : النخلة؛ لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ .

★ ★ ★

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

اجتثت : قطعت واستؤصلت .

من قرار : من ثبات فى الأرض .

بالقول الثابت : بكلمة التوحيد .

التفسير :

٢٦ - وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ .

أى : وصفة كلمة خبيثة ، هى : كلمة الكفر والشرك وكل فساد ؛ كشجرة خبيثة ، لا قرار ثابت لها ، فهى كالحنظل وكل نبات لا ثمر له ، ولا يرجى منه خير .

ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ . أى: اقتلعت جثتها وهيئتها ، من فوق الأرض ؛ لقرب عروقها وجذورها من سطح الأرض .

مَا لَهَا مِن قَرَارٍ .

أى : ليس لهذه الشجرة أصل ثابت ، ولا فرع صاعد ، وكذلك الكافر ، لا خير فيه ، لا يصعد له قول طيب، ولا عمل صالح ؛ لأنه لا إيمان عنده ، فهذا وجه تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة .

الشجرة الخبيثة

هى شجرة طعمها مر كالحنظل ، وليس لها ثمر ، وليس لها أساس ثابت ، وقيل : شجرة الشوك، وقيل: كل شجر لا يطيب له ثمر ، وقيل : هى شجرة لم تخلق على الأرض .

وقال ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة ، جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها.

والخلاصة : أن كلام المؤمنين نافع مفيد ، أساسه قوى متين ، وأهدافه سامية ، وثماره نافعة متعددة، وكلام الأشقياء وأصحاب الشهوات والنفوس الضعيفة ، باطل لا أساس له ، ولا ثمار ، أشبه بالحنظل أو بالأشجار الخبيثة التى لا نفع فيها ولا فائدة .

٢٧- يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ... الآية .

هذا من فضل الله ونعمائه على المؤمنين ، الذين استقر الإيمان فى قلوبهم ، فهؤلاء يمدّهم الله بعونه وتثبيته ؛ فلا تغريهم الفتنة ، ولا المال ولا المنصب ولا الجاه ، ولا يؤثرون الدنيا على الآخرة .

انظر إلى بلال وصهيب وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، وانظر إلى الدعاة والهداة والأئمة فى التاريخ القديم والحديث ، هؤلاء جميعا ثبتهم الله على الدين والإيمان ، والتوحيد فى الحياة الدنيا .

وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ . عند خروج الروح ، وعند سؤال القبر ، وعند البعث والحشر والحساب ، والميزان والصراط، فى هذه المواقف يثبتهم الله على الإيمان ، وعلى شهادة : ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، كما ورد فى الحديث الصحيح [٩٥] .

ومن هذا التثبيت : أن روحه تخرج على التوحيد ، وأنه يُسأل فى قبره فيقول : الله ربّى ، والإسلام دينى، ومحمد رسولى ، ثم يفتح له فى قبره باب إلى الجنة .

وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ؛ لأنهم اختاروا الضلال على الهدى ، ومالوا مع شهوات النفس ، وآثروا العاجلة على الآجلة ، قال تعالى: فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ . (النازعات: ٣٧-٣٩) .

وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ . من تثبيت المؤمنين ؛ جزاء ثباتهم على إيمانهم ، ومن إضلال الكافرين ؛ جزاء ضلالهم وكفرهم ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ، وله الحكم فى الأولى والآخرة ، لا معقب لأمره ، ولا رادَّ لقضائه ، ومن مشيئته : تثبيت المؤمنين ومثوبتهم ، وخذلان أهل الكفار وعقابهم . وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا .
(الشمس ٧ – ١٠)

من هدى السنة

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر ؛ يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فذلك قوله تعالى : يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ »[٩٦] .

وأخرج الشيخان[٩٧] وغيرهما : أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا – أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد – ﷺ – فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعا ، ويفتح له من قبره إليه ، وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدرى كنت أقول كما يقول الناس ! فيقال : لا دريت ولا تليت ! ثم يضرب بمطرقة من حديد ، ضربة بين أذنيه ؛ فيصيح صيحة فيسمعها من يليه إلا الثقلين»[٩٨] .

من زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى :

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . وهى : الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها : كلمة الشهادة « شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله » ، وسائر الكلام الحقّ ، فإن الآخذين بها يدومون على القول الثابت .

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ . وقت المساءلة فى القبر ويوم القيامة ، والمراد : أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم ، أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ، ولا تردد ولا جهل ، كما يقول من لم يوفق : لا أدرى ؛ فيقال له : لا دريت ولا تليت .

وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ . أى : يضلهم عن حجتهم فلا يقدرون على التكلم بها فى قبورهم ولا عند الحساب[٩٩]

★ ★ ★

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

كفرا : كفر النعمة : جحدها .

دار البوار : دار الهلاك ، ويطلق البوار أيضًا على : الكساد .

وبئس القرار : وبئس المستقر .

أندادا : جمع ند ، وهو : المثل والنظير .

مصيركم : مرجعكم .

لا بيع فيه : لا فدية فيه .

ولا خلال : الخلال معناه : المخالة وهي : الموادة ، أو جمع خليل ، وهو الصديق ، أو جمع خلة ، بضم الخاء وتشديد اللام مفتوحة ، وهي : الصداقة .

التفسير

٢٨ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... الآية .

الخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺ ، أو إلى كل من يصلح للخطاب ، مقصود به : التعجيب من صنع هؤلاء الكفار.

والمعنى : ألم تنظر إلى الذين بدلوا شكر نعمة الله عليهم ، فجعلوا مكانه كفرا عظيما .

والمراد بهم : أهل مكة ، مكن الله لهم حرمًا آمنا ، يجبى إليه ثمرات كلّ شيء ، ويسر لهم رحلة الشتاء والصيف ، ودعاهم : إلى عبادة رب البيت الحرام ، وأرسل لهم نبيا منهم يعرفون نسبه وصدقه ، وأنزل عليه كتابا فيه مجدهم وصلاحهم ، وإنقاذهم من براثن الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد ، لكنهم بدلا من أن يشكروا الله على هذه النعمة ، فيؤمنوا برسوله ويتبعوا هديه ، قابلوا هذه النعمة بالكفر ، والإصرار على عبادة الأوثان ، ومحاربة محمد ﷺ ، ومن آمن به .

وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ . وأنزلوا قومهم ومن أطاعهم من أهل مكة ، دار البوار والهلاك ، حيث قتلوا فى غزوة بدر ، وعدد من الغزوات حتى فتحت مكة ، وتعرضوا للهوان والهلاك .

والبوار : الفساد والهلاك ، الذى أنزلوه بأقوامهم وبأنفسهم ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ . (هود: ٩٨) .

ثم بين الله دار البوار فقال :

٢٩- جَهَنَّمَ(١٠٠) يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ .

أى : إن دار البوار هى : جهنم ، يصطلون بحرها ؛ من صليت اللحم ؛ أصليه ؛ إذا شويته .

وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ .

وبئس المستقرّ والإقامة هى ؛ لمن أراد الله به النكال والوبال .

٣٠- وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ...

أى : اتخذوا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، أندادًا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة .

لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ . ليوقعوا قومهم فى الضلال ، ولاخروج عن سبيل الله وهو التوحيد ، بما زينوه لهم من شرك وافتراء .

وهذا عمل السادة المتبوعين من سدنة الأوثان وسدنة المذاهب الضالة(١٠١)

قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ . أى : تلذذوا بالمعاصى والشهوات ، التى تماديتم فيها ؛ فقد قابلتم النعمة بالكفر بدل الشكر ، وأغريتم الأتباع بالضلال وعبادة الأوثان والأصنام !

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ . أى : افعلوا ما بدا لكم ، فإن عاقبتكم جهنم وبئس القرار ؛ إذا لم تقلعوا عن غيكم وكفركم.

وهذا الأسلوب يراد به : التحذير ، كما يقول الطبيب لمريض يستهين بأوامره : تمتع بالأكل كما تشاء؛ فإن مصيرك الموت ! وكما يقول الحاكم لمن عصاه : افعل ما شئت ؛ فإن مصيرك حبل المشنقة !

قال الشوكانى :

قُلْ تَمَتَّعُواْ . بما أنتم فيه من الشهوات ، وبما زينته لكم أنفسكم من كفران النِّعم .

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ .

أى : مرجعكم إليها ليس إلاّ ، كأنه قيل : فإن دمتم على ذلك ؛ فإن مصيركم إلى النار . اهـ .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ . (الزمر: ٨) .

وقوله تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان: ٢٤) .

٣١- قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...

من طبيعة القرآن الكريم المراوحة فى الحديث ، والتنقل بين الحديث عن الكافرين ، وتوجيه الخطاب إلى المؤمنين .

والمعنى : قل يا محمد لعبادى ، الذين استجابوا لدعوة ربهم :

يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . يحافظوا على إقامة الصلاة فى أوقاتها ، مع خشوعها وخضوعها وحضور القلب فيها، وإتمام أركانها ؛ حتى تؤدِّى دورها فى إصلاح الفرد والمجتمع .

وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً . ويقدموا للفقراء والمساكين والمحتاجين ، جانبا من المال الذى استخلفهم الله فيه ، سواء أكان على وجه الصدقة فالإسرار فيه أفضل ، أم كان على وجه الزكاة فالإعلان فيه أفضل .

مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلَـٰلٌ .

أى : يقيموا الصلاة والعبادة ، والزكاة والصدقات فى هذه الدنيا ، من قبل أن يجيء يوم القيامة ففى هذا اليوم لا يستطيع المقصِّر فى العمل أن يفدى نفسه ، بالبيع والشراء ، ولا يستطيع الخليل أن ينقذ خليله من أهوال هذا اليوم ؛ لأن العملة الوحيدة فى ذلك اليوم هى العمل الصالح ، الذى قدّمه الإنسان فى دنياه .

وفى هذا المعنى يقول الله تبارك وتعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . (البقرة: ٢٥٤) .

وعلى لسان إبراهيم الخليل يقول سبحانه : وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء: ٨٧-٨٩) .

★ ★ ★

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

وأنزل من السماء : كل ماعلا الإنسان فأظله ؛ فهو سماء. والمراد به هنا : السحاب .

رزقــــــا : مرزوقا مما يطعم أو يشرب أو يلبس أو ينتفع به .

وسخر لكم الفلك : أى : يسر الفلك لإرادتكم ، والفلك بسكون اللام : السفينة . يستعمل فى الواحد ؛ فيذكر ، وفى الجمع ؛ فيؤنث .

دائـــــبين : فى حركة دائمة لا يفتران . يقال : دأب فى عمله دأبا ، ويحرك : جدَّ فيه .

لا تحصـــوهـــا : لا تقدرون على حصرها وعدها ، والإحصاء فى الأصل : العد بالحصى ، ثم أطلق على العد مطلقا .

ظـــلـــوم : ظالم شديد الظلم ، يقال : ظلم ، يظلم ، ظلما ، من باب ضرب فهو ظالم وظلوم . والظلم : وضع الشىء فى غير محله .

كـــفـــار : جاحد النعمة . يقال : كفر النعمة ، وكفر بالنعمة : جحدها .

التفسير :

٣٢ – ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ... الآية .

تعدد هذه الآيات جانبا من نعم الله على خلقه ، وكأنها ترد على الكافرين المعاندين ؛ إذ تقدِّمُ أدلة ملموسة، يراها الأعمى والبصير ، والصغير والكبير ، والأمِّى والمتعلم ، فمن هذه النعم ما يأتى :

١– ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ .

فهو سبحانه خلقهما على غير مثال سابق ، وأوجد فى السماء الأجرام العلوية ، من نجوم وكواكب ، ومجرات

ومخلوقات تسبح بدقة عجيبة وترتيب بديع ، كما بسط الله الأرض وأنزل إليها الأمطار ، ويسَّر لها الأنهار والبحار، والجبال والهواء والفضاء ؛ حتى يعيش عليها النبات والحيوان والإنسان ، وحتى يعمر الكون ويتكامل .

٢- وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً .

وهذا الماء هو أساس الحياة ، يشرب منه الإنسان والحيوان والزرع ، وبطون الوديان والأفلاج .

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ . أى : أخرج بماء المطر أنواع النباتات والثمار ؛ حتى يأكل منها الإنسان والحيوان ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ . (الأنبياء: ٣٠) .

٣- وَسَخَّرَ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ...

أى : ذلل الله لكم السفن ، ويسر لكم استعمالها ؛ فصارت تجرى على شاطئ الماء ، بإذن الله وتيسيره ، الذى قدَّر قوانين الهواء والفضاء والماء ، والطفو على وجه الماء ، قال تعالى : وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ . (الرحمن : ٢٤) .

أى : وبفضل الله سخر السفن التى تجرى فى البحر ، كالجبال العالية ناشئة على سطح الماء جارية عليه بفضل الله .

٤- وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ .

أى : ذلل لكم الأنهار ؛ تشربون منها وتسقون زروعكم ودوابكم ، وتشقون منها أنهارًا تسيِّرونها وفق إرادتكم، كنهر النيل ، والفرات وغيرهما .

٣٣- وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ .

٥- سخر الله لكم الشمس والقمر دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرهما ، وهما دائمين فى مكانهما بدون اضطراب أو اختلال ، ولا يفتران عن ذلك ما دامت الدنيا .

٦- وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ .

أى : جعلهما متعاقبين يأتى أحدهما وراء الآخر ، فالليل جعله الله سكنا ونومًا وهدوءًا وراحة ، والنهار جعله الله سبيلا للحركة والحياة ، والتجارة ، والزراعة ، والدِّراسة ، والقيام بسائر أنواع الحرف وفنون المعاش ، ولا غنى للناس عنهما ، ولو استمرّ الليل ؛ لتعطلت مصالح الناس ، ولو استمر النهار ؛ لضاق الناس بالحياة والحركة.

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ... (الروم: ٢٣) .

وقوله : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ . (الأنعام: ١) .

٣٤- وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ...

٧- وأعطاكم من كل ما سألتموه ، أى : أعطاكم بعضا من جميع ما سألتموه إياه من نعم ، أو أعطاكم من كل ما سألتموه ومالم تسألوه ، فحذف الثانى ؛ لدلالة الأول عليه ، ونظيره : سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ . (النحل: ٨١) ، أى: والبرد.

وقرئ بتنوين كلٍّ : والمعنى على هذه القراءة : أعطاكم الله من كل شىء ابتداءً ؛ بدون سؤال منكم ، على أن مَا نافية ، أى : أعطاكم من كل شىء ، حال كونكم غير سائليه .

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ..

٨- أنعم الله عليكم نعما جمة لا تعدّ ولا تحصى ؛ فهلا استعنتم بها على الطاعة ، وشكرتم الله عليها ، واستخدمتموها فى طاعته وعبادته وعدم الإشراك به ، وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم، لك الحمد غير مكفىٍّ ولا مودَّع ولا مستغنى عنه ربنا » ؛ فهو سبحانه لم يكفه غيره ، بل هو يكفى غيره .

ولا مودَّع : غير متروك حمده .

ولا مستغنى عنه ربنا : فهو الذى يحتاج إليه الخلق .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . لا تطيقوا إحصاءها ، بوجه من الوجوه ، ولو رام فرد من أفراد العبادة ، أن يحصى ما أنعم الله به عليه ، فى خلق عضو من أعضائه ، أو حاسة من حواسه ، لم يقدر على ذلك قطّ ، فكيف بما عدا ذلك من النِّعم ، فى جميع ما خلقه الله فى بدنه ، والنعم الواصلة إليه فى كل وقت ، على تنوعها واختلاف أجناسها ، اللهم ، إنا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا ، مما لا يعلمه إلا أنت[١٠٢] .

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

هناك وجهان فى تفسير هذه الآية .

الوجه الأول : المراد بالإنسان : الكافر الذى عبد غير الله ، أى : أن الإنسان الكافر الذى عبد غير الله ، لظلوم لنفسه ؛ بإغفاله لشكر من أنعم عليه .

كَفَّارٌ . شديد الكفر لله حيث عبد غيره ، وسجد للوثن والصنم ، مع أن المستحق بالعبادة هو الله تعالى .

والوجه الثاني : المراد من الإنسان : جنس الإنسان ، ومن الكفر : كفر النعمة ؛ بالتقصير فى شكرها .

والمعنى : إن الانسان لا يُقدِّر نعم الله عليه ، وهى لا تحصى ، فتراه عظيم الظلم لنفسه ، شديد الكفران لنعم ربّه ، فهو دائم الانتفاع بها ، والتقصير فى أداء شكرها ، ووضعها فى غير موضعها ، ولو أنصف نفسه ، وعرف حق ربّه ، لاستدام شكره ، والوفاء بحقّه جلّ وعلا[١٠٣] .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات :

البلد : مكة المكرمة .

اجنبنى : أبعدنى . يقال : جَنَبْتُ الرجل الشَّرَّ من باب نصر : أبعدته عنه ، وجنَّبْتهُ بالتشديد مبالغة.

بواد : الوادى : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذًا للسيل . والمراد به هنا : ما يحيط بالبيت الحرام .

تهوى إليهم : تسرع إليهم شوقًا وحبًّا . يقال : هوى إليه يَهْوِى هُوِيًّا بضم الهاء ؛ إذا أسرع فى السَّير .

ما نخفى : ما نضمر ونستر . يقال : أخفيت الشيء : سترته . وخفى الشيء : استتر أو ظهر ضد .

وما نعلن : وما نظهر . يقال : علن الأمر من باب : قعد ، ظهر ، وأعلنته : أظهرته .

التفسير :

٣٥ - وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ[١٠٤] **ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ... الآية .**

رأى بعض المفسرين : أن ذكر جانب من قصة إبراهيم هنا ، كمثال للكلمة الطيبة ، التى تثمر الخير فى كل وقت ؛ لقصد الدعاء إلى التوحيد .

والمعنى : واذكر أيها الرسول لقومك : خبر إبراهيم ، أو اذكر أيها المخاطب : قصة إبراهيم ، حين أسكن ولده إسماعيل وأمّه ، وادى مكة ، ولم يكن بها زرع ولا ماء ، وكانت هاجر جارية قبطية ، تملكها سارة زوجة إبراهيم ، فأهدتها سارة إلى إبراهيم ، فتسرَّى بها ، وأنجب منها فى شيخوخته ولده البكر : إسماعيل ، وملكت الغيرة سارة ؛ فناشدت زوجها أن يخرجها من عندها ، فذهب إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى أرض مكة ، ووضعهما هناك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم قفل راجعا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا؟ بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شيء ؟! قالت له ذلك مرارًا ، وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : ءآلله أمرك بهذا ؟! قال : نعم ؛ قالت : إذًا لا يضيِّعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم عليه السلام ، حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يريانه ، استقبل البيت بوجهه ، وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية ، ثم دعا رافعا يديه فقال : **رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ** .. إلى قوله: **لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** .[١٠٥] .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا . أى : واذكر أيها النبى ، وقت قول إبراهيم لربه ، بعد أن أسكن إسماعيل وأمّه وادى مكة : **رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا**. أى : ياربِّ ، اجعل مكة بلدًا ذا أمن ؛ حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وقد أجاب الله دعاء إبراهيم فجعل مكة حرمًا آمنا .

وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ . أى : باعدنى يارب ، أنا وأبنائى عن عبادة الأصنام ، وثبتنا على التوحيد ، وقد استجاب الله دعوته ، فى بعض بنيه دون بعض ، ولا ضير فى ذلك ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله سبحانه: **قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ** . (البقرة: ١٢٤) .

٣٦- رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ...

أى : يارب ، إن الأصنام أضلت كثيرا من الناس ، أى : كانت سببا فى إضلال كثير من الناس ؛ بسبب الفتنة وإغراء الكبار للصغار ، فنسبة الإضلال للأصنام مجازية ؛ لأن الأصنام أحجار لا تعقل ، لكن وضعها وإغراء سدنتها بعبادتها ؛ أضلت الناس ، كما تقول : فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فُتن وضلَّ بسببها ، ثم أدرك إبراهيم

بفطرته ، أن بنيه سوف ينقسمون بعده ، إلى موحدين ومشركين ؛ ولذلك أظهر لربّه أنه لا يستحق الانتساب إليه ، إلاَّ من اتَّبعه على ملة التوحيد ، فقال :

فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : فمن تبعنى على ملة التوحيد ، وشايعنى فى دينى وعقيدتى ؛ فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى ، وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ؛ فإنى أفوض أمره إليك ، وأنت أهل للمغفرة والتوبة؛ لمن عدل عن الشرك قبل موته .

قال مقاتل وابن حيَّان : المعنى : ومن عصانى فيما دون الشرك ؛ فإنك غفور رحيم .

٣٧- رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ...

عندما ترك إبراهم هاجر ، وابنها إسماعيل ، وهو رضيع ؛ ليقيما فى وادى مكة ، وليس بمكة فى ذلك الوقت زرع ولا ماء ، ثم اتجه إبراهيم إلى ربّه - وقلبه يتحرق إشفاقا على زوجته وابنه - فقال :

رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ .

أى : ربنا إنى استجابة لأمرك ؛ أسكنت بعض ذريتى ، بواد لا ماء فيه ولا زرع ، عند المكان الذى أعدته لبيتك المحرم ، رغبة فى جوار بيتك ، وأملا فى رعايتك وفضلك لهم .

رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . أى : أسكنتهم بجوار بيتك المحرم ؛ ليتفرغوا لإقامة الصلاة فى جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك ، ودلت هذه الآية : أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة فى غيرها .

قال رسول الله ﷺ : «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلاَّ المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة»[١٠٦] .

فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ .

أى : حرِّك الرغبة فى قلوب بعض الناس ، من المؤمنين ؛ لتشتاق لزيارة هذا البيت ، وقد استجاب الله أيضا لهذه الدعوة ، وإنك لترى عجبا فى موسم الحج ، وفى شهر رمضان ، بل وفى سائر شهور العام ؛ مئات وآلاف من الناس ، يقدمون معتمرين وحاجِّين وزائرين ، وطائفين وراكعين وساجدين ، ومعتكفين بهذا البيت العتيق ، وقد استقر فى قلوبهم الإيمان والتبتل ، وظهر على وجوههم الصلاح وسيما العبادة .

وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

أى : وارزق من تركتهم وديعة فى جوار بيتك ، من الثمرات المختلفة ما يغنيهم ويشبعهم ؛ لعلهم بهذا العطاء الجزيل ؛ يزدادون شكرا لك ، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فجعل البيت الحرام حرما آمنا ، تجبى إليه ثمرات كل شىء ؛ رزقا من لدنه .

وترى فى البيت الحرام ، وحوله فى مكة أم القرى أعجوبة الأعاجيب ، وهى اجتماع الفواكه المختلفة الأزمان، من الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية فى يوم واحد ، وبجودة متميزة ، وكثرة كافية ، فى بلد غير ذى زرع ، وتجبى إليه الثمار من الشرق والغرب ؛ ليصبح من أغنى البلاد بالثمار والخيرات ، وسائر صنوف النعم.

ولقد كان من آثار دعوة إبراهيم عليه السلام ، أنَّ هاجر عندما نفد الماء منها ، ورأت رضيعها يتلوى من العطش ، صعدت على الصفا تبحث عن قادم ، ثم انطلقت إلى المروة باحثة عن قادم من البشر ، وكررت ذلك سبع مرات ، وجعل ذلك من مناسك الحج ؛ تخليدا لذكرى هاجر ، ثم أرسل الله ملاكا ، فحفر عند زمزم حتى ظهر الماء ؛ فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لن يضيّع أهله ، ثم إنَّه مرت بهم رفقة من قبيلة جرهم ؛ فقالوا لأم إسماعيل : أشركينا فى مائك ؛ نشركك فى ألباننا ؛ ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل عليه السلام زوَّجوه امرأة منهم .

وقد زار إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل ، فوجده قد خرج للصيد ، ووجد زوجته شاكية متبرِّمة بالحياة معه ، فقال لها : إذا جاء إسماعيل ؛ قولى له : الشيخ يقرئك : السلام ، ويطلب منك أن تغيّر عتبة الدار ؛ فقال إسماعيل هذا أبى وقد أمرنى أن أطلقك ؛ فطلقها إسماعيل وتزوج امرأة أخرى ، ولما زاره إبراهيم وجد زوجة راضية قانعة مؤمنة، فقال لها : قولى لإسماعيل : ثبِّت عتبة الدار ، فقال لها إسماعيل : ذاك أبى وقد أمرنى ألا أطلقك[١٠٧] .

٣٨- رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ...

إنك يا الله سميع عليم ، تعلم السِّر والنجوى ؛ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، تعلم كل أحوالنا ، لا يخفى عليك شىء منها ؛ فتعلم ما نخفيه ونستره ، وتعلم ما نظهره ، فكل ذلك عندك فى العلم سواء .

وذهب ابن عباس ، ومقاتل فى تفسير هذه الجملة : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه ، من الوجد بإسماعيل وأمّه ، حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع .

وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

أنت يا إلهى ، لا يخفى عليك شىء من الأشياء، سواء أكان هذا الشىء فى الأرض ، أم فى السماء ، أم فى غيرهما ، وإنما ذكر السماء والأرض لمشاهدتهما ، وإلا فعلم الله سبحانه ، محيط بكل ما فى هذا الكون .

★ ★ ★

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

وهب لى على الكبر: رزقنى مع تقدمى فى السن .

إنك سميع الدعاء: أى : إنك مجيب دعاءَ من دعاك .

التفسير:

٣٩ – ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ .

الشكر لله تعالى والثناء الجميل له عز شأنه ؛ حيث منحنى الولد على كبر سنّى ، ويأسى من أن يكون لى ولد، ومع هذا الضعف والكبر استجاب دعائى ، ورزقنى إسماعيل وإسحاق ، إن ربى متفضل باستماع دعائى ، وإجابة سؤالى ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦) .

ولم يحدد القرآن عمرًا لإبراهيم عندما رزق بولديه ، لكن أفاد : أنه كان شيخا كبيرا ، وعندما بَشَّرت الملائكةُ زوجته سارة بالولد والحفيد ؛ تعجبت من كبر سنها ، وكبر سن زوجها .

قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة[١٠٨].

قال تعالى : وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ . (هود: ٧١، ٧٢) .

٤٠ – رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ...

نلمح هنا عبادة إبراهيم خليل الرحمان ، وتقربه من ربه بالدعاء ، والحب ، والذكر ، والتبتيل ، إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ . (التوبة: ١١٤) ، فهو دائم الرجوع إلى الله والتضرع إليه مع الحلم والأناة ، وفى هذه الآية يدعو ربه قائلا:

رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ . وفقنى لأداء الصلاة فى أوقاتها ، والمحافظة على خشوعها وخضوعها وإقامة أركانها ؛ فهى وسيلة المناداة والمناجاة ، وسبيل الإيمان وذكر الرحمان ، وهى تغسل النفس من الداخل بالتوبة والذكر والطهارة ، ولذلك كانت وسيلة إلى البعد عن الفحشاء والمنكر ؛ لأن من عرف ربه وناجاه فى صلاته ؛ سكب الله فى قلبه التقوى ، ورزقه الاستقامة على المأمورات واجتناب المنهيات .

وقد كان إبراهيم أمة فى رجل ؛ فهو أبو الأنبياء ، وقد امتدت دعوته إلى الصالحين من ذريته ، فقال :

وَمِن ذُرِّيَّتِي . أى : واجعل من ذريتى من يقيم الصلاة ، وقد وصف الله عباد الرحمان بقوله : وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . (الفرقان: ٧٤) .

وقد خص إبراهيم بعض ذريته بالدعاء ، فقال : وَمِن ذُرِّيَّتِي . أى : وبعض ذريتى ؛ لأنه علم من استقرائه عادة الله فى الأمم السابقة ، أن يكون فى ذريته من لا يقيم الصلاة .

انظر إلى قوله تعالى : رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ . (البقرة: ١٢٨) .

إن عدالة الله تأبى أن تحابى نبيا أو رسولا ، وإنما يكافئ المحسن أيا كان موقعه أو نسبه ، ويعاقب المسيء مهما كانت قرابته أو نسبته ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ . أى : يا رب تقبل دعائى ، وأجب دعائى وتبتلى ، أو تقبل عبادتى ، أو هما معا ، تقبل دعائى حين أدعوك ، وعبادتى حين أعبدك ، وارزقنى الإخلاص والقبول والتوفيق .

٤١ – رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ .

أى : اغفر لى يارب ما فرط منّى من الذنوب ، أو من عمل خلاف الأولى ، أو من الغفلة عن عبادتك ، واغفر لأبى وأمى .

قيل : كانت أمه مؤمنة ؛ لأن الله ذكر عذره واستغفاره لأبيه دون أمّة حين قال سبحانه : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . (التوبة: ١١٤)

وامتد دعاء إبراهيم الخليل ليشمل جميع المؤمنين والمؤمنات ؛ فقال :

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ .

أى : واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات جميعا ، من ذريتى وغيرهم ، حينما يقومون للحساب والجزاء يوم القيامة ، وتلك دعوة وشفاعة منه لجميع المؤمنين ، نرجو أن يتقبلها الله رب العالمين .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

تشخص فيه الأبصار : تكون فيه أبصار أهل الموقف مفتوحة لا تطرف . يقال : شخص البصر إذا ارتفع ، ويتعدى بنفسه ، فيقال: شخص الرجل بصره ؛ إذا فتح عينيه لا يطرف .

مهطعين : مسرعين : من أهطع في عدوه ؛ إذا أسرع .

مقنعي رءوسهم : رافعيها من إدامة النظر لا يلتفتون إلى شيء ، يقال : أقنع رأسه : رفعه .

لا يرتد إليهم طرفهم : الطرف : العين ، ولا يجمع ؛ لأنه في الأصل مصدر ، والمراد : لا ترجع إليهم أجفانهم التي تحتها العيون بل تظل مفتوحة .

وأفئدتهم هواء : أي : وقلوبهم خالية لا يشغلها سوى الخوف .

التفسير :

٤٢ – وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ... الآية .

الخطاب هنا للرسول ﷺ ، والمراد : أمته ، أو كل من يتأتى من الخطاب ، وفي هذه الآية تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين ، وتهديد ووعيد لمشركي مكة ، ولجميع الظالمين .

قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم .

أي : لا تحسبن إمهال الظالم لفترة ما بسبب غفلة الله عنه ، بل سنة الله إمهال العصاة في هذه الدنيا ، لعلهم يتوبون أو يرجعون ، وفي الآية تهديد ووعيد لكل ظالم ، أي : لا تغتر بإمهالي لك ، ولا تظنن أنك أفلتَّ من عقابي ؛ فإن هذا العقاب سيكون يوم الجزاء .

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ .

إن الله يؤجل عقوبة الظالمين إلى يوم القيامة ، فإذا شاهدوا هول الموقف ؛ شخصت أبصارهم ، أي : بقيت مفتوحة ، لا تتحرك أجفانها ولا حدقاتها .

قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ ؛ لشدة الحيرة ، أي : تبقى مفتوحة لا تطرف .

٤٣ - مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ....

أى : مسرعين إلى الداع بذلة واستكانة ، كما يسرع الأسير والخائف .

مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ . أى : رافعيها مع دوام النظر ، من غير التفات إلى شىء .

لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ . أى : لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم : كما كانوا يفعلون فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف من شدة الفزع والخوف .

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ . أى : إنها مضطربة تجيش فى صدورهم ، تجىء وتذهب ، ولا تستقر فى مكان حتى تبلغ الحناجر ؛ لشدة ما يرون من هول موقف الحساب .

★ ★ ★

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

وأنذر : وخوف .

يوم يأتيهم العذاب : يوم القيامة .

أخرنا إلى أجل قريب : أعدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب .

مالكم من زوال : أى : مالكم من بعث ونشور .

التفسير :

٤٤ - وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ...

تأتى هذه الآيات على طريقة القرآن الفذّة الملفتة للنظر ، بعرض مشاهد القيامة ماثلة أمام العيان ، ونلحظ

فيها مواقف الحساب والجزاء ، وهيئة الظالمين يرجون أن يعودوا إلى الدنيا لوقت قصير ؛ حتى يفعلوا ما أهملوه فى الدنيا ، وهو إجابة دعوة الله واتباع الرسل ، لكن يجيبهم الله بالتبكيت والتذكير بما فعلوه فى الدنيا .

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ .

أى : بلّغ الناس جميعا : أهوال الموقف ، حين يأتى للظالمين العذاب الذى يستحقونه .

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَا إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ...

أى : عند رؤية عذاب الآخرة ؛ يقول الظالمون : ياربنا أعدنا ، إلى الحياة مرة أخرى ، وأخّر أعمارنا وحسابنا إلى وقت قريب ؛ حتى نستطيع أن نستجيب إلى دعوة الله ، بالدخول فى الإسلام وأن نتبع الرسل فى كل ما أمرونا به ، وأن نتدارك ما فرطنا فيه من أعمال فى الدنيا .

أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ .

القرآن هنا يخاطب الظالمين ، وينتقل المشهد أمام القارئ ؛ فالظالم يعتذر ويطلب الإمهال ، والقرآن يعرض مشهد الردّ عليه حالاً ، بدون أن يقول : فيقال لهم : أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم . فيعطى للقارئ انطباعًا بأن المشهد حاضر، وأن النقاش أمامه حالا ، وأن الجواب بالرفض والردع سيكون جزاء الظالمين ، وبهذا يتنبه الظالم الآن ، قبل فوات الأوان .

لقد أقسم الكفار أكثر من مرة على أنه لا بعث ولا جزاء ، ولا حشر ولا حساب ، وإنما هى الحياة الدنيا ، ثم يدفنون فى القبر ، دون بعث أو حشر أو حساب أو جزاء ، وهنا يلتفت القرآن إليهم فيقول : أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ .

إنكم جابهتم الرسل بتكذيبهم ، وقلتم : مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ . (الجاثية: ٢٤).

وتأكيدًا لكلامكم ؛ أقسمتم عليه من قبل وقلتم : مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ .

والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة ، فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيت : أولم تكونوا تقسمون بالأيمان المغلظة فى الدنيا : بأنكم بعد موتكم ، ستبقون فى قبوركم إلى أن تبلى أجسامكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب[١٠٩] .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى :

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . (المؤمنون: ٩٩، ١٠٠) .

وقوله سبحانه : وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ . (النحل: ٣٨، ٣٩) .

٤٥- وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ...

أى : أقمتم فى مساكن الذين كفروا من الأمم الخالية ، أو حللتم فى ديارهم ، وقتا يكفى للاتعاظ والاعتبار، وكان كفار قريش يمرون بديار قوم ثمود فى رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحطون رحالهم هناك ، كما كانوا يمرّون على ديار قوم عاد فى رحلتهم إلى اليمن .

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ .

وظهر لكم عن طريق مشاهدة القرى الهالكة ، وعن طريق تواتر الأخبار ، ماذا فعلنا بهم من الإهلاك والتدمير، جزاء فسوقهم وعصيانهم لرسلهم .

وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ . ومثلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك : الأشباه والنظائر .

قال فى التفسير الوسيط : أى : بينا لكم فى التنزيل على ألسنة الأنبياء : أحوالهم جميعا ما فعلوه وما فعل بهم من الأمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة ؛ لتكون لكم فيها عظة وعبرة بقياس أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم ... أو بينا لكم : أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب ، وتكون الأمثال على هذا جمع : مِثْل بمعنى: الشبيه والنظير[١١٠] .

٤٦- وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ ...

أى : إن هؤلاء الظالمين لم يعتبروا بما أصاب السابقين من الهلاك ؛ كغرق قوم نوح ، وهلاك عاد وثمود ، حيث بين الله لهم عاقبة الكفر ، وضرب لهم أمثلة تنتهى باندحار الباطل ، وانتصار الحق ، ولم يعتبروا بهذه الأمثال.

ثم : مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ .

دبَّروا الكيد لمساندة الباطل ، ومقاومة الحق ، واستفرغوا فى ذلك كل جهدهم .

وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ .

وفى علم الله تعالى جزاء مكرهم الذى فعلوه ، وسيكون العقاب من جنس العمل .

وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ .

إن هنا نافية بمعنى : ما ، وفى قراءة ابن مسعود : وما كان مكرهم لِتزول منه الجبال .

أى : إن مكرهم مهما عظم واشتدّ ؛ لم يكن أهلا لإزالة الآيات والنبوات الثابتة ثبات الجبال ، فالباطل مهما عظم إلى زوال ، والحق مهما قل أتباعه باق بقاء الجبال ، وهذا هو رأى الجمهور ، ومقصوده : الاستخفاف بمكر الظالمين ، وبيان : أن ما يضمرونه ليس خافيا على الله ، ولن يزلزل المؤمنين فى عقيدتهم ؛ لأن إيمانهم كالجبال الرواسى فى ثباته ورسوخه .

وذهب الكسائى[١١١] إلى أن المراد من هذه الجملة الكريمة : التعظم والتهويل من شأن مكرهم ، أى : وإن كان مكرهم يبلغ فى الكيد إلى إزالة الجبال ؛ فإن الله ينصر دينه .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . (مريم: ٨٨–٩٢).

★ ★ ★

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

بـــــــــرزوا : خرجوا من قبورهم .

مـــقـــــرنين : المقرَّنون : المجموعون بعضهم مع بعض فى قَرَن ، وهو : الحبل الذى يربط به .

الأصـــــفـــــاد : القيود والأغلال وهو جمع صفد أو صَفَدٌ : قيد يوضع فى الرِّجل .والغُلّ : قيد تضم به اليد إلى العنق ، وقد يقصر على العنق .

ســرابــيــلــهــم : جمع سربال ، وهو : القميص .

قـــطـــران : القطران : سائل أسود تطلى به الإبل الجربى .

تغشى وجوههم النار : تعلوها وتحيط بها .

التفسير :

٤٧ – فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ...

الخطاب هنا للرسول ﷺ ، أو لكل من يتأتّى منه الخطاب .

أى : لا تظنن أيها الرسول الكريم أنت وأمتك ، أن الله تعالى سيخلف ما وعدكم به ، من نصر المؤمنين على أعدائهم ؛ فإن وعد الله حق وصدق ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ . (آل عمران: ٩) ، فقد قال سبحانه : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ . (غافر: ٥١) ، وقال عز شأنه : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة: ٢١) .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ .

إنه سبحانه غالب قاهر ، لا يمتنع منه من أراد عقوبته ، قادر على كل من طلبه ، لا يفوته بالهرب منه ، وهو ذو انتقام ، ممن كفر برسله وكذبهم ، وجحد نبوّتهم ، وهذه الفقرة بمثابة التعليل للفقرة السابقة ، أى : ما دام هو قادر قاهر ، فإخلاف الوعد منتف فى حقّه تعالى .

٤٨ – يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ...

تصف الآيات كما ترى مشهدًا من مشاهد القيامة ؛ حيث تبدّل الأرض غير الأرض ، فيحشر الناس على أرض تغيرت صفاتها ، فسيّرت جبالها ، وفجرت بحارها ، ولا يرى فيها عوجًا ولا ارتفاعا ولا انخفاضا ، بل هى أرض منبسطة ممتدة ، مستوية معتدلة ؛ كأنما خلقت خلقا جديدا من أجل المحشر .

قال تعالى : وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . (الانشقاق : ٣–٥) .

(واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات ، وقد يكون فى الصفات ، والآية ليست نصًّا فى أحد الوجهين ، والله أعلم كيف يتم هذا التبديل)[١١٢] .

والسماوات ستتبدل ، وتنشق السماء على غلظها ، وتتعلق الملائكة بأرجائها ، والشمس تفقد جانبا من توهجها ، وتصبح من النجوم القزمة ، وكذلك النجوم تنكدر ويذهب ضوؤها ، وتتغير السماوات والأفلاك والأبراج والنجوم ، بمخلوقات أخرى مناسبة للحياة الآخرة .

وفى آيات كثيرة وردت فى القرآن تفيد : أن هذا الكون كانت له بداية ، حيث خلقه الله من عدم ، وبعد ملايين السنين صار صالحا للحياة ، وتكونت الشمس والأقمار والنجوم والمجرات ، ووجد هذا الكون البديع المتكامل ، الصالح للحياة ، بحيث تمطر السماء ، وتنبت الأرض ، ويسخّر السحاب والفضاء ، والشمس والقمر ، والهواء والرياح والبحار والأنهار ، لإعمار الكون والحياة .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان: ٢٥) .

وفى سورة التكوير يقول سبحانه : إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ . (الآيات : ١-٣) .

وفى سورة الانفطار يقول سبحانه : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ . (الانفطار: ١-٥) .

أى : أن هذا الكون سيتغير ويتبدل بقدرة الله ، كما أنه أوجد بقدرة الله ، وصار صالحا للحياة بمشيئته وأمره، فانشقت السماء بالمطر ، وانشقت الأرض بالنبات ، وتكاملت دورة إعمار الكون بالجبال ، والبحار ، والأنهار ، والليل ، والنهار ، قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا[١١٣] وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (الأنبياء: ٣٠-٣٣) .

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .

أى : خرجت الناس جميعا من قبورها ، وبرزت وظهرت بأعمالها ؛ للوقوف بين يدى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، مالك يوم الدين ، الذى قهر كل شىء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ، ولا مستجار سواه .

٤٩ - وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ .

كان الحديث فى الفقرة السابقة بصيغة الماضى ، وهنا تغير الحديث إلى المضارع ؛ ليعرض الموقف شاخصا أمام المشاهد ، كأنه حاضر الآن أمام عينيه .

إن القيامة تكون على رءوس الخلائق ، وطالما تجبّر الظالمون فى هذه الدنيا ، وأساءوا معاملة المؤمنين ، وها هم يحشرون يوم القيامة والذل والعار على وجوههم ، ويشاهدهم جميع الخلائق ، مُّقَرَّنِينَ . أى : يقرن بعضهم إلى بعض فى القيود ، ويضم كلٌّ إلى مشاركه فى كفره وعمله ؛ فيضمّ عابد الوثن إلى عابد الوثن ، ويضم شارب الخمر إلى شارب الخمر .

فِى ٱلْأَصْفَادِ . فى الأغلال والقيود ، التى يوضع فيها المجرمون والسجناء فى هذه الدنيا .

٥٠ - سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ...

تكمل هذه الآية رسم صورة للظالمين ، فثيابهم أو قمصهم من قطران ، وهو سائل حار أسود اللون ، منتن الرائحة ، يساعد على سرعة اشتعال النار ، تطلى به الإبل الجربى ، فيحرق القطران الجرب ، كما تطلى به جلود أهل النار ، حتى يكون عليهم كالسرابيل ؛ ليذوقوا أشد العذاب وأقساه ، بنار سريعة الاشتعال ، تجعل أجسامهم سوداء داكنة فيجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع اشتعال النار فى الجلود ، واللون الأسود الموحش ، ونتن الريح .

وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ .

إن وجوههم تعلوها النار ، التى تلهب وجوههم وتحيط بها ، كما تحيط بأجسادهم المسربلة بالقطران ، وتخصيص الوجوه بالذكر ؛ لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله تعالى : أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ . (الزمر:٢٤)، وقوله سبحانه : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ . (القمر: ٤٨) .

القطران والجرب

اجتمع الفرزدق وجرير والأخطل فقالوا : ليأت كل واحد منا ببيت من الشعر لا يستطيع الآخر نقضه .

فقال أولُهم :

أنا القطران والشعراء جربى　　وفى القطران للجربى شفاء

فقال الثانى :

فـــإن تـــك زقّ زاملـــة فإنى أنا الطاعون ليس له دواء

فقال الثالث :

أنـا الموت الـذى يـأتـى عـليـكـم فـلـيـس لـهـارب مـنّـى نجاء

٥١- لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ...

تأتى هذه الآية فى أعقاب معاقبة الظالمين ؛ فمنهم مقرنون فى الأغلال ، ثيابهم من قطران ، وتلفح النار وجوههم ، وتحرق أسماعهم وأبصارهم ، ومجمع الحواس منهم .

وهنا يقول الحق سبحانه : لقد فعلت بهم ذلك ؛ جزاءً وفاقا بما كسبوا فى الدنيا من الآثام ، ولتكون الآخرة دار جزاء يكافأ المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسىء بإساءته .

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . فيحاسب جميع الناس فى وقت واحد ، كما يرزقهم فى وقت واحد ؛ فهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يحتاج إلى تأمل وتدبّر فى إصدار حكمه ، بل يتمّه فى أعجل وأسرع زمن .

٥٢- هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ .

تأتى هذه الآية فى ختام سورة إبراهيم ، التى تحدثت عن رسالة الرسل وموقفهم من المنكرين ، ورسمت صورة مؤلمة للظالمين ، وختمت السورة بهذه الآية ، وفيها رنين وإيقاع متميز ، يوضح أهداف الرسالات السماوية، فى سورة إبراهيم ، أو فى القرآن الكريم ، فهذه السورة بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ، أى : تبليغ ودعوة وإعلام بهذا الكتاب ، كما قال سبحانه : يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . (المائدة: ٦٧) .

وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ .

أى : ليكون نذيرا للظالمين ، وتنبيها للكافرين ؛ ليتأملوا ما أصاب الأمم السابقة فى الدنيا ، وما يصيب الظالمين يوم القيامة .

وفى هذا المعنى يقول تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ... (الكهف: ١، ٢) .

وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ .

ليعلم الناس أن خالق هذا الكون البديع المنظم ، إنما هو إله واحد لا شريك له ، ولا ندَّ له ، ولا مثيل ، ولو كان معه آلهة أخرى ؛ لاختلَّ نظام الكون واضطرب .

قال تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا . (الأنبياء: ٢٢) .

وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ ٱلْأَلْبَابِ .

أى : ليتعظ ويستفد من هذا الكتاب أصحاب العقول الفاقهة ، والقلوب المتفتحة ؛ فإنما يستفيد بالرسالات والكتب السماوية أصحاب العقول ، والقلوب التى تفتحت وآمنت ، وتزودت بالعلم والتقوى .

قال الإمام الرازى : هذه الآية دالة على : أنه لا فضيلة للإنسان إلا بسبب عقله ؛ فقد بين القرآن : أن الله إنما أنزل هذه الكتب وإنما بعث الرسل ؛ لتذكير أولى الألباب ...[١١٤] .

فى ختام سورة إبراهيم

تلك سورة إبراهيم الخليل التى اشتملت على ما يأتى :

(أ) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسماوات والأرض .

(ب) بيان : أن الرسل إنما يرسلون بلغات قومهم ؛ ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهى .

(ج) التذكير بأيام الله ؛ ببيان : ما حدث للرسل مع أقوامهم ؛ تسلية للرسول الأمين ، وتحذيرًا لجميع الكافرين والمشركين .

(د) وعيد الكافرين بالعذاب ، ووعد المؤمنين بجنات النعيم .

(هـ) دعوة إبراهيم إلى التوحيد ونبذ الأصنام ، ثم شكره على ما وهبه الله من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(و) رسمت صورة للظالمين ، وما يلقونه من النكال والعذاب ، وأفلحت السورة فى عرض المشهد ماثلا أمام العيان.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، تم تفسير سورة إبرهيم ، بجامعة السلطان قابوس ، بسلطنة عمان – مسقط ، فى مساء يوم الأربعاء الأول من شهر رمضان المبارك عام ١٤١٥ هـ / الموافق الأول من فبراير ١٩٩٥ م .

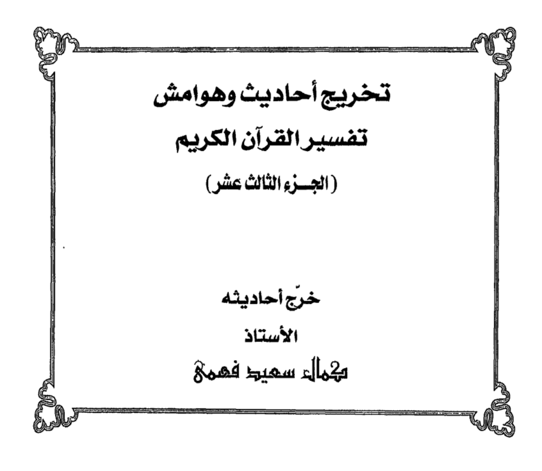
والحمد لله حمدًا كثيرا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويحب .

اللهم ، تقبل أعمالنا وصلاتنا وصيامنا ، واجعل عملنا خالصا لوجهك الكريم ، وألهمنا التوفيق والقبول ، وأعنّا على أعمالنا ، ويسر لنا إتمام تفسير القرآن الكريم ، بفضلك ومنّك وتوفيقك وعونك يا رب العالمين.

وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود: ٨٨) .

وصل اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجــزء الثالث عشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) يا عبد الرحمان بن سمرة ، لا تسأل الإمارة :

رواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٢٢) وفى كفارات الأيمان (٦٧٢٢) وفى الأحكام (٧١٤٦، ٧١٤٧) ومسلم فى الأيمان (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمان بن سمرة قال : قال النبى ﷺ : «يا عبد الرحمان بن سمرة ، لا تسأل الإمارة ؛ فإنك إن أوتيتها عن مسألة ؛ وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة : أعنت عليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها؛ فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير » .

(٢) ﴿ ما ﴾ هنا استفهامية ، الاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر .

(٣) العين حق :

رواه البخارى فى الطب (٥٧٤٠) وفى اللباس (٥٩٤٤) ومسلم فى السلام (٢١٨٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال : « العين حق » ، ونهى عن الوشم ، وفى الباب : عن عائشة وابن عباس .

(٤) العين تدخل الرجل القبر :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج أبو نعيم فى الحلية : عن جابر : أن النبى ﷺ قال : « العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر».

(٥) أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧١) وأبو داود فى السنة (٤٧٣٧) والترمذى فى الطب (٢٠٦٠) وابن ماجة فى الطب (٣٥٢٥) وأحمد فى مسنده (٢١١٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ».

(٦) ويقول : إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل :

تقدم فيما قبله .

(٧) التفسير الوسيط ، د. محمد سيد طنطاوى ، سورة يوسف ص ١٢٠ ، ١٢١ ، وزبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٣ .

(٨) تفسير أبى السعود ٢٩٤/٤ .

(٩) انظر : زبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٤ .

(١٠) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ، والسبع المثانى للآلوسى ٢٨/١٣ .

(١١) سعيد حوّى ، الأساس فى التفسير ، دار السلام للطباعة والنشر ، القاهرة وبيروت ٢٦٨٠/٥ .

(١٢) تفسير أبى السعود ٢٩٨/٤ .

(١٣) انظر : تفسير الثعالبى ، وتفسير القاسمى .

(١٤) زبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٥ .

(١٥) إن العين تدمع والقلب يحزن :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٠٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين ، وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام ، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا

عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : وأنت يارسول الله ! فقال : « يا ابن عوف إنها رحمة » ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال ﷺ : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

(١٦) تفسير روح المعانى للآلوسى ٤٠/٥ ، وورد المعنى فى تفسير القرطبى ، والتفسير المنير ، والتفسير الوسيط .

(١٧) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب ٢٥ ص ٣٧٤ .

(١٨) تفسير أبى السعود ٣٠٣/٤ ، وزبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٦ .

(١٩) تفسير الكشاف للزمخشرى .

(٢٠) تفسير أبى السعود ٣٠٥/٤ .

(٢١) تفسير المراغى ٢٩/١٣ .

(٢٢) من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح ؛ أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات ؛ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

(٢٣) الكريم ابن الكريم :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وفى التفسير (٤٦٨٨) وأحمد فى مسنده (٥٦٧٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » ، ورواه الترمذى فى التفسير (٣١١٦) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » قال : « ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ثم جاءنى الرسول ؛ أجبت » ثم قرأ : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ ، قال : « ورحمة الله على لوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إذ قال : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ ، فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه » . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٢٤) أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨٦) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال : سألت النبى ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ، قال : « وأن تقتل ولدك ؛ تخاف أن يطعم معك » قلت : ثم أى ، قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، البخارى (٣٢٣٩) .

(٢٥) انظر أيضا : تفسير المراغى للأستاذ / أحمد مصطفى المراغى ٤٩/١٣ ، ٥٠ .

(٢٦) تفسير القاسمى ٢٩٧/٩ .

(٢٧) روح المعانى للآلوسى ٦٨/١٣ ، وفيه من أهل العمور ، وهو خطأ ، والصواب : من أهل العمود ، أى : الخيمة التى تبنى على العمود الرئيس الذى يرفع الخيمة .

(٢٨) التفسير القرآني للقرآن ، للأستاذ / عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٦٠ .

(٢٩) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/ ٢٩٦ .

(٣٠) إن الله تجاوز لأمتي :

رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ، وابن ماجة في الطلاق (٢٠٤٠، ٢٠٤٤) (٧٤٢١) ، من حديث أبي هريرة يرفعه قال : إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ؛ ما لم تعمل به أو تكلم .

(٣١) نحن أحق بالشك من إبراهيم :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢) ، وفي التفسير (٤٥٣٧، ٤٦٩٤) ، ومسلم في الإيمان (١٥١) ، وأحمد في مسنده (٨١٢٩) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ » .

(٣٢) تفسير روح المعاني للآلوسي ١٣/ ٧٠ .

(٣٣) تفسير روح المعاني للآلوسي ١٣/ ٧٠ ، والائتساء : جعلهم أسوة وقدوة .

(٣٤) تفسير القاسمي ٩/ ٢٩٩ .

(٣٥) ما يصيب المسلم ، من نصب ، ولا وصب ، ولا هم :

رواه البخاري في المرضى باب : ما جاء في كفارة المرضى (٥٣١٨) ، عن أبي سعيد الخدري ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم ، من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياه » . ورواه البخاري فيما تقدم (٥٣١٧) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم ؛ إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها » .

(٣٦) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بوّب به البخاري في كتاب المرضى ، ورواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجة في الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠، والدارمي في الرقاق ح ٢٧٨٣، من حديث سعد بن أبي وقاص ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٣٧) إنما الصبر عند الصدمة الأولى :

رواه البخاري في الجنائز (١٢٨٣ ، ١٣٠٢) ، ومسلم في الجنائز (٩٢٦) ، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٤) ، والترمذي في الجنائز (٩٨٧ ، ٩٨٨) ، والنسائي في الجنائز (١٨٦٩) ، وابن ماجة في الجنائز (١٥٩٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٨٦٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺبامرأة تبكي عند قبر ، فقال : « اتقي الله واصبري ، قالت : إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ! ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه النبي ﷺ ! فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك ! فقال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

(٣٨) الأساس في التفسير للأستاذ / سعيد حوى ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ص ب ١٦١ ، غورية ت ٩٣٥٦٤٤، المجلد الخامس ص ٢٧١١، نقلا عن تفسير : في ظلال القرآن .

(٣٩) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٨ .

(٤٠) من كتاب أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم / د. عبد الله شحاتة ١/ ١٥٠ .

(٤١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٢-٢٦٨ .

(٤٢) الميزان في تفسير القرآن مجلد ١١ جزء ١٣ صفحة ٣٢٢ .

(٤٣) تفسير الكشاف ٢/ ٥١٣ .

(٤٤) تفسير الطبرى جزء ١٦ حققه وخرج أحاديثه : محمود محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١١١٩ ، كورنيش النيل - القاهرة ، ص٣٥٢.

(٤٥) قارن بما ورد في تفسير القاسمى لهذه الآية .

(٤٦) إن لله ما أخذ وله ما أعطى :

رواه البخارى فى الجنائز (١٢٨٤) ، وفى المرضى (٥٦٥٥) ، وفى الأيمان (٦٦٥٥) ، وفى التوحيد (٧٣٧٧،٧٤٤٨) ، ومسلم فى الجنائز (٩٢٣) وأبو داود فى الجنائز (٣١٢٥) ، والنسائى فى الجنائز (١٨٦٨) ، وابن ماجة فى الجنائز (١٥٨٨) (٢١٢٦٩) ، من حديث أسامة بن زيد قال : أرسلت ابنة النبى ﷺ إليه : أن ابنا لى قبض فأتنا فأرسل : يقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تتقعقع قال : حسبته أنه قال : كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد : يا رسول الله ، ما هذا ؟! فقال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

(٤٧) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ص ٣٢٢ .

(٤٨) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح ٥٥٥ ، وفى التوحيد ح ٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٣٢ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٥ ، وأحمد ح ٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦ ، مالك النداء للصلاة ح ٤١٣، من حديث أبى هريرة بلفظ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » ورواه البخارى فى الأذان ح ٦٤٩ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧١٧، ومسلم فى المساجد ح ٦٤٩، والترمذى فى التفسير ح ٣١٣٥ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٦ ، وابن ماجة فى الصلاة ح ٦٧٠ ، وأحمد ح ٧١٤٥، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣ ، من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل ، و ملائكة النهار فى صلاة الصبح يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا ﴾ .

(٤٩) إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه :

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨) ، والترمذى فى الفتن (٣١٦٨) ، وأحمد فى مسنده (٣٠ ، ٣١) ، من حديث قيس قال : قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، قال : عن خالد : وإنا سمعنا النبى ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

(٥٠) مختصر تفسير ابن كثير - تحقيق محمد على الصابونى ٢/ ٢٧٤.

(٥١) اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٤٥٠) ، وأحمد فى مسنده (٥٧٢٩) ، من حديث عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ كان إذا

سمع صوت الرعد والصواعق ؛ قال : « اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٥٢) سبحان الذى يسبح الرعد بحمده :

رواه مالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٨٦٩) ، قال : حدثنى مالك : عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد؛ ترك الحديث ، وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد .

(٥٣) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم للدكتور / عبد الله شحاتة - طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦، ص ١٥٥ .

(٥٤) إن السماء أطت وحق لها أن تئط :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣١٢) ، وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) ، وأحمد فى مسنده (٢١٠٠٥) ، من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، إن السماء أطت ، وحق لها أن تئط ؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم ؛ لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله ، والله لوددت أنى كنت شجرة تعضد » ، وقال الترمذى : حسن غريب .

(٥٥) روى هذه القصة الحافظ الطبرانى : عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا . اهـ . نقلا عن مختصر تفسير ابن كثير- تحقيق محمد على الصابونى ٢/٢٧٥.

(٥٦) تفسير الميزان للسيد / محمد حسين الطباطبائى ١١/٣٥٠ بتصرف .

(٥٧) فى ظلال القرآن - جزء ١٣ صفحة (٢٠٥٢) .

(٥٨) انظر : فتح القدير للشوكانى .

(٥٩) مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم :

رواه البخارى فى العلم (٧٩) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٢) ، وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨٢) من حديث أبى موسى : عن النبى ﷺ قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ، قال : أبو عبد الله ، قال : إسحاق وكان منها طائفة قبلت الماء قاع يعلوه الماء والصفصف المستوى من الأرض .

(٦٠) اضمنوا لى ستا من أنفسكم :

رواه أحمد ح ٢٢٢٥١، من حديث عبادة بن الصامت .

(٦١) آية المنافق ثلاث :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٣٣ ، وفى الشهادات ح ٢٦٢٨ ، وفى الوصايا ح ٢٧٤٩ ، وفى الأدب ح ٦٠٩٥ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٩، ٧٤ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦٣١ . وقال : حسن صحيح .

(٦٢) من سره أن يبسط له فى رزقه :

البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) ، ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٧/٢٠) ، وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٣) ، كلهم عن أنس .

(٦٣) هل تدرون أول من يدخل الجنة :

رواه أحمد فى مسنده (٦٥٣٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ؛ فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ! قال: إنهم كانوا عبادا يعبدونى لا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

(٦٤) مالى وللدنيا :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٤٨٣) ، وابن ماجة (٤١٠٩) ، وأحمد (٢٧٣٩، ٣٧٠١ ، ٤١٩٦) من حديث عبد الله بن مسعود، وقال الترمذى . هذا حديث صحيح . وذكره السيوطى فى "الدر المنثور" ، وزاد نسبته لابن أبى شيبة والحاكم : عن ابن مسعود رضى الله عنه · أن النبى ﷺ نام على حصير فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك ؟ ، فقال : « مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدينا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها » . وذكره العجلونى فى " كشف الخفا " ، وزاد نسبته للطبرانى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود . وللطبرانى وابن حبان والحاكم والبيهقى عن ابن عباس . وذكره الهيثمى من حديث ابن عباس وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة .

(٦٥) فيها ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣٢٤٤ ، وفى التفسير ح ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٩٨ ، ومسلم فى الجنة ح ٢٨٢٤، والترمذى فى التفسير ح ٣١٩٧، ٣٢٩٢، وابن ماجة فى الزهد ح ٤٣٢٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٨٢٨ ، من حديث أبى هريرة .

(٦٦) اكتب : باسمك اللهم :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٤) ، من حديث المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش.. وفيه · فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات أكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبى ﷺ الكتاب فقال النبى ﷺ : « بسم الله الرحمان الرحيم » ، قال سهيل : أما الرحمان فو الله ما أدرى ما هو لكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب ؛ فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فقال النبى ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ، ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب . محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ : « والله إنى لرسول الله ، وإن كذبتمونى ، اكتب : محمد بن عبد الله .. » فذكر الحديث – وهو طويل المتن – ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٨٤) ، وأحمد فى مسنده (١٣٤١٥) ، أنس أن قريشا صالحوا النبى ﷺ فيهم سهيل بن عمرو فقال النبى ﷺ لعلى : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، قال سهيل : أما باسم الله ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم ، فقال : « اكتب : من محمد رسول الله » ، قالوا : لو علمنا أنك رسول

الله لاتبعناك ، ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك ، فقال النبى ﷺ : « اكتب : من محمد بن عبد الله » ، فاشترطوا على النبى ﷺ : أن من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا ، قال : « نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » .

(٦٧) انظر : تفسير ابن جرير الطبرى ٤٤٧/١٦ ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، آثار ٢٠٣٩٩، وما بعدها .

(٦٨) ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٤٩٨١) ، وفى الاعتصام (٧٢٧٤) ، ومسلم فى الإيمان (١٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٨٢٨٦)، من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

(٦٩) تفسير الطبرى ٤٥٥/١٦، تحقيق : محمود محمد شاكر مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ .

(٧٠) تفسير الطبرى ٤٦١/١٦ ، تحقيق : محمود شاكر ، مطابع دار المعارف بمصر .

(٧١) إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخارى فى التفسير باب : قوله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ، (٤٤٠٩) ، ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) ، وابن ماجة فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) ، عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . قال : ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٧٢) جملة : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ خبر عن ﴿ مَثَلُ ﴾ وجملة : ﴿ أكلها دائم ﴾ خبر ثان .

(٧٣) فمن رغب عن سنتى :

رواه البخارى فى النكاح (٤٦٥٧) ، من حديث أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت .. الحديث – وفيه : « أما والله إن لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى : فليس منى » ورواه البخارى فى النكاح (٥٠٦٣) ومسلم فى النكاح (١٤٠١/٥) ، والنسائى فى النكاح (٣٢١٧) ، وأحمد (١٣١٢٢ ، ١٣٣١٦ ، ١٣٦٣١) ، ورواه ابن ماجة فى النكاح (١٨٤٦) بلفظ : « النكاح من سنتى فمن لم يعمل بسنتى ؛ فليس منى .. الحديث» . كلهم من حديث أنس . ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) ، عن مجاهد عن رجل من الأنصار ورواه الدارمى فى النكاح (٢١٦٩) ، من حديث سعد بن أبى وقاص .

(٧٤) تفسير أبى السعود ٢٧/٥ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت – لبنان .

(٧٥) من ذلك ما ورد من الوصايا العشر فى سورة الأنعام ، وفيها يقول الحق سبحانه : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ . (الأنعام: ١٥١،١٥٢) .

(٧٦) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من علماء الأزهر ص ٤٥٣ .

(٧٧) جف القلم بما أنت لاق :

رواه البخارى فى النكاح (٥٠٧٦)، وذكره فى القدر باب : جف القلم على علم الله – معلقًا – والنسائى فى النكاح (٣٢١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت . يا رسول الله ، إنى رجل شاب وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء فسكت عنى ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى ثم قلت مثل ذلك ؛ فقال النبى ﷺ . « يا أبا هريرة ، جف القلم بما أنت لاق ؛ فاختص على ذلك أو ذر » .

(٧٨) أهداف كل سورة ، د/ عبد الله شحاتة .

(٧٩) لم يبعث الله نبيا إلا بلغة قومه :

رواه أحمد فى مسنده (٢٠٩٠١) من حديث أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله نبيا إلا بلغة قومه » .

(٨٠) عجبا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

(٨١) من أعطى الشكر لم يمنع الزيادة :

قال الهيثمى فى المجمع : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : من أعطى أربعا ؛ أعطى أربعا ، وتفسير ذلك فى كتاب الله تعالى ؛ من أعطى الذكر ؛ ذكره الله عز وجل ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ ، ومن أعطى الدعاء ؛ أعطى الإجابة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ ، ومن أعطى الشكر ؛ أعطى الزيادة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **لأن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ ، ومن أعطى الاستغفار ؛ أعطى المغفرة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفارا** ﴾ » ، وقال: رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه : محمود بن العباس وهو ضعيف ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور وزاد نسبته لابن مردوية والبيهقى فى شعب الإيمان : عن ابن مسعود . وقال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى زهير يحيى بن عطارد بن مصعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أعطى أحد أربعة فمنع أربعة ، ما أعطى أحد الشكر فمنع الزيادة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ ، وما أعطى أحد الدعاء فمنع الإجابة؛ لأن الله يقول : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ ، وما أعطى أحد الاستغفار فمنع المغفرة ؛ لأن الله يقول : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفارا** ﴾ ، وما أعطى أحد التوبة فمنع التقبل ؛ لأن الله يقول : ﴿ **هو الذى يقبل التوبة عن عباده** ﴾ ، قال السيوطى فى الدر المنثور أيضا : وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله: « أربع من أعطيهن ؛ لم يمنع من الله أربعا : من أعطى الدعاء ؛ لم يمنع الإجابة ، قال الله ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ ، ومن أعطى الاستغفار : لم يمنع المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفارا** ﴾ ، ومن أعطى الشكر ؛ لم يمنع الزيادة، قال الله : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ ، ومن أعطى التوبة : لم يمنع القبول ، قال الله : ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات** ﴾ .

(٨٢) إن العبد ليحرم الرزق بالذنب :

رواه ابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٢) ، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٨٠، ٢٨٢) .

(٨٣) لو أن أولكم وآخركم :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) ، وابن ماجة ح (٤٢٧٥) ، وأحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧) ، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢) ، من حديث أبى ذر . وأوله : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى».

(٨٤) من آذى جاره ؛ أورثه الله داره :

قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٣٤٢) : كذا رأيته في كلام بعض من جمع في الحديث ممن لايعرف ، لكن بلفظ ورثه بتشديد الراء ، فلينظر حاله ، ثم رأيت النجم قال : أورده في الكشاف ، ولعله مثل سائر وليس بحديث ومأخذه في كتاب الله من قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ .

(٨٥) تفسير ابن كثير ٥٢٦/٢ ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

(٨٦) أَخمَص القدم : ما تجافى عن الأرض وهو بوزن (أَحْمَد) .

(٨٧) إن أهون أهل النار عذابا :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦١، ٦٥٦٢) ، ومسلم في الإيمان (٢١٣) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٤) وأحمد في مسنده (١٧٩٢٣) من حديث النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه ، كما يغلى المرجل ، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا ، وإنه لأهونهم عذابا » .

(٨٨) ﴿ مثل ﴾ مبتدأ ، و ﴿ أعمالهم ﴾ مبتدأ ثان ، و ﴿كرماد ﴾ خبر المبتدأ لثاني .

(٨٩) يقصد العباس بقوله : ما أغنيت عن عمك أبا طالب ، ومعنى : يحوطك : يصونك من المشركين بالدفاع عنك .

ضحضاح النار : النار القليلة جدًّا بالنسبة إلى غيره من أصحاب النار .

الدرك الأسفل : أقصى قاع جهنم .

(٩٠) انظر : تفسير المنار الفهرس الأبجدي لعذاب النار ، وتفسير الآلوسي للآية ٧ ، ٨ ، من سورة الزلزلة ، والتفسير الوسيط ، تأليف لجنة من علماء الأزهر ، سورة إبراهيم ص ٤٨١ .

(٩١) يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، ومسلم في الجنة (٢٨٥٩) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٣) ، وابن ماجة في الزهد (٤٢٨٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٧٤٤) ، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة ، فقلت : يا رسول الله ؛ الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ! فقال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذاك ».
ورواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم في الجنة (٢٨٦٠) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣) ، وفي تفسير القرآن (٣٣٣٢) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٨١) ، والدارمي في الرقاق (٢٨٠٢) ، وأحمد في مسنده (١٩١٦، ٢٠٩٧) ، من حديث ابن عباس : عن النبي ﷺ قال : « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا - ثم قرأ - : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم ، وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي أصحابي! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني ... إلى قوله : العزيز الحكيم ﴾ ، ورواه الدارمي في الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود : عن النبي ﷺ قيل له : ما المقام المحمود ؟ قال : « ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه يئط كما يئط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بكم حفاة عراة غرلا ، فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى : اكسوا خليلي فيؤتى بربطتين بيضاوين من رياط الجنة ، ثم أكسى على إثره ، ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطني الأولون والآخرون » .

(٩٢) انظر : تفسير ابن كثير .

(٩٣) د. محمد سيد طنطاوى ، تفسير سورة إبراهيم ص ٥٦ نقلا عن تفسير الفخر الرازى .

(٩٤) لن يدخل أحدا عمله الجنة ؛ قالوا : ولا أنت ؟! :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لن يدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ؛ فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب » .

(٩٥) انظر : تفسير الطبرى ، وفيه ما ورد فى البخارى : أن المؤمن يثبّت على شهادة : ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

(٩٦) قال : المسلم إذا سئل فى القبر ؛ يشهد :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٦٩) ، وفى التفسير (٤٦٩٩) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٧١) ، من حديث البراء بن عازب : أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر ؛ يشهد : أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ » .

(٩٧) إن العبد إذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٣٨، ١٣٧٤) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٧٠) ، وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣١) ، وفى السنة (٤٧٥١)، والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٩) ، وأحمد فى مسنده (١١٨٦٢) ، من حديث أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال: « العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه ، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد – ﷺ – ، فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار ؛ أبدلك الله به مقعدا من الجنة ! » ، قال النبى ﷺ : فيراهما جميعا ، وأما الكافر ، أو المنافق فيقول : لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت ! ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » ، وأحمد فى مسنده (٨٣٥٨) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا ». ورواه أبو داود فى السنة (٤٧٥٣) من حديث البراء .

(٩٨) الثقلان هما : الإنس والجن ، والحكمة فى عدم سماعهما : الامتحان ، والابتلاء ، والإمهال ؛ حتى تجزى كل نفس بما تسعى .

(٩٩) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت ، ص ٣٣٤ .

(١٠٠) ﴿ جهنم ﴾ عطف بيان لدار البوار ، ﴿ يصلونها ﴾ : فى محل نصب حال من جهنم .

(١٠١) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى .

(١٠٢) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ص ٣٣٥ .

(١٠٣) انظر : التفسير الوسيط ، تأليف نخبة من علماء الأزهر ص ٥٠٠ .

(١٠٤) ﴿ إذ ﴾ : ظرف لما مضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف تقديره : اذكر .

﴿ رب ﴾ : منادى بحرف نداء محذوف تقديره : يا رب .

(١٠٥) وردت هذه القصة مطولة فى صحيح البخارى ، ووعتها كتب التفسير والحديث .

(١٠٦) صلاة في مسجدى هذا :

البخارى فى فضل الصلاة (١١٩٠) ، ومسلم فى الحج (١٣٩٤/٥٠٦) ، والترمذى فى الصلاة (٣٢٥) ، وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى المساجد (٦٩٤) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٤٠٤) ، كلهم عن أبى هريرة .

(١٠٧) انظر : صحيح البخارى ؛ تجد فيه حديثا طويلا فى الموضوع ، وانظر : تفسير الآلوسى ، والتفسير الوسيط .

(١٠٨) انظر : تفسير الفخر الرازى .

(١٠٩) التفسير الوسيط ، سورة إبراهيم د. محمد سيد طنطاوى ، ص ٩٣ .

(١١٠) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء بالأزهر ص ٥١١ .

(١١١) قرأ الكسائى : لَتَزولُ : بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها ، و﴿ أن ﴾ : مخففة من الثقيلة .

(١١٢) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء ، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ٥١٣ .

(١١٣) الرتق ضد الفتق ، أى : كانتا ملتصقتين ففتق الله هذه من هذه ، فرفع الله السماء ، ووضع الأرض وفصل بينهما بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض .

(١١٤) التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى ، نقلا عن تفسير الفخر الرازى للآية الآخيرة من سورة إبراهيم .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (الثالث عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله تفسير الجزء الثالث عشر

ويليه تفسير الجزء الرابع عشر إن شاء الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته





تفسير سورة الحجر

نظرات فى سورة الحجر

سورة الحجر سورة مكية ، ومحور هذه السورة الأول هو : إبراز المصير المخيف الذى ينتظر الكافرين المكذبين .

وحول هذا المحور يدور السياق فى عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل ، سواء فى ذلك القصة ، ومشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التى تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام ، فإن جو هذه السورة – سورة الحجر – يذكر بجو سورة الأعراف .

لقد كان ابتداء سورة الأعراف بالإنذار ، ثم ورد فيها قصة آدم وإبليس ، ويلى القصة عرض لبعض مشاهد الكون ، فى السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والرياح ، والسحاب ، ويلى ذلك قصص : قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى .

وهنا فى سورة الحجر يجىء الإنذار كذلك فى مطلعها ، ولكن ملفعا بظل من التهويل حين يقول :

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ . (الحجر: ٣–٥).

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء ، وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة ، والرواسى الراسخة ، والنبت الموزون ، والرياح اللواقح ، والماء والسقيا ، والحياة والموت ، والحشر للجميع ، يلى ذلك: قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ، ومصير المؤمنين .. ومن ثم لمحات من قصة إبراهيم ، ولوط، وشعيب ، وصالح ، منظور فيها إلى مصائر المكذبين .

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى عدة جولات أو عدة مقاطع يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا :

تتضمن الجولة الأولى: بيان: سنة الله التى لا تتخلف فى الرسالة والإيمان بها والتكذيب ، مبدوءة بذلك الإنذار الضمنى الملفع بالتهويل : ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الحجر: ٣) .

ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص فى دلائل الإيمان ، وأنهم جميعًا من طراز واحد .

لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلأَوَّلِينَ . (الحجر: ١٣) .

وتعرض الجولة الثانية : بعض آيات الله فى الكون ، فى السماء وفى الأرض ، وما بينهما ، وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر ، وإلى الله مرجع كل شىء وكل أحد فى الوقت المقدر المعلوم حيث يقول سبحانه :

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . (الحجر: ٢١) .

وتعرض الجولة الثالثة : قصة البشرية وأصل الهدى والغواية فى تركيبها وأسبابها الأصلية ، ومصير الغاوين فى النهاية والمهتدين ، وذلك فى خلق آدم من صلصال من حمإ مسنون ، والنفخ من روح الله فى هذا الطين ، ثم غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة : فى مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح مبدوءة بقول الله تعالى :

نَبِّئْ عِبَادِىَ أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩، ٥٠) .

ثم يتتابع القصص يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .

أما الجولة الخامسة والأخيرة : فتكشف عن الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض الملتبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول ﷺ ؛ فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله وللبدء والمصير .

الآيات الكونية فى سورة الحجر

عرضت سورة الحجر لألوان المكابرة والعناد التى يلجأ إليها الكافرون ثم انتقلت إلى معرض الآيات الكونية مبدوءا بمشهد السماء فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح بالماء ، فمشهد الحياة والموت فمشهد البعث والحشر ... كل أولئك آيات يكابر فيها المعاندون . قال تعالى :

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ . (الحجر: ١٦-١٨) .

إنه الخط الأول فى اللوحة العريضة ، لوحة الكون العجيب الذى ينطق بآثار اليد المبدعة ، ويشهد بالإعجاز ، ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير . والبروج قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها ، وقد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تنتقل فيها فى مدارها. وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل . قال تعالى :

وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ .

وهى لفتة إلى جمال الكون ، وبخاصة أن تلك السماء ، تشى بأن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون ، فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها ؛ إنما هو الجمال الذى ينظم المظاهر جميعا ، وينشأ من تناسقها جميعا .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء فى الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم توصوص بنورها ثم تبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبى دعوة من نجم بعيد .. ونظرة مثلها فى الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهموم كأنما يمسك أنفاسه ؛ حتى لا يوقظ الحالم السعيد .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك الحقيقة فى الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة .. وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ .

والخط الثانى فى اللوحة العريضة الهائلة هو : خط الأرض الممدودة أمام النظر المبسوطة للخطو والسير، وما فيها من رواس وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء . قال تعالى :

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ . (الحجر: ١٩) .

إن ظل الضخامة واضح فى السياق ، فالإشارة فى الأرض إلى الرواسى ، ويتجسم ثقلها فى التعبير بقوله : وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ

وإلى النبات موصوفا بأنه : مَّوْزُونٍ ، وهى كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها : أن كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقة وإحكام وتقدير.

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس ، فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ، وهذه الرواسى الملقاة على الأرض تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ، ومنه إلى المعايش التى جعلها الله للناس فى هذه الأرض ، وهى الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها ، وهى كثيرة شتى .

وهذه الأرزاق – ككل شىء – مقدرة فى علم الله تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء ، وكما يريد ، فى الوقت الذى يُرِيدُهُ ، حسب سنته التى ارتضاها وأجراها فى الناس والأرازق . قال تعالى :

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . (الحجر: ٢١) .

فما من مخلوق يقدر على شىء أو يملك شيئا ، إنما خزائن كل شىء – مصادره وموارده – عند الله فى علاه ينزله على الخلق فى عوالمهم : بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

فليس من شيء ينزل جزافا وليس من شيء يتم اعتباطا ، بل كل شيء يتم بحكمة العليم الخبير وتقدير السميع البصير : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ . (القمر: ٤٩) .

قصة آدم فى سورة البقرة والأعراف والحجر

ذكرت قصة آدم فى القرآن مرتين من قبل ، فى سورة البقرة ، وفى سورة الأعراف ، ولكن مساقها فى كل مرة كان لأداء غرض خاص فى معرض خاص وفى جو خاص ، ومن ثم اختلفت الحلقات التى تعرض منها فى كل موضع واختلفت طريقة الأداء .

فى سورة البقرة كانت نقطة التركيز هى استخلاف آدم فى الأرض التى خلقها الله للناس جميعا :وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . (البقرة : ٣٠) ، ومن ثم عرض الأسرار فى هذا الاستخلاف ، وبين قدرة الإنسان على الاستنباط والاستنتاج وتمتعه بالإرادة والاختيار ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره ، وسكنى آدم وزوجه الجنة وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها بعد تزويده بهذه التجربة القاسية ، واستغفاره وتوبة الله عليه.

وفى سورة الأعراف ، كانت نقطة التركيز فى السياق هى الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها ، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى ، ففريق منهم يعود إلى الجنة التى أخرج الشيطان أبويهم منها ؛ لأنهم عادوه وخالفوه ، وفريق ينتكس إلى النار؛ لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .. ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة ، وإباء إبليس واستكباره ، ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، وهى رمز المحظور الذى تبتلى به الإرادة والطاعة ، ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه وإهباطهما إلى الأرض جميعا للعمل فى أرض المعركة الكبرى .

فأما هنا فى سورة الحجر فإن نقطة التركيز فى السياق هى سر التكوين فى آدم ، وسر الهدى والضلال، وعواملهما الأصلية فى كيان الإنسان .. ومن ثم نَصٌّ ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمإ مسنون ، ونَفخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافا من السجود لبشر من صلصال من حمإ مسنون ، وطرد إبليس ولعنته وطَلَبه الانتظار إلى يوم البعث وإجابته ، وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين ، إنما سلطانه على من يدينون له ، ولا يدينون لله ، وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء فى غير حوار ولا عرض ولا تفصيل تبعا لنقطة التركيز فى السياق وقد استوفت ببيان عنصرى الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان .

خلـق الإنســان

تفيد الآيات الواردة فى سورة الحجر : أن الإنسان قد خلق من صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . (الحجر: ٢٦) .

والصلصال : هو الطين اليابس الذى يصلصل أى : يصوّت إذا نقر .

والحمأ : هو الطين الذى تغير واسود من طول مجاورة الماء .

والمسنون : هو المصور أو المصبوب ليَيْبس من سنَّه إذا صبَّه ، أى : أن الإنسان مخلوق من طين يابس قد اختلط بالماء وصُور على هيئة الإنسان ، ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشرا سويا .

وتفيد آيات القرآن الأخرى : أن الله خلق آدم من تراب ومن طين ، ومن حمإ مسنون ، ومن طين لازب، ومن صلصال كالفخار ، ومن عَجَلٍ ؛ ومن ماءٍ مهين .

قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره الكبير :

ويجمع بين هذه الآيات على أنها دليل على تدرج الخلقة ، فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض ، وهو: التراب ، ثم تحول التراب إلى طين ، وتحول الطين إلى سلالة ، ثم تغيرت رائحة الطين فتحول إلى حمإ مسنون، ثم لصق فتحول إلى طين لازب ، ثم صار له صوت كصوت الفخار ، ثم نفخ فيه الروح ، فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله : خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ، ثم جعل ذريته من النطفة التى تنسل من الإنسان ومن الماء المهين وهو الضعيف[1] .

الربـع الأخيـر مـن سـورة الحجـر

يتضمن الربع الأخير من سورة الحجر نماذج من رحمة الله وعذابه ممثلة فى قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم .

هذا القصص يساق بعد مقدمة هى :

نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩، ٥٠) .

فيجىء بعضه مصداقا لنبإ الرحمة ، ويجىء بعضه مصداقا لنبإ العذاب ، كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ما جاء فيها من نذير .

ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ . (الحجر: ٣-٥) .

فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .

الحجـــر

سميت هذه السورة بسورة الحجر ؛ إشارة إلى أصحاب الحجر وهم : قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وهى ظاهرة إلى اليوم ، فقد نحتوها فى الصخر فى ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والحضارة .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ . (الحجر: ٨٠) .

وهم لم يكذبوا سوى رسولهم الصالح . ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين ، فلما كذبه قومه قيل: إنهم كذبوا المرسلين ؛ توحيدا للرسالة وللرسل وللمكذبين فى كل أعصار التاريخ وفى كل جوانب الأرض على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام .

وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ . (الحجر: ٨١) .

وآية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات فى هذا الكون كثيرة ، والآيات فى هذه الأنفس كثيرة ، وكلها معروضة للأنظار والأفكار . وليست الخارقة التى جاءهم بها صالح وهى وحدها الآية التى آتاهم الله . وقد أعرضوا عن آيات الله كلها . ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير .

وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (الحجر: ٨٢ – ٨٤) .

لقد اتخذ قوم صالح بيوتا حصينة أمينة فى صلب الجبال فأخذتهم الصيحة فى وقت الصباح ، وهم فى ديارهم الحصينة آمنون ، فإذا كل شىء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين واهن ، ولم يبق لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئا يغنى عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .

وهكذا تنتهى الحلقات الخاطفة من القصص فى سورة الحجر محققة سنة الله فى أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم ، فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط السابقة فى تحقيق سنة الله التى لا تختلف ولا تحيد .

وفى ختام السورة ذكر للسنن العامة التى لا تتخلف والتى تحكم الكون والحياة وتحكم الجماعات والرسالات وتحكم الهدى والضلال ، وتحكم المصائر والحساب والجزاء والتى انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها ، تلك السنن شاهد على الحكمة المكنونة فى كل خلق من خلق الله وعلى الحق الأصيل الذى تقوم عليه طبيعة هذا الخلق .

ومن ثم يعقب السياق فى ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر الذى يتجلى فى طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها وطبيعة الدعوة التى يحملها الرسول ﷺ وقد حملها الرسل قبله ، ويجمع بينها كلها فى نطاق الحق الأكبر الذى يربطها ويتجلى فيها ويبين أن الله هو الخالق لهذا الوجود ، ولكل ما فيه[٢] .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ . (الحجر: ٨٦) .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

ربمـــــــا : بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ، كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول .

يـلـهـهـم : يشغلهم .

ما تسبق : ما يتقدم زمان أجلها .

التفسير:

١ - الٓر ...

تقدم فى سورة البقرة وآل عمران والأعراف حديث عن الحروف المقطعة فى فواتح السور .

وخلاصته : أن للعلماء فى هذه الأحرف رأيان رئيسان :

الأول : أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وهذا معنى ما نراه فى تفسير الجلالين وغيره ، الله أعلم بمراده فى ذلك .

الرأى الثانى : أن لهذه الأحرف معان ، وقد اختلف العلماء فى معانى هذه الأحرف :

١- فمنهم من قال : إنها أسماء للسورة .

٢- ومنهم من قال : إنها إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

٣- ومنهم من قال : إنها مثل أدوات التنبيه ، كالجرس الذى يقرع ؛ فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ؛ فقد كان الكفار يتواصون : بالإعراض عن استماع القرآن ، فلما طرقت أذهانهم هذه الأحرف ؛ تنبّهوا أمام هذا الأمر العجيب .

٤- ومنهم من قال : هى حروف للتحدّى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مكوّن من حروف عربية ، ينطقون بها ويتكلمون بها ، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، فدلّ ذلك: على أن القرآن ليس من صنع بشر ، ولكنَّه تنزيل من حكيم حميد .

٥- ومنهم من ذهب إلى أنّ من إعجاز هذه الأحرف ؛ اشتمالها على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسورة ، وهى تشير إلى أسماء الله أو صفاته .

وهى فى نفس الوقت أدوات للتنبيه .

وهى حروف للتحدّى والإعجاز .

وهى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، والله أعلم .

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ .

أى : هذه الآيات التى اشتملت عليها هذه السورة ؛ من آيات ذلك الكتاب الكامل ، ومن آيات القرآن المبين الواضح ، وقد جمع الله للكتاب صفتان : فهو الكتاب الكامل من بين الكتب المنزلة ، وهو القرآن الواضح فى بيانه وإحكامه ، وقد تميز القرآن من بين سائر الكتب بصفتين :

الأولى : حفظه وقراءته عن ظهر قلب ، والكتب السابقة تقرأ ولا تحفظ ، كما يُحفظ القرآن .

الثانية : كتابة القرآن فى حياة رسول الله ﷺ، وتجميع كتابته فى مصحف واحد فى حياة أبى بكر ، ثم كتابته بالفصحى وبلغة واحدة فى حياة عثمان بن عفان ، وظل المصحف العثمانى ، بالخطّ العثمانى محفوظا إلى يومنا هذا ، لا يختلف مصحف عن آخر ؛ تصديقا لقوله تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ . (الحجر: ٩) .

والأناجيل كتبت بعد وفاة المسيح عليه السلام بعشرات السنين ، وقد جمعها تلاميذه على ما غلب على ظنهم أن المسيح قاله ، وقد اختلفت الأناجيل عن بعضها ، وغلب على كل إنجيل صفة كاتبه ومعلوماته .

فإن كان فيلسوفا ؛ ظهرت الفلسفة فى إنجيله ، وإن كان طبيبا ؛ غلب عليه العناية بالأمور الطبية .

ولا يوجد فى العالم كتاب يشبه القرآن ، فى دقّته ونقائه وسلامته من الأخطاء .

٢- ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن الكفار ، بأنهم سيندمون على كفرهم حين يرون العذاب فى الآخرة ، ويتمنون أن لو كانوا مسلمين .

وقد ورد فى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟! قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام ، وقد صرتم معنا فى النار ! قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخِذْنا بها ، فسمع الله ما قالوا ؛ فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، فنخرج كما خرجوا[٣].

قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ . (الحجر: ١، ٢) .

وقد جاءت ﴿رُّبَمَا﴾ للتقليل على سنة العرب فى نحو قولهم : ربَّما تندم على ما فعلت ، ولعلك تندم على ما فعلت ، لا يقصدون التقليل فى نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه ، أو لو كان قليلا لحقّ عليك ألاَّ تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغمّ المظنون ، كما يتعرض للغم المتيقن ويبتعد عن القليل منه ، كما يبتعد عن الكثير .

والكافر يتمنى أن لو كان مسلما في مواقف عديدة :

١- إذا رأى الإسلام ينتصر والكفر ينهزم .

٢- إذا رأى ملك الموت وتيقن بسوء الخاتمة .

٣- إذا رأى هول الموقف ، وشاهد المسلمين يساقون إلى الجنة ، ويساق الكفار إلى النار .

٤- إذا خرج المسلمون المعذبون بذنوبهم من عذاب النار وبقى الكافرون فى جهنم .

قال الزجاج : إن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ، ورأى حالا من أحوال المسلم ؛ ودّ أن لو كان مسلما .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . (الأنعام: ٢٧) .

٣- ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

أى : اتركهم أيها الرسول الكريم فى غفلاتهم ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، ويأخذون حظوظهم من دنياهم ، وتلك أخلاقهم ولا خلاق لهم فى الآخرة .

وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ . أى : تشغلهم الآمال عن الأخذ بحظِّهم من الإيمان والطاعة .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ، وسوء عاقبتهم ، وفى هذا وعيد وتهديد .

من تفسير الفخر الرازى

دلت الآية على : أن إيثار التلذذ والتنعم ، وما يؤدى إليه طول الأمل ، ليس من أخلاق المؤمنين ، وعن بعضهم : التمرُّغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين ، والأخبار فى ذم الأمل كثيرة ، فمنها ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « يهرم ابن آدم ويشيب معه اثنان : الحرص على المال وطول الأمل »[٤] .

وعنه ﷺ أنه نقط ثلاث نقط ، وقال : « هذا ابن آدم ، وهذا الأمل ، وهذا الأجل ، ودون الأمل تسع وتسعون منية فإن أخذته إحداهن ، وإلا فالهرم من ورائه »[٥] .

وعن على رضى الله عنه أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول؛ الأمل ينسى الله والآخرة ، واتباع الهوى ؛ يصدّ عن الحقّ ، والله أعلم[٦] .

٤- وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ .

كان أهل مكة يستبطئون العذاب ، ويقولون : متى يجيء ما تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ؟! فأخبر الله تعالى : بأن كل قرية من القرى الظالمة ، كان هلالكها وقت مقدَّر ، فقد هلك قوم نوح بالطوفان، وهلك فرعون فى ماء النيل ، وهلكت عاد وثمود بعذاب شديد ، قال تعالى : فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس: ١٤، ١٥) .

ومعنى الآية : ما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة ، التى كذبت رسل الله تعالى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، لا ينسى ولا يغفل عنه .

٥- مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ .

أى : لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

قال ابن كثير : وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد ، الذى يستحقون به الهلاك .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

الذكر : القرآن .

لوما : مثل هلاً كلمة تفيد : الحثّ والحضّ على فعل ما يقع بعدها .

منظرين : مهملين .

شيع : جمع شيعة ، وهى الجماعة المتفقة على مبدإ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء .

نسلكه : أى : ندخله ، يقال : سلكت الخيط فى الإبرة ، أى : أدخلته فيها .

وقد خلت سنة الأولين : أى : وقد مضت سنة الله فى الأقوام الأولين ، بإهلاك من كذّبوا الرسل منهم ، وهذا وعيد لأهل مكة .

يعرجون : يصعدون .

سكرت : سدّت ، ومُنعت من الإبصار .

مسحورون : سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

التفسير :

٦ – وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

يخبر الله سبحانه وتعالى عن كفرهم وعنادهم ، فى قولهم :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ . أى : الذى تدَّعى ذلك .

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . أى : فى دعائك إيانا إلى اتِّباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

٧– لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .

أى : هلا جئتنا بالملائكة يشهدون لك ، بصدق ما جئت به من الرسالة ، إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ، فى دعواك ، فإن قدرة الله تعالى ذلك مما لا ريب فيه ، وكذا احتياجك إليه .

وفى معنى هاتين الآيتين وردت آيات فى القرآن الكريم على لسان الكافرين ، تتهم الرسل بالجنون ، وتطلب منهم إحضار الملائكة لتصديقهم ، من ذلك قول فرعون : فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . (الزخرف: ٥٣) .

وقول كفار مكة وأشباههم وما حكاه القرآن عنهم بقوله :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا . (الفرقان: ٢١، ٢٢) .

٨– مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ .

أى : من شأن الحق سبحانه وتعالى أن يجرى أعماله لحكمة إلهية ، فهو سبحانه حكيم فى عمله وصنعه ، ومن هذه الحكمة : أن يرسل الملائكة ؛ لتتنزل بالوحى والرسالة على المرسلين ، أو ينزل الملائكة بالعذاب على المكذبين .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . أى : إلا تنزلا متلبسا بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة فى أن تأتيكم عيانا تشاهدونهم ، ويشهدون لكم بصدق النبى ﷺ ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ، ومثله قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . (الحجر: ٨٥) .

وقيل : الحق : الوحى ، أو العذاب[٧] .

وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ .

أى : لو نزلنا الملائكة فلم يؤمنوا ؛ لعاجلناهم بالعذاب ولم نمهلهم ، وذلك مخالف لسنة الله تعالى فى إمهال الناس دون إهمالهم ، أو لسنته تعالى فى إمهال الناس ؛ رجاء إيمانهم .

وجملة : وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ . جواب وجزاء لجملة شرطية محذوفة ، والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة، وما كانوا إذا منظرين ، فالجملة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة[٨] .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . (الأنعام: ٨) .

٩- إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ .

تأتى هذه الآية فى مقام الردّ على هؤلاء المستهزئين ، الذين اتهموا النبى ﷺ بالجنون ، فترد عن الرسول ﷺ ، وتبين : أن الله وحده هو الذى أنزل القرآن ، وهو سبحانه المتكفِّل بحفظه ، وقد تميّز القرآن عن غيره من الكتب ، بأن أعدادًا غفيرة من المسلمين ، تحفظه عن ظهر قلب ، وتتوارث حفظه خلفًا عن سلف ، وقد ألهم الله المسلمين بكتابته فى حياة الرسول ﷺ، وتكرر جمعه فى مصحف فى عهد أبى بكر ، وكتابته على لهجة واحدة فى عهد عثمان ، ومن حفظ الله تعالى لكتابته : مرور عصور طويلة من الظلام ، ضعف فيها شأن المسلمين ، وانحسر سلطانهم ، وظلّ القرآن الكريم محفوظًا فى الصدور ، مكتوبا فى السطور ، متلوًّا على الألسنة ، مسجلاً على الأشرطة ، مذاعا فى إذاعات العالم المسموعة والمرئية ؛ تأكيدًا لتعهده سبحانه بحفظ هذا الكتاب .

ونلاحظ أن الله استحفظ الأحبار والرهبان الكتب السابقة ، وتكفل هو بحفظ كتابه ، قال تعالى : وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ . (المائدة : ٤٤) .

وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر: ٩) .

١٠- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ .

يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ، حيث يبين له : أن تكذيب كفار مكة له ليس بدعا ، وإنما سبق أن أرسلت رسل قبله فكذِّبوا .

فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ .

أى : فرقهم وأحزابهم ، جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب .

١١- وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

أى : لم يأت أمة أو شيعة أو فرقة من رسول إلا كذبوه ، واستهزءوا به ، كما كان يفعل كفار مكة مع النبى ﷺ ، قال تعالى : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا . (الأنعام:٣٤).

١٢- كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ .

أى : كما سلكنا الكفر فى قلوب شيع الأولين ، بالاستهزاء بالرسل ، كذلك نفعل ذلك فى قلوب مشركى قومك ، الذين أجرموا بسبب الكفر بالله ، ويجوز أن يعود الضمير فى نَسْلُكُهُۥ . على القرآن الكريم .

والمعنى : كما سلكنا القرآن فى قلوب المؤمنين ، بالمحافظة عليه وتلاوته واتباع أوامره وهديه ، نسلكه فى قلوب المجرمين ، وندخله فى سويدائها فكذب به المجرمون وكفروا عنادًا وكبرا .

١٣- لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ .

إن هؤلاء المشركين قد تمكن الشرك من قلوبهم ، وسلك الكفر طريقه إلى نفوسهم ، فلا يؤمنون بالقرآن الكريم ، ولا يصدِّقون بالنبى محمد ﷺ ، وهؤلاء الكفار سيصيبهم العذاب ؛ جزاء تكذيبهم ، فإن لله سننا لا تتخلف ولا تتبدل ، ومن هذه السنن : نجاة المرسلين ، وهلاك المشركين ، وفى هذا تهديد لأهل مكة ووعيد لهم : بأن يصيبهم ما أصاب المكذبين من الأمم قبلهم ، قال تعالى : ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ . (سبإ:١٧) .

وقال سبحانه : وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت:٤٠) .

١٤- وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ .

عندما طلب كفار مكة ، نزول الملائكة ؛ حتى يؤيدوا محمدًا فى دعواه الرسالة – إن كان من الصادقين– ردّ عليهم القرآن فيما سبق .

وهنا يقول : لو سلمنا جدلا قبول اقتراحهم ، وأصعدناهم إلى السماء ، وفتحنا لهم بابا من أبوابها ، فظلوا فيه يصعدون ؛ حتى شاهدوا الملائكة والملكوت .

١٥ - لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ .

أى : لقالوا ، لفرط مكابرتهم وعنادهم ، إنما سُدّت أبصارنا وخدعت بهذا الارتقاء والصعود .

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ . أى : سحرنا محمد وخيّل إلينا ذلك ، وما هو إلا سحر مبين .

وقد سبق أن اتهم قوم فرعون سيدنا موسى بالسحر ، وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ .. (الزخرف:٤٩) .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور فى سورة الأنعام فى قوله : وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . (الأنعام: ٧) .

ثم نقل الفخر الرازى عن ابن عباس أنه قال : « ولو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى ، وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة ، الذين هم من خشيته مشفقون ؛ لشكُّوا فى تلك الرؤية ، وبقوا مُصرين على كفرهم وجهلهم ، كما جحدوا سائر المعجزات ، من انشقاق القمر ، وما خص به النبى ﷺ من القرآن المعجز ، الذى لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله[٩] .

ملحق بالآية

(أ) فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ .

يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب : ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات ، يبيت إلا بالليل ، والمصدر : الظلول[١٠] .

أى : إن صعودهم لو كان فى وضح النهار ، وشاهدوا ذلك عيانا مع وضوح الرؤية ، لأنكروا وعاندوا.

يَعْرُجُونَ . يقال: عرج ، يعرج ، عروجا ، ومنه المعارج وهى المصاعد التى يصعد فيها ، ومن إعجاز القرآن، نجد أن السماء لا تعرف الخط المستقيم ، وإنما يذكر الصعود إلى السماء بالعروج ، قال تعالى : مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج: ٤،٣) .

وهنا قال : فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ .

وقد أيَّد ذلك العلمُ الحديث ، والقرآن غنى عن هذا التأييد ، ولكنا نقول : أنَّى لمحمد النبى الأمّى أن يعرف دقة هذا التعبير ، الذى يصدقه العلم بعد أكثر من ألف عام .

(ب) معنى : سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا .

أى : غيِّرت أبصارنا عما كانت عليه ، فهى لا تعطينا حقائق الأشياء كما كانت تفعل ، ومنه سكران أى : توقف عقله عن اتخاذ القرار ، سكرت الريح ، أى : توقفت عن الهبوب ، وسكّرتُ الباب : أغلقته .

وعبر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله : غشى على أبصارنا ، وقال بعضهم : عميت أبصارنا ، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ ، ويقال أيضا : هؤلاء المبصرون عروج الملائكة ، أو عروج أنفسهم، بعد قولهم : سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ، بل سحرنا حتّى لا نَعْقِل الأشياء كما يجب ، أى : صرف فينا السحر[١١] .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

بروجا : من الكواكب ، أو هى : منازل الشمس والقمر .

وزيناها للناظرين : لمن نظر إليها .

إلا من استرق السمع : لكن من يسترق السمع من الشياطين ؛ ليستمع ما يتحدث به فى السماء .

فأتبعه شهاب : فيتبعه شهاب من النار .

مبين : بين أثره فيه ، إما أن يحرق النجم الجنى أو يفسده ويخبله .

والأرض مددناها : بسطناها .

وألقينا فيها رواسى : أثبتنا فيها جبالا ثابتة .

من كل شيء موزون : معلوم مقدور .

وجعلنا لكم فيها معايش: جمع معيشة .

ومن لستم له برازقين: قيل : العبيد والإماء ، والدواب والأنعام ، وقيل : الوحش .

وإن من شيء : يعنى : من الأمطار .

إلا بقدر معلوم : حده ومبلغه .

وأرسلنا الرياح : جمع ريح .

لواقح : تلقح الشجر ، وتمرى السحاب ، أى : تستخرج منه المطر .

فأسقيناكموه : لشرب أرضكم .

وما أنتم له بخازنين: بمانعين ، يقول : ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه من السماء فتمنعوه من أسقيه ؛ لأن ذلك بيدى – أو أن الله ييسر للمطر الذهاب إلى الأنهار والمحيطات ؛ فيخزنه بمعرفته؛ لينتفع به الناس بعد ذلك ، ولو وكل للإنسان أمر المطر وتخزينه ؛ لعجز عن ذلك ؛ لأن الله الحكيم هو المدبر لكل أمر موزون .

التفسير :

١٦ – وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ .

تأتى هذه الآيات للدلالة على قدرة الخالق وبديع صفته ، فهو سبحانه رافع السماء ومكمل خلقها وهو الذى زينها بالنجوم ، وأتم حفظها ، وهو سبحانه باسط الأرض ، وخالق الجبال ، ومسخّر السحاب والأمطار ومنبت النبات ، وكأنّ القرآن يقول لهم : إن أردتم دليلا على وحدانية الخالق ، وصدق الرسالة فانظروا إلى ما حولكم ، من السماء والأرض والجبال وستجدون التكامل والإبداع فى هذا الكون .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا .

تطلق البروج على النجوم ، وأصل البروج : الظهور ، ومنه تبرُّج المرأة بإظهار زينتها ، وقيل: البروج: الكواكب العظام ، وحقيقة البرج : البناء الكبير المتخذ للسكنى ، أو للتحصُّن ، وهو يراد فى القصر ، قال تعالى: أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . (النساء ٧٨) .

وقال سبحانه : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ . (البروج: ١) .

جاء فى تفسير القرطبى :

والبروج : القصور والمنازل ، قال ابن عباس : أى : جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر ، أى : منازلهما ، وأسماء هذه البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والعرب تعُدُّ المعرفة بمواقع النجوم وأبوابها ، من أجلّ العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات ، والأوقات والخصب والجدب ، وقالوا : الفلك : اثنا عشر برجًا[١٢] .

ومعنى الآية : ولقد خلقنا فى السماء نجوما عظاما ، من الكواكب الثوابت والسيارات ، وجعلنا السماء والكواكب بهجة لمن تأمل وكرر النظر فى عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ . (الصافات:٦) ، وقوله سبحانه : تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا . (الفرقان: ٦١) .

١٧ - وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ .

كانت الشياطين تسترق أخبار السماء ، وتخبر بها الكهان ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ ؛ شددت الحراسة على السماء ، فكانت الجن إذا أرادت استراق أخبار السماء ؛ ترصّ بعضها فوق بعض ، كل جنى يضع قدميه فوق أكتاف الأول ، وهكذا ، ثم يتسمّع الأخير إخبار الملائكة عن أمور الغيب ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ ؛ منعت الجن من استراق السمع ، ومن أراد استراق السمع ؛ رُمِيَ بالشهب فتقتله أو تخبله .

وقد ورد هذا المعنى فى صحيح البخارى عن ابن عباس:[١٣] ثم إن الشياطين انصرفوا باحثين عن السبب ، فتوجهوا نحو تهامة فوجدوا رسول الله ﷺ يصلى الفجر بأصحابه ، فلما سمعوا القرآن ، استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم ، وبين خبر السماء ، فلما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما سمعوا ، فأنزل الله تعالى على نبيه محمدًا ﷺ سورة الجن وفى أولها : قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . (الجن: ١) .

وفيها : وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا . (الجن: ٨، ٩) .

وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ .

أى : حفظنا السماء وحرسناها ، ومنعنا كل شيطان مرجوم مطرود من الوصول إليها ، قال تعالى فى آية أخرى : وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . (الصافات: ٧-١٠) .

إن المثال فى خلق السماء ، وإحكام البناء ، وتزيينها بالنجوم ، وحركة النجوم ومواقعها ، وعدم اضطرابها أو اصطدامها – ثم إن هذا الاصطدام وارد ، وهو لحكمة عليا ، هى نزول شهب تخبل الجنّى أو تقتله– يستقين أن كل ذلك يشير إلى قدرة عليا تمسك بزمام هذا الكون .

١٨– إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ .

أى : لكن من أراد اختطاف شىء من عالم الغيب ، مما يتحدث به الملائكة فى الملإ الأعلى ، تبعه كوكب مشتعل نارًا ظاهرًا ؛ فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شىء مما يدبّر فى ملكوت السماوات .

وبعد أن ذكر عظمة الخالق ، وقدرته فى خلق السماوات وإبداع نظامها وحفظها ، أتبع ذلك ببيان قدرته ونعمته فى خلق الأرض .

١٩– وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ .

إن يد القدرة المبدعة التى زينت السماء وحفظتها ، قد بسطت الأرض وحفظت توازنها بالجبال الراسيات الثوابت ، وأرسلت الماء إلى الأرض فتمت حياة الأرض بالنبات الموزون بميزان الحكمة بلا زيادة ولا نقصان .

أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون ، وقد ذكر الشريف الرضى[١٤] أن العرب استعملته بهذا المعنى كقول عمر بن أبى ربيعة :

وحديث ألذه هو مما		تشتهيه النفوس يوزن وزنا[١٥]

وجاء فى تفسير المراغى :

أن كل نبات قد وزنت عناصره ، وقدرت تقديرًا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر، بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزاهير .

وهناك عنصر البوتاس تراه يدخل فى حب الذرة الذى تأكله بمقدار ٣٢٪ وفى القصب ٣٤.٣٪ وفى البرسيم بمقدار ٣٤.٦٪ وفى البطاطس بمقدار ٦١.٥٪ وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرًا ، والبرسيم لأن يكون قوتًا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكون قوتًا للإنسان[١٦] .

فسبحانك اللهم أبدعت نظام الكون وجعلت كل شىء فى الحياة موزونًا بقدر معلوم ؛ لنتدبر نظم الحياة، ونعرف قدرة المنشئ الذى لم يخلق شيئًا جزافًا بل أبدع ودبر ، وخلق كل شىء فقدره تقديرًا .

٢٠- وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ .

أى : جعلنا لكم فى الأرض أرزاقًا مؤهلة للعيش والحياة فيها ، وأنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء وقد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجو ربيتموه ، ولا غيرها من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . أنتم تعيشون على أرزاق الله التى جعلها لكم فى الأرض ، وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التى لا تحصى، أمة لا ترزق سواها ، إنما الله يرزقها ويرزق سواها ، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ، ومتاعها وخدماتها أممًا أخرى تعيش من رزق الله ولا تكلفها شيئًا .

٢١- وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

وما من شىء إلا ونحن قادرون على إيجاده ، وتكوين أضعاف ما وجد منه ، شبه اقتداره على كل شىء وإيجاده ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجه إلا بقدر معلوم، استعارة تمثيلية[١٧] فقد ضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور .

قال فى ظلال القرآن :

هذه الأرزاق – ككل شىء – مقدرة فى علم الله تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء ، وكما يريد فى الوقت الذى يريده حسب سنته التى ارتضاها وأجراها فى الناس والأرزاق .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

فما من مخلوق يقدر على شىء أو يملك شيئا ، إنما خزائن كل شىء مصادره وموارده عند الله فى علاه ينزله على الخلق فى عوالمهم بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . فليس من شىء ينزل جزافًا ، وليس من شىء يتم اعتباطًا ، ومدلول هذا النص المحكم :

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان فى المعرفة ، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه ، ومداول خَزَآئِنُهُ يتجلى فى صورة أقرب بعدما كشف الإنسان عن طبيعة العناصر ، التى يتألف منها الكون المادى ، وطبيعة تركيبها وتحليلها – إلى حد ما – وعرف مثلا أن خزائن الماء الأساسية هى ذرات الأيدروجين والأكسجين وأن من خزائن الرزق المتمثل فى النبات الأخضر كله ذلك الآزوت الذى فى الهواء ، وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب فى ثانى أكسيد الكربون ، وتلك الأشعة التى ترسل بها الشمس أيضًا ، ومثل هذا كثير يوضع دلالة خزائن الله التى توصل الإنسان إلى معرفة شيء منها .. وهو شيء على كثرته قليل قليل ...[١٨] .

٢٢– وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَـٰزِنِينَ .

من قدرة الإله الخالق أنه أبدع نظام السماء ، وأبدع نظام الأرض ، وأبدع نظامًا متكاملاً فى هذا الكون ، وعنده خزائن الأرزاق ومواعيدها المناسبة ومن هذه الأرزاق :

أنه سخر الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب ؛ فى جوفها ، والرياح تنطلق وفق نواميس كونية، وتحمل الماء وفقًا لهذه النواميس ، وتسقط الماء كذلك بحسبها ، ولكن من الذى قدر هذا كله من الأساس؟! لقد قدره الخالق ، ووضع الناموس الكلى الذى تنشأ عنه كل الظواهر .

فهو سبحانه خالق الإنسان ، وخالق الكون ، وبيده الخلق والأمر ، قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . (الروم :٤٨) .

وقال عز شأنه : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ . (الواقعة: ٦٨–٧٠) .

قال المهايمى :

وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَاقِحَ . أى : تلقح السحاب أى : تجعلها حوامل بالماء ؛ وذلك أن السحاب بخار تصير بإصابته الهواء البارد حوامل للماء[١٩] فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ . أى : فأنزلنا من السحاب مطرًا فأسقيناكم ذلك المطر ؛ لشرب زرعكم ومواشيكم وفى ذلك استقامة أمور معايشكم وتدبير شئون حياتكم كما قال سبحانه : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ . (الأنبياء: ٣٠) .

وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ . أى : بقادرين على إيجاده وإنزاله ، والخزن : اتخاذ الخزائن يستعار للقدرة كما مر، أو بحافظين له فى أمكنة ينابيعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلكه ينابيع فى الأرض وجعلنه عذبًا ورحم العباد بسقياه .

★ ★ ★

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

ولقد علمنا المستقدمين منكم

ولقد علمنا المستأخرين : أى : من تقدم ميلادًا وموتا ومن تأخر ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد ، أو من تقدم فى الإسلام ومن تأخر .

يحشرهم : أى : يجمعهم ، والحشر لغة : جمع الناس للحرب ، والحشر هنا يراد به : إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرّق من أجزائهم الأصلية ، ثم جمعهم في يوم الحشر ويسمى : يوم الجمع .

التفسير :

٢٣ - وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ .

تأتى هذه الآيات فى سياق الحديث عن جوانب القدرة الإلهية ، فهو سبحانه القادر وحده على إيجاد الحياة فى المخلوقات ، والقادر على سلبها عنها .

جاء فى تفسير ابن عطية :

وإنا نحن نحيى من نشاء بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة ، ونردّه عند البعث من مرقده ميتا ، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حيًّا[٢٠] .

وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ .

أى : ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون ، وشبّه سبحانه بقاءه بعد زوال كل شىء بالوارث ؛ لأن الوارث ، هو الذى يرث غيره بعد موته ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ . (مريم: ٤٠) .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن: ٢٦، ٢٧) .

جاء فى كتاب تيسير التفسير :

وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ .

الباقون بعد فناء الخلق ، فالإرث مجاز مستعار ، من إرث الميت بمعنى : القيام على تركته ، أو الوارثون مالهم بعد أن ملكوه ، وهذا مجاز أيضا ، لا مالك للعالم سواه ، ومن الأول قوله ﷺ : « اللهم، أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا[٢١] .

أى : اجعل ما ذكر ، أو الامتاع باقيا إلى الموت ، أو اجعلها كأنها تبقى بعدنا[٢٢] .

٢٤ - وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ .

أحصى سبحانه كلَّ شىء علما ، فهو سبحانه عالم بالمستقدمين ، أى : كل من مات من لدن آدم عليه السلام ، وهو محيط علما بالمستأخرين ، أى : الأحياء ومن سيأتى بعدهم إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد : علمه سبحانه بالمتقدمين للجهاد ، والمتأخرين عنه ، وقيل : المراد : المتقدمين فى صفوف الصلاة والمتأخرين فيها .

ونلاحظ أن هذه كلها أمثلة تُحمل على التمثيل لا على الحصر ، والغرض: أنه تعالى محيط علمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شىء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته .

٢٥ - وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة للحساب والجزاء .

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . باهر الحكمة ، واسع العلم بجميع خلقه ، عادل فى جزائه .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

صلصال : طين يابس يُسمع له صلصلة ، أى : صوت إذا نقر .

حمأ : طين تغيّر واسودّ من طول مجاورة الماء .

مسنون : مصور مفرغ على هيئة الإنسان .

الجانّ : هو أبو الجنّ ، وقيل : هو إبليس ، ويصح أن يراد به : جنس الجن ، وإذا أريد بالإنسان : آدم، أريد بالجان : أبو الجنّ .

نار السموم : هى النار الشديدة الحرارة ، التى تنفذ فى المسام ، فتقتل بحرّها .

بشرا : أى : إنسانا ، وسمى بذلك ؛ لظهور بشرته أى : ظاهر جلده .

سويته : أتممت خلقه ، وهيأته لنفخ الروح فيه .

ونفخت فيه من روحى : أفضت عليه من الروح ، التى هى خلق من خلقى فصار بشرا حيًّا .

رجيم : أى : مرجوم بالحجارة ، والمراد هنا : مطرود .

اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط .

يوم الدين : يوم الجزاء .

انظرنى : أمهلنى وأخِّرْنى ولا تمتنى .

المنظرين : الممهلين ، المؤجلين .

يوم الوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق .

الإغواء : الإضلال .

قال رب بما أغويتنى : أى : بسبب إغوائك لى ، وإضلالك لى .

لأزينن لهم فى الأرض : لأزينن لذرية آدم المعاصى والآثام .

المخلصين : من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك ، فلا قدرة لى على إغوائه .

هذا صراط علىّ : أى : حق لابد أن أراعيه .

مستقيم : واضح ، وسنة أزلية لا تتخلف وهى : تخليص المخلصين من إغواء الشيطان .

السلطان : التسلط والتصرف بالاغواء .

سبعة أبواب : أى : لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها ، وروى : أن جهنم سبع طبقات ، طبق فوق طبق ، وأنها دركات بعضها أشد من بعض .

جزء مقسوم : أى : فريق معين مفروز من غيره .

التفسير :

٢٦ – وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

أى : خلقنا الإنسان من طين يابس ، يسمع له صلصلة ، أى : صوت إذا نقر ، والمراد بالإنسان : آدم عليه السلام ، وقد ذكرت آيات أخرى : أن الإنسان خلق من تراب ، وفى آيات أنه خلق من طين ، وهنا ذكر: أنه خلق من صلصال من حمإ مسنون .

وقد ذكر مقاتل بن سليمان فى تفسير خمسمائة آية من القرآن الكريم ، وفيها بيان للمتشابه من آيات القرآن : أن هذه الآيات فى مجموعها تشير إلى مراحل الخلق التى مرّ بها خلق الإنسان ، فالمراحل

الأولى لخلق الإنسان كانت من التراب ، ثم أضيف الماء إلى التراب فصار طينا ، وهذه هى المراحل السابقة، قال تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

وقال عز شأنه : إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ . (ص: ٧١) .

والآية التى معنا تشير إلى المراحل الأخيرة فى خلق الإنسان ، وهى مرحلة الخلق مِن صَلْصَٰلٍ ، أى: طين يصلصل ويصوّت ؛ إذا نقر أو حرّك ، وإذا ترك الطين فى الماء حتى أنتن واسودّ ، وتغيّر فهو الحمأ المسنون ،وإنما خلقه على ذلك الوضع ؛ ليكون خلقه أعجب ، وأتمّ فى الدلالة على القدرة .

جاء فى زبدة التفسير من فتح القدير :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ .

هو : آدم ، **والصلصال** هو : الطين اليابس ، يتصلصل إذا حُرِّك ، فإذا طبخ فى النار فهو الفخار .

والحمأ : الطين الأسود المتغير .

والمسنون : هو المتغير ، فالتراب لما بلّ ؛ صار طينا ، فلما أنتن ؛ صار حمأ مسنونا ، فلما يبس ؛ صار صلصالا . اهـ .

وجاء فى التفسير الوسيط :

والمقصود من هذه الآيات الكريمة : التنبيه على عجيب صنع الله تعالى ، وعظيم قدرته ، حيث أخرج سبحانه ، من هذه الموادّ بشرا سويا فى أحسن تقويم[٢٣] .

وقال النسفى : وفى الأول كان ترابا ، فعجن بالماء طينا ، فمكث ؛ فصار حمأ ، فخلص ؛ فصار سلالة، فصوّر ويبس ؛ فصار صلصالاً .

٢٧- وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ .

الجانّ للجن كآدم للناس ، أى : خلقنا أبا الجن من قبل آدم ، أو خلقنا جنس الجنّ ، من قبل الإنسان .

مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ . أى : نار الريح الحارة التى لها لفح وتقتل من أصابته .

روى مسلم فى صحيحه ٤/٢٢٩٤ : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتْ الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم » .

وجاء فى زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى :

قال ابن مسعود : من نار الريح الحارة ، وهى جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم .

والسموم فى اللغة : الريح الحارة وفيها نار ، قال ابن السائب : وهى نار لا دخان لها .

وروى البخارى ٢٣٨/٦ ، ومسلم ٢١٨٤/٤ ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : «ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»[٢٤] .

٢٨- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

تشير الآية إلى تكريم الإنسان ، وتشريف الملائكة بإخبار الله لهم عن خلق آدم ، وتكليفه لهم بالسجود للإنسان عند اكتمال خلقته ، أى : واذكر أيها الرسول لقومك ، حين نوَّه ربكم بذكر أبيكم آدم ، فى ملائكته قبل خلقه .

٢٩- فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ .

أى : إذا عدّلت خلقته وأكملتها .

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . أى: وضعت فيه قوة لطيفة السريان ، قوية التأثير ، بها تتم الحياة ، وإضافة الروح إلى الله تعالى ، إضافة تشريف وتكريم ، مثل : بيت الله ، وناقة الله .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . وأحييته ، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ ، وإنما هو تمثيل : لتحصيل ما يحيا به فيه.

فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ .

أى : اسقطوا له ساجدين بقصد التعظيم ، وفيه تكريم الله للأصل الإنسانى ، حيث أمر الله الملائكة بالسجود للإنسان ، سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ، وفيه بيان سموّ الإنسان بهذه اللطيفة الربانية ، التى أودعها الله فيه ، فإن هو تسامى بروحه وغرائزه ، وامتنع عن الشهوات والمعاصى ؛ صار من الفالحين، وإن هو سار فى طريق المعاصى ، واستسلم لغرائزه وشهواته ؛ صار من الخاسرين .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . (الشمس ٧ – ١٠)

والله تعالى حكيم عليم بخلقه ، وهو سبحانه يصطفى من يشاء ويختار ، فقد فضّل سبحانه الأنبياء على الملائكة ، وامتحن الله الملائكة بالسجود لآدم ، تعريضا لهم للثواب الجزيل ، وبيان لما أودع الله فى هذا الإنسان من التكريم ، قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ... (الإسراء: ٧٠) .

٣٠ ، ٣١- فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ .

استجاب الملائكة لأمر الله ، ونجحوا فى طاعتهم لأمر خالقهم ، وهم أيضا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقد سجد الملائكة جميعا من أوّلهم إلى آخرهم فى وقت واحد ، لآدم عليه السلام كما أمرهم الله .

لكن إبليس لم يسجد فقد تكبر وامتنع عن السجود ، زاعما : أنه أفضل من آدم عليه السلام .

٣٢ ، ٣٣- قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

نادى الخالق سبحانه على إبليس : لماذا لم تسجد كما سجدت الملائكة ؟!

فأجاب إبليس مبينا أسباب عناده وتكبره ؛ بأنه خلق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار أفضل من الطين – فى رأيه – فلا يجوز أن يسجد المفضول للفاضل فى رأيه .

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ . (الأعراف: ١٢) .

وفى هذا ضلال من إبليس ؛ لأن الله هو الذى خلقه من نار ، وهو الذى أمره بالسجود لآدم ، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء .

وقال بعض العلماء :

هذا من غرور إبليس ، فالنار خائنة ، والطين أمين ، إذا وضعت النبات فى الأرض؛ أنبتته ، وإذا وضعت الحب فى النار؛ أحرقته ، ثم إن الملائكة خلقت من نور ، وإبليس خلق من نار ، والنور أفضل من النار ، وقد استجابت الملائكة لأمر الله تعالى .

وجاء فى فتح القدير :

قيل : كان من جنس الملائكة ، ولكنه أبى ذلك استكبارا وحسدًا لآدم ؛ فحقت عليه كلمة الله .

وقيل : إنه لم يكن من الملائكة ، ولكنه كان معهم ، فغلب اسم الملائكة عليه ، وأمر بما أمروا به ، فترك السجود على وجه الرفض . ا. هـ .

والرأى الراجح : أن إبليس لم يكن من الملائكة ، وإنما كان موجودًا بينهم ، وقد أمروا جميعا بالسجود، فسجد الملائكة ولم يسجد إبليس ، ثم أصرّ على معصيته ، وادعى : أنه أفضل من آدم ، أى : أنه لم يمتثل لأمر الله ، ولم يستجب لما أُمر به ، ثم ركبه الغرور ، فادعى : أنه أفضل من آدم .

وقد صرح القرآن الكريم : بأن إبليس من الجن ، قال تعالى : **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** . (الكهف: ٥٠) .

وفى صحيح مسلم ٤/٢٢٩٤ : أن رسول الله ﷺ قال : « خُلِقَت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصفت لكم »[٢٥] .

وقال الحسن البصرى : « والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين » .

٣٤ ، ٣٥- قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

أى : أخرج من الجنة ، أو من السماء ؛ **فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** . أى : مرجوم وملعون ومطرود ؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة ، وهذا الطرد واللعن مستمر عليك إلى يوم القيامة .

٣٦- قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

طلب إبليس من ربه أن يمهله ، وأن يؤخر موته إلى يوم يبعث آدم وذريته ، كأنه طلب ألا يموت أبدا ؛ لأنه إذا أخر موته إلى البعث ، فهو يوم لا موت فيه .

٣٧ ، ٣٨- قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ .

أى : استجاب الله لإبليس ؛ فأمهله ، وأخبره : بأنه من جملة من أخر آجالهم من مخلوقاته .

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ .

وهو وقت نفخ إسرافيل فى الصور ، فيموت إبليس كغيره ، ويبعثون جميعا بعد أربعين سنة ، قال تعالى : **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** . (الزمر: ٦٨) .

قال ابن كثير :

(أجابه الله تعالى إلى ما سأل ؛ لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف) ، ولعل من هذه الحكم : الاشارة إلى أن ناموس الشرّ ، لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأنّ نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر ، وبين الأخيار والأشرار ، قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . (الأنبياء: ١٨) .

٣٩- قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : أقسم بإغوائك إياى ؛ لأزينَنَّ للناس المعاصى والسيئات ، والمنكر والشهوات ؛ حتى يميلوا عن الحق إلى الهوى ، وعن الرشاد إلى الضلال .

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . أى : والله لأضلنهم جميعا ، ما دمت قادرا على ذلك ولأعملن على إضلالهم بدون فتور أو يأس .

وفى معنى هذه الآية ، قوله سبحانه : ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ . (الأعراف: ١٧) .

والآية تصوّر أمل إبليس فى إضلال الناس ، ورغبته فى تزيين المعاصى لهم ، وفى مقابل ذلك وعد الله سبحانه بالتوبة على التائبين ، وقبول رجوع النادمين ، إلى باب الله التواب الرحيم .

٤٠- إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ .

أى : إلا من أخلص منهم لطاعتك ، ووفقته لمرضاتك ، فلا قدرة لى على إغوائه .

وقد قرأ نافع وحمزة وعاصم والكسائى بفتح اللام فى ٱلْمُخْلَصِينَ.

أى : الذين استخلصتهم واصطفيتهم ، واخترتهم من الناس لعبادتك ، وقرأ ابن كثير : المخلِصين بكسر اللام ، أى : الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فهؤلاء يمدُّهم الله بعونه ومدده .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف: ٢٠١) .

٤١- قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ .

أى : قال الله : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزلية لا تتخلف وهى :

٤٢- إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ .

أى : ليس لك يا إبليس تصرُّف أو تسلط على عبادى المخلصين ؛ فهم فى حصن من إيمانهم ، وإخلاصهم لربهم ، وهم فى يقين وقوة تحفظهم من وسوستك ، لكن من اتبعك واختار طريقك ؛ صار أهلاً لغوايتك .

ونلاحظ أن هذه سنّة إلهية ، وقاعدة ربانية محكمة ، التزم بها الخالق سبحانه ، وهى : حفظ المتقين، ورعاية المخلصين ، وتوفيق المؤمنين ، فشيطانهم ضعيف هزيل ، عاجز عن استمالتهم ؛ بسبب قوة إيمانهم، أما ضعاف الإيمان ، وعبيد الشهوات ، ومرضى القلوب ، فهؤلاء أسرى للشيطان ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل: ٩٩ ، ١٠٠) .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى . (إبراهيم: ٢٢) .

لقد خلق الله الإنسان ، وزوده بالإرادة والعزيمة ، ويسر له طريق الخير ، وأرشده إلى الاستعانة بالله، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، فمن لجأ إلى الله ، واحتمى بحصنه ؛ فذلك هو المؤمن المخلص ، ومن ضعف عن الحق ؛ سقط فى طريق الرذيلة ، وصار من أتباع الشيطان وقد علمنا القرآن أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ . (النحل: ٩٨) .

أى : اطلب من الله أن يعيذك منه ، وأن يحفظك من وسوسته وإغوائه ، وفي آخر سورة من القرآن الكريم، نجد قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ . (الناس: ١-٦) .

٤٣- وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : إن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، جزاء فسادهم ، وكفاء ما دنسوا به أنفسهم من قبح المعاصى.

٤٤ - لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ .

أى : لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم ، وروى: أن النار دركات طبق فوق طبق ، وبعضها أشد من بعض .

لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . أى : لكل جماعة من أتباع إبليس ، باب معين معلوم .

قال ابن كثير : كل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر فى درك بقدر عمله . ا هـ .

وجاء فى تفسير ابن عطية :

قيل : إن النار بجملتها سبعة أطباق ، أعلاها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر، ثم الجحيم – وفيه أبو جهل – ثم الهاوية ، وإن فى كل طبق منها بابا ، فالأبواب – على هذا – بعضها فوق بعض، وعبّر فى هذه الآية عن النار جملة : بجهنم ؛ إذ هى أشهر منازلها وأولها ، وهى موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون ، ولهذا ورد : أن جهنم تخرب وتبلى ، وقيل : إن النار أطباق كما ذكرنا ، لكن الأبواب السبعة كلها فى جهنم على خط استواء ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقه الذى يفضى إليه ، واختصرتُ ما ذكر المفسرون فى المسافات بين الأبواب ، وفى هواء النار ، وفى كيفية الحال ؛ إذ هى أقوال كثيرة ، أكثرها لا يستند ، وهى فى حيّز الجائز ، والقدرة أعظم منها ، عافانا الله من ناره ، وتغمدنا برحمته وفضله[٢٦] .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المفردات :

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب من الصغائر ، تكفرها الصلوات وغيرها .

جنات : جمع جنة ، وهى : كل بستان ذى شجر متكاثف ، والمراد بها هنا : الدار التى أعدها الله تعالى؛ لتكريم عباده المؤمنين فى الآخرة .

عيون : أنهار جارية ، والمقصود بها هنا : المياه المنتشرة فى الجنات .

بسلام : أى : سلامة من الآفات ، وأمن من المخافات .

الـغـلّ : الحقد والضغينة .

السـرر : جمع سرير وهو المكان المهيأ لراحة الجالس عليه ، وإدخال السرور على قلبه .

متقابلين : لا يرى بعضهم قفا بعض ، بل يقابل وجهه وجه أخيه .

النصب : الإعياء والتعب .

التفسير :

٤٥ – إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ .

تحدثت الآيتان السابقتان عن جهنم وعذابها ، ومن شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الضالين ، ونعيم المتقين ، فبيَّن هنا : أن المتقين فى جنات وعيون .

والتقوى : هى : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : التقوى هى : ذوبان الحشا ، لما سبق من الخطا .

وقيل : التقوى هى : ألا يراك حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك .

ونخلص من ذلك : إلى أن التقوى هى : طاعة الله والتزام أوامره ، وترك ما نهى عنه .

والجنات : هى: البساتين والحدائق ، والمنازل الكريمة ، والعيون هى: عيون الماء والخمر والسلسبيل والتسنيم ، وغير ذلك مما ذكر أنه من شراب الجنة[٢٧] .

قال تعالى : مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ ... (محمد: ١٥) .

٤٦ – ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ .

أى : يقال لهم: ادخلوها سالمين من الآفات ، مسلمًا عليكم ، آمنين من كل خوف وفزع ، لا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

٤٧ – وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ .

أى : أخرج الله ما كان فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء ، أو العداوة والبغضاء ؛ فصاروا إخوانا متحابين ، جالسين على سرر متقابلين ، لا ينظر الواحد منهم إلى ظهر أخيه ، وإنما ينظر إلى وجهه فهم فى رفعة وكرامة .

لقد أكرم الله المتقين فى الدنيا بالمحبة والطهارة والنقاء ، وأخلص قلوبهم من الحسد والبغضاء ، فهم فى الآخرة إخوانا متحابين ، لا تشوب أخوَّتهم ضغينة أو بغضاء ، وهذا التآخى هو تآخى المصافاة والإخلاص ، وقد منحهم الله التكريم والقبول ، فهم جالسون على أسرة متقابلين يرى كل واحد منهم وجه أخيه .

جاء فى الصحيح :

عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ قال : « يخلُص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ؛ أذن لهم فى دخول الجنة »[٢٨] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر : عن علىٍّ كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى فيهم : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ .

لقد اجتهد هؤلاء الكرام ، ومرت بهم إحن وقتال ، والله مطلع على نياتهم ، فإذا دخلوا الجنة ؛ طهَّر الله قلوبهم من التحاسد على الدرجات فى الجنة ، ونزع منها كل غل ، وألقى فيها التَّوادّ والتحابّ والتصافى ، وقد روى : أن الأسرَّة تدور بهم حيثما داروا ؛ فهم فى جميع أحوالهم متقابلين ، لا ينظر بعضهم إلى أقفية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

٤٨- لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

لا ينالهم التعب ولا المشقة والأذى ؛ لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى والتحصيل، فجميع ما يشتهونه يجدونه أمامهم ، قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . (الزخرف: ٧١) .

والخلود فى الجنة خلود أبدى سرمدى دائم ، لا تنغيص فيه ولا زوال ، فهم فى عيشة راضية مُتمتعين بالنعيم الأبدى السرمدى ، لا يخافون ، ولا ينزل بهم البؤس ، ولا زوال النعمة ، قال تعالى : أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا. (الرعد: ٣٥) ، وقال سبحانه: إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ . (ص: ٥٤) ، وقال سبحانه : أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ . (الصافات: ٥٨-٦١).

★ ★ ★

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

نبئ : أخبر .

ضيف إبراهيم : يطلق على الواحد والجمع ، والأفصح فى كلمة الضيف ألاّ تثنّى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع .

وجلون : أى : خائفون ، يقال : وجل ، يوجل ، وجلاً ، أى : خاف .

فبم تبشرون : أى : فبأى أعجوبة تبشرونى ؟! وهو تعجب من كبره وكبر امرأته .

القانطين : اليائسين ، يقال : قنط ، يقنط ، قنطًا ، وقنوطًا : يئس .

الضالون : الكفار الذين لا يدركون كمال قدرته وسعة رحمته .

فما خطبكم : أى : ما شأنكم وأمركم الذى لأجله أرسلتم ، والخطب هو : الأمر الهام الذى يخاطب فيه الإنسان.

قدرنا : أى : قضينا وكتبنا .

الغابرين : أى : الباقين مع الكفرة ؛ للهلاك . يقال : غبر ، يغبر ، غبورًا ، أى : بقى ومضى ، وهو من الأفعال التى لها معنيان متضادان ، وأصله من الغبرة ، وهى بقية اللبن فى الضَّرع.

منكرون : ننكركم ولا نعرفكم .

بما كانوا فيه يمترون: يشكّون من عذاب الله أنه نازل بهم .

فأسر بأهلك : أى : فسر ليلا ، يقال : سرى ، يسرى نهارًا ، أمّا أسرى يسرى إسراء فليلا .

بقطع من الليل : ببقية منه ، أو بقطعة منه ، أو بطائفة منه .

واتبع أدبارهم : سر خلف أهلك ، وهم أمامك ، وأدبار : جمع دُبْر أو دُبُر ، وهو مؤخر الإنسان .

ولا يلتفت منكم أحد: وراءه .

وامضوا حيث تؤمرون: حيث أمرهم الله عز وجل .

وقضينا إليه ذلك الأمر: وأوحينا إليه : أن هؤلاء سيستأصلون ، وهم داخلون فى وقت الصباح .

دابر : آخر .

مقطوع : مهلك مستأصل ، وقطع الدابر كناية عن الاستئصال .

مصبحين : صباح ليلتهم .

وجاء أهل المدينة : مدينة سدوم ، وهم قوم لوط .

يستبشرون : الاستبشار : إظهار السرور ، أى : يمنُّون أنفسهم بأضياف لوط ؛ طمعا ورغبة فى إتيان المنكر ، وهو اللواط بهؤلاء الأضياف .

ضيفى : يستعمل فى المفرد والجمع .

فلا تفضحون : الفضيحة : إظهار ما يوجب العار .

ولا تخزون : لا تهينونى وتذلونى بالتعرض لضيفى .

أولم ننهك : أن تضيف أحدًا من العالمين .

هؤلاء بناتى : تزوجوا النساء ، ولا تفعلوا ما حرم الله عليكم .

لعمرك : وحياتك .

يعمهون : يتحيرون ، والعمه للبصيرة ؛ كالعمى للبصر .

الصيحة : صوت مزعج آنبعث من السماء فأهلكهم ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير : أن الصيحة: الصاعقة ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة . ا هـ .

مشرقين : داخلين فى وقت شروق الشمس .

سجيل : طين متحجر .

للمتوسمين : أى : المتفكرين المتفرسين ، الذين يعرفون حقيقة الشىء بسمته ، أى : بعلامته .

وإنها : أى: المدينة .

لبسبيل مقيم : أى : بطريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها .

الأيكة : غيضة شجر بقرب مدين ، وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار ، كثيف الغبار .

وإنهما : أى : مدينة قوم لوط ، ومدينة أصحاب الأيكة .

لبإمام مبين : لبطريق واضح يراهما الناس .

الحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة : حجرا ، ومنه حجر الكعبة .

آياتنا : هى الناقة ، وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها ، وكثرة شربها .

وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين : قيل : آمنين من عذاب الله .

الصيحة : صوت هائل أعقبه هلاكهم .

مصبحين : حين أصبحوا من اليوم الرابع .

ما كانوا يكسبون : يرتكبون من الأعمال الخبيثة .

تمهيد :

تتحدث الآيات على رحمة الله الواسعة ، ومغفرته للتائبين ، وعن عذابه المؤلم للعصاة المذنبين ، ثم فصلت ذلك الوعد والوعيد ؛ فتحدثت عن قصة إبراهيم ، والبشارة له بغلام عليم ، وقصة إهلاك قوم لوط ، بما ارتكبوا من فاحشة اللواط ، حتى صاروا كأمس الدابر ، وأصبحوا أثرًا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم ، وإهلاك أصحاب الحجر قوم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ، ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئا ، حين جاء أمره .

التفسير :

٤٩ - نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

أى : أخبر عبادى خبرًا مؤكدًا : بأن الله تعالى هو ٱلْغَفُورُ لمن استغفر وتاب ، ٱلرَّحِيمُ بعباده ؛ حيث قسّم رحمته مائة جزء ، أنزل جزءًا واحدًا فى الدنيا يتراحم به الناس ، وادّخر تسعا وتسعين جزءا ، يرحم بها عباده فى الآخرة ، كما رواه الشيخان .

٥٠ - وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ .

وأخبرهم أيضا : بأن عذابى لمن أصرّ على المعاصى وأقام عليها ، ولم يتب منها ، هو العذاب الشديد المؤلم ، ونلاحظ أن الله تعالى جمع فى هاتين الآيتين بين التبشير والتحذير ؛ ليظل العبد على قدمى الرجاء والخوف ، والأمل والعمل ، وقد تحدث القرآن الكريم عن التوبة والاستغفار ، وعن فتح أبواب الرجاء أمام التائبين ، وحارب اليأس والقنوط من رحمة الله .

وبهذا يأخذ القرآن بيد الناس إلى طريق العمل والأمل ، ويحذّرهم من المعصية والجحود ، وقد غلّب القرآن هنا جانب الرحمة ، حيث بدأ بجانب المغفرة والرحمة ، وأكد ذلك بعدد من المؤكدات ،وتكلم عن العذاب بتأكيد أقل ، مما يدل على أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه ، وأننا ينبغى أن نعتمد فى التربية على التبشير والتشجيع ، وفتح أبواب الرجاء ، ولنا أن نلجأ للعقاب عند الضرورة .

٥١ - وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ .

وأخبرهم يا محمد عن ضيوف إبراهيم المكرمين ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط.

٥٢- إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ .

دخل الملائكة على إبراهيم ، فقالوا : سلامًا ، أى : سلمت من الآفات والآلام ، سلاما ، وكان إبراهيم يكنى : أبا الضيفان ، فقال إبراهيم للضيوف : إنا خائفون منكم ؛ لأنهم دخلوا بلا إذن ، أو لما رأى أيديهم لا تمتد إلى ما قربه إليهم من الضيافة ، وهو العجل الحنيذ ، المشوى بالحجارة المحماة .

قال تعالى : فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً . (هود: ٧٠) .

٥٣- قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : لا تخف ؛ لقد جئنا إليك من أجل البشرى بغلام ذى علم وفطنة ، وفهم لدين الله ، وسيكون له شأن ؛ لأنه سيصير نبيا ،ونحو الآية قوله تعالى : وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (الصافات: ١١٢) .

٥٤- قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ .

تعجب إبراهيم من هذه البشارة مع كبر سنّه ، فقال مستفهما فى معنى التعجب : أبشرتمونى بالولد مع كبر سنى ، فبأى شىء تبشرون ، وكلمة عَلَىٰٓ هنا بمعنى : مع ، ومَسَّنِىَ بمعنى : أصابنى .

فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . أى : بأى أعجوبة تبشرننى ؟! إذ لا سبيل فى العادة إلى مثل ذلك ، فالعادة أن الشباب والرجال الأقوياء هم الذين ينجبون .

٥٥- قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : بشرناك بما هو حق ثابت ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما .

فَلاَ تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ، اليائسين ، الذين يقنطون وييئسون من فضل الله ورحمته ، وهو سبحانه على كل شىء قدير ، فقد أوجد الإنسان من تراب ، وهو قادر على إيجاد الإنسان من أى شىء كأبوين عجوزين.

والخلاصة : أنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه ، فاستفهم هذا الاستفهام التعجبىّ ، المبنىّ على السنن التى أجراها الله بين عباده ، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله ؛ فهو أجلّ من ذلك قدرا .

٥٦- قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلاَّ ٱلضَّآلُّونَ .

أى : لا ييأس من رحمة الله ؛ إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله ، الذى لا يخيِّب من رجاه.

قال القاسمى فى تفسيره :

يعنى : لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ، ولكن استبعادًا له فى العادة التى أجراها الله تعالى ، والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقعه ا هـ .

وقريب من الآية قوله تعالى على لسان يعقوب : إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (يوسف : ٨٧).

٥٧- قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ .

أى : ما شأنكم وما هو الأمر الجليل الذى جئتم من أجله ، فقد علم إبراهيم عليه السلام ، من سياق حديثهم معه ، أن لهم مهمة جليلة أخرى غير البشرى ، فالبشرى لا تحتاج إلى هذا العدد من الملائكة ، فقد اكتفى بملك واحد ، فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام .

٥٨- قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ .

أى : قالت الملائكة : إن الله أرسلنا إلى قوم مجرمين ، أى : كافرين مكذبين من قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ؛ لأن ابراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين ، كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم.

٥٩- إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ .

لقد أمرهم الله بإهلاك المجرمين ، الذين يرتكبون المنكر واللواط والشذوذ علنا ، دون تأسف أو ندم.

وأمر سبحانه وتعالى بنجاة المؤمنين جميعا ، الذين آمنوا بلوط عليهم السلام ، فهم أهله .

٦٠- إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ .

هذا استثناء من الاستثناء ، أى : استثنى المؤمنين ، أتباع لوط من الهلاك ؛ فهم ناجون بإذن الله ، واستثنى من الناجين زوجته ، التى كانت متواطئة مع قومها ، إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ . أى : الباقين مع الكفرة الهالكين ، وقد أضاف الملائكةُ التقدير فى قولهم : قَدَّرْنَآ . إلى أنفسهم ، مع أنه لله تعالى ؛ لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى ، كما يقول خاصة الملك : دبَّرنا كذا ، وأمرنا بكذا ، أى : دبرنا بأمر الملك ، وأمرنا بتنفيذ أمر الملك .

٦١، ٦٢- فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ .

تبدأ من هنا قصة الملائكة مع لوط عليه السلام ، أى : لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام وبشروه بالولد ، ذهبوا إلى لوط عليه السلام فى قرية سدوم، فأنكرهم لوط ولم يعرفهم ، وقال لهم: من أىَّ الأقوام أنتم ؟! ولأى غرض جئتم ؟!.

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ .

أى : إنكم قوم غير معروفين لدىّ ، تنكركم نفسى ، قيل : أنكر حالتهم ، وخاف عليهم من إساءة قومه؛ لمّا رآهم شبانا مردًا حسان الوجوه ، ونحو الآية قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . (هود: ٧٧) .

٦٣- قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ .

أى : قالت الملائكة لنبىّ الله لوط : لقد جئناك بما يسرُّك ، وهو عذابهم وهلاكهم ودمارهم ، الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم .

٦٤- وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ .

أى: جئناك باليقين والحق الثابت المتيقن .

وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ . فيما أخبرناك به .

وفى معنى الآية قوله تعالى : مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ . (الحجر:٨) .

٦٥- فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

أى : سر بأهلك المؤمنين بعد مضى جزء من الليل ، أو فى آخر الليل ، وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ . أى : كن على أثرهم تذودهم ، وتسرع بهم وتطلع على حالهم .

وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ . أى : لا ينظر أحد منكم إلى خلفه ؛ ليرى ما وراءه ، فيرى من الهول مالا يطيقه، أو حتى لا يرقّ لحالهم ، فى موضع لا تجوز فيه الرقّة .

وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . أى : حيث أمركم الله .

لقد أمروا بمواصلة السير ، ونهوا عن التوانى والتوقف ؛ ليكون ذلك أقطع للعلائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقى ، وهو بلاد الشام .

٦٦- وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ .

أى : أوحينا إليه وحيا مبتوتا مقضيا ، ذَٰلِكَ ٱلأَمْرَ ، ثم فصّل ذلك الأمر فقال : أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ .

أى: أن آخر هؤلاء وأولهم مستأصل وقت الصباح ، كقوله تعالى : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . (هود: ٨١) .

وتفيد الآية : أنهم يُستأصلون عن آخرهم ، فلا يبقى منهم أحد .

٦٧- وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ .

أى : جاء أهل مدينة سدوم ، قوم لوط حين علموا أن ضيوفه صباح الوجوه ؛ مسرورين مستبشرين، آملين فى ارتكاب المنكر وهو اللواط بهم ، وهذا دليل على فساد ذوقهم وشدة جرمهم ، فإنهم بلغوا درجة كبيرة من الفجور والتبجح ، والإعلان الجماعى عن رغبتهم فى هذا العمل القبيح ، وبدلا من إكرام الضيف والدفاع عنه ، نجد عندهم الرغبة فى اللواط بهم .

قيل : إن الملائكة كانوا فى غاية الحسن ، واشتهر حالهم حتى وصل إلى قوم لوط ، وكأنّ الله سبحانه وتعالى أراد اختبار قوم لوط وامتحانهم ، بإرسال ملائكة فى صورة شبان مرد صباح الوجوه ؛ ليظهر مكنون أسرارهم ، وخبايا نفوسهم ، وما يضمرونه من الرغبة الجامحة فى اللواط بهؤلاء الأضياف؛ ليكون ذلك علة كافية لهلاكهم ، حال كونهم متلبسين بجريمتهم ، أو راغبين فى ارتكاب الفعلة الشنعاء.

٦٨- قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ .

أى : قال لوط لقومه : إن هؤلاء ضيوفى ، فلا تفضحونى بارتكاب ما يؤدى إلى العار معهم ، والضيف يجب إكرامه ، فإذا قصدتموه بالسوء ؛ كان ذلك إهانة لى .

٦٩- وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ .

أى : وخافوا عقاب الله واحذروا غضبه وعذابه .

وَلَا تُخْزُونِ . ولا تذلونى بإذلال ضيفى ، ولا توقعونى فى الخزى والهوان والعار بالإساءة لهم .

٧٠- قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ .

أى : ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا فى أحد من الناس ، إذا قصدناه بالفاحشة ، ونهيناك أن تضيف أحدا، وتوعدوه بالشرّ ، وعلى لسانهم ، قال تعالى : لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ . (الشعراء: ١٦٧) .

٧١- قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

أى : إن رغبتم قضاء الشهوة ، فاذهبوا إلى زوجاتكم ؛ فالنبى أب لقومه ، أو عرض عليهم الزواج من بنتيه.

وفى سورة الأحزاب : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ ... (الأحزاب: ٦) .

٧٢- لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

أى : قال الله لمحمد ﷺ : وحياتك إن قوم لوط فى غوايتهم يتحيرون ، وفى خضوعهم لشهواتهم يعمون عن الهدى ، ويسيرون فى الضلال ، ويجوز أن تكون هذه الآية خطاب من الملائكة لنبىّ الله لوط ، تخبره : أنهم غلبت عليهم الشهوة والهوى والضلال ، فهم أسرى للغواية ، وهم أهل للعقوبة .

٧٣- فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ .

أى : أسمعهم الله صيحة العذاب المهلكة .

مُشْرِقِينَ . أى : داخلين فى وقت شروق الشمس .

٧٤- فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ .

أى : جعلنا عالى المدينة سافلها ، أى : فى أعماقها فانقلبت عليهم ، وأنزل الله عليهم حجارة من طين متحجر طبخ بالنار .

لقد مر عذابهم بثلاثة أنواع :

١- الصيحة الهائلة المنكرة .

٢- أنه جعل عاليها سافلها .

٣- أنه أمطر عليهم حجارة من سجِّيل .

٧٥- إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ .

أى : إن فى ما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب ، لدلالات للمفكرين ، الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر ، ويستدلون بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصى من عذاب بئيس بما كانوا يفعلون.

وقد روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ النبى ﷺ : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ [٢٩] .

٧٦- وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ .

أى : وإن هذه المدينة - مدينة سدوم - التى أصابها هذا العذاب لبطريق واضح ، لا تخفى على

المسافرين المارين بها ، فآثارها ما تزال باقية إلى اليوم ، في الطريق من الحجاز إلى الشام ، كما قال تعالى : وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الصافات: ١٣٧، ١٣٨) .

٧٧- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

إن في هذه القصة ، أي : فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطا وأهله ؛ لدلالة وعبرة للمؤمنين المتعظين ؛ إذ هم يعرفون أن ذلك كان انتقاما من الله تعالى لقوم لوط ، ومعجزة ونجاة لنبي الله لوط ، أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية ، وشئون أرضيه ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ من بعض أجزائها – والمؤمنون يرون أن هذا سبب ظاهر ، وأن مسبب الأسباب هو الله تعالى ، وهو على كل شيء قدير .

٧٨- وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ .

أي : إن أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ظالمون ، بسبب شركهم بالله وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ؛ فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة ، وعذاب يوم الظلة ، جزاء تكذيبهم لنبيِّهم ، وارتكابهم الموبقات ، والأيكة : الشجر الكثير الملتف .

جاء في تفسير المراغي :

أخرج ابن مردوية وابن عساكر : عن ابن عمر قال : قال رسول ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمَّتان بعث الله إليهما شعيبا » .

٧٩- فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ .

أي : انتقم الله من أصحاب الأيكة جزاء ظلمهم وكفرهم ، حيث أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهو إصابتهم بحر شديد سبعة أيام ، لا ظل فيه ، ثم أرسلت عليهم سحابة فجلسوا تحتها ، فأرسل الله عليهم نارًا فأحرقتهم ، وأمَّا أهل مدين فقد أخذتهم الصيحة .

وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ . أي : وإن كلا من قرى قوم لوط ، وبقعة أصحاب الأيكة ؛ لبطريق واضح يسلكه الناس في سفرهم ، ويهتدون به في سفرهم ، وجعل الطريق إمامًا ؛ لأنه يؤم ويتبع ؛ حتى يصل السائر فيه إلى الموضع الذي يريده .

٨٠- وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ .

يعني : ثمود ، كذبوا صالحا عليه السلام ، ومن كذَّب واحدا من الأنبياء عليهم السلام ؛ فقد كذَّب الجميع؛ لاتفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار .

والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، معروف يجتازه ركب الحج الشامى .

٨١- وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

وأريناهم آياتنا الدالة على نبوة صالح عليه السلام ، مثل : الناقة التى أخرجها الله من صخرة صماء؛ بدعاء صالح عليه السلام ، فأعرضوا عنها ، وعقروا الناقة ، وخرجوا عن طاعة الله ، ولم يعتبروا بهذه الآيات البينات .

٨٢- وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ .

وكانوا لقوتهم وغناهم ؛ يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال ، وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ؛ ليتخذوه بيوتا لهم .

وفى جاء هذا المعنى فى الآية ٧٤ من سورة الأعراف قال تعالى : وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا .

لقد كانوا فى نعمة ورفاهية ؛ فبنوا القصور الفارهة فى السهل ، والبيوت المنيعة الحصينة ، الآمنة من سطو اللصوص ، أو نقب الناقبين فى الجبال ؛ فوجب عليهم أن يشكروا نعم الله عليهم ، قانعين بهذا الفضل ، وأن يمتنعوا عن الفساد والعدوان .

وقد مرّ عليه الصلاة والسلام بهذه البيوت ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، فغطى رأسه بثوبه ، وأسرع بدابَّته ، وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذَّبين ، إلاَّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم! »[٣٠] .

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، وجاء فى صفوة التفاسير أيضا :

وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ .

أى : كانوا ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتا ، آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ، وقال الفرَّاء : ءَامِنِينَ أن يقع سقفهم عليهم .

٨٣- فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ .

أى : أهلكهم الله صباحا فى وضح النهار ، عيانا جهارًا ، حيث أخذتهم صيحة الهلاك ، حين كانوا

فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب ، كما جاء فى قوله تعالى : فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . (هود: ٦٥) .

فهلكوا فى ديارهم جاثمين على ركبهم من الهول ، دون أن يغنى عنهم شيئا ، ما كانوا يكسبونه من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال ، وهكذا ضاع تحصنهم فى الجبال ، وأمانهم المزيف ، ومنعتهم بالسهول والجبال ، حين أعرضوا عن هدى السماء ؛ فاستحقوا عقاب الله .

٨٤- فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

أى : فما دفع عنهم ما نزل بهم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ . من نحت البيوت ، وجمع الأموال ، وكثرة العَدد ، وجمع العُدد ، بل خرُّوا جاثمين هلكى ، حين حلّ بهم عذاب الله .

★ ★ ★

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات :

بالحق : بالعدل والإنصاف ، والحكمة والمصلحة .

الساعة : يوم القيامة .

الصفح : ترك التثريب واللوم .

الصفح الجميل : ما خلا من العتب .

التفسير :

٨٥ – وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ .

تأتى هذه الآية كأنها تعقيب على هلاك السابقين من الأمم السابقة ، فالله تعالى له نواميس كونية، وقوانين إلهية ، ومن هذه النواميس : خلق الكون كله بالعدل والحكمة والإنصاف والحق ، ومن هذه النواميس : نصر المؤمنين والمرسلين ، وإهلاك المكذبين ، وفى الآية تنبيه إلى التأمل فى هذا الكون بكل ما فيه من السماء والأرض ، وَمَا بَيْنَهُمَآ ، من الفضاء والهواء والإنسان ، فقد خلق الله هذا الخلق بالحكمة والعدل ، ومن الحكمة والعدل : إثابة الطائع وتعذيب العاصى ، فما أصاب المرسلين من النصر ، وما أصاب المكذبين من الهلاك ، متسق مع قوانين الله العادلة .

وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ . أى : لا تأس يا محمد من تكذيب قومك ؛ فالقيامة حق ثابت ، وسوف ينالون جزاءهم العادل فى الآخرة ، فاصفح عنهم ، بلا عتاب ولا لوم، قال تعالى : فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الزخرف: ٨٩) .

وقال تعالى : فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة: ١٠٩) .

٨٦- إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ .

أى : إن ربك هو الذى رعاك وآواك ، ونصرك وأيدك ، هو كثير الخلق ، كثير العلم ؛ ففوض الأمور إليه، وتذرع بالصفح الجميل والحلم ، فهو سبحانه خالق الكون ، وخالق النفوس ، وهو العليم بطباعها ، فالصفح والعفو من شأنه أن يستميل الآخرين ، إلى دعوتك ورسالتك ، وقد أثمرت هذه التوجيهات الحكيمة ثمرتها ، ففُتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، واستجاب الله دعاء رسوله الأمين حين قال : «اللهم ، اهد قومى ؛ فإنهم لا يعلمون » .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩) ﴾

المفردات :

سبعا من المثانى: أى : سبع آيات وهى : الفاتحة ، وقيل : سبع سور ، وهى : الطوال ، وسابعها الأنفال والتوبة، والمثانى من التثنية ، فإن كل ذلك تثنى وتكرر قراءته .

أزواجا منهم : أى أشباها ، وأقرانا من الكفار .

واخفض جناحك للمؤمنين: يراد به : التواضع واللِّين ، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضمّ فرخه إليه ، بسط جناحه له ، والجناحان من الإنسان : جانباه .

النـــذيـــر : المخوِّف بعقاب الله من لا يؤمن به .

كما أنزلنا على المقتسمين: أي : مثل العذاب الذى أنزلناه على المقتسمين ، وهم رجال اقتسموا مداخل مكة أيام الحج؛ لينفِّروا الناس من الإسلام ، وقال الطبرى : **المقتسمين :** اليهود والنصارى ، وكان اقتسامهم : أنهم اقتسموا الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

الذين جعلوا القرآن عضين: فرقا متفرقه مأخوذه من قولك : عضّيت الشيء إذا فرقته ، فقال بعضهم : سحر ، وقال بعضهم: شعر ، وقال بعضهم : كهانة ، وعنى بـ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ : كفار قريش.

فاصدع بما تؤمر : أي : اجهر بما تؤمر من : صَدَعَ بالحجة ؛ إذا تكلم بها جهارا .

إنا كفيناك المستهزئين: الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ ويسخرون ، فأهلكهم الله كلّهم يوم بدر .

يضيــق صـدرك : ينقبض من الحسرة والحزن .

فسبح بحمد ربك : أى : فافزع إلى ربك بالتسبيح والتحميد .

الســاجـديـن : المصلِّين .

اليـــقين : الموت ، وسمى به ؛ لأنه أمر متيقن لا شك فيه .

التفسير:

٨٧ – ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ .

أى : ولقد أعطيناك وأكرمناك بسبع آيات ، هى: الفاتحة التى تثنى وتكرر فى كل صلاة ، وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم . وتسمّى الفاتحة : أم القرآن ، وأم الشيء أعلاه وأهمّه ، ومنه : أم القرى ، وتسمى: السبع المثانى ؛ لأنها سبع آيات تكرر فى الصلاة ، وقيل : سميت مثانى ؛ لأنها قسمان ، قسم ثناء على الله، وقسم دعاء له .

وأيضا النصف الأول منها: حق الربوبية ، وهو الثناء .

والنصف الثانى : حق العبودية ، وهو الدعاء .

وفى الحديث: أن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ؛ قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، وإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ؛ قال الله تعالى : أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال العبد : ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ؛ قال الله تعالى: مجدنى

عبدى ، فإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ؛ قال الله تعالى : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ ؛ قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل »[٣١] ، أخرجه مسلم .

وقال ابن عباس : السبع المثانى هى: السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ..

وعطف القرآن على السبع المثانى ، من باب عطف العام على الخاص ، وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم ؛ لمزيد فضلها ، على نحو ما جاء فى قوله تعالى : وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ . (البقرة: ٩٨) .

٨٨- لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

لا تنظر أيها الرسول الكريم إلى ما يتمتع به الأغنياء ، من اليهود والنصارى والمشركين ، من زينة الدنيا وزخرفها ؛ فإن الله قد أعطاك الفاتحة والقرآن العظيم وهما خير عطاء ، والخطاب فى الآية للرسول ﷺ ، والمراد : أمته ، أى : لا تنظروا إلى نعيم الدنيا الذى يتمتع به المشركون واعتزُّوا بإسلامكم وما معكم من القرآن والإيمان . قال أبو بكر رضى الله عنه : من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدًا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ؛ فقد صغّر عظيما ، وعظم صغيرا .

جاء فى تفسر القاسمى :

أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .

أى : أصنافا من الكفار متمنيا أن تكون مثلهم ، فإنه مستحقر بالنسبة لما أوتيته .

وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .

أى : لا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا . اهـ .

قال تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . (البقرة: ٢٧٢) ، وقال سبحانه : لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . (الشعراء: ٣) .

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

أى : تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين ، وألن جانبك لمن آمن بك ، واستغن بهم عن إيمان الأغنياء

الأقوياء ، فهذا هو قدرك ومهمتك ، قال تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ... (آل عمران: ١٥٩) ، وقال سبحانه فى وصف أصحاب النبى ﷺ : أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . (الفتح: ٢٩) ، وقال تعالى : أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ . (المائدة: ٥٤) .

٨٩- وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ .

أى: اجهر برسالتك ، وبلّغ دعوتك ، وأدّ مهمتك قائلا :

إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ . إنى منذر الكافرين بالعذاب ، وأنا أحذر من لم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر.

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا. (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

ويتضمن المعنى أيضا : إنى أحذِّر الكافرين من أهل مكة ، أن يصيبهم ما حل بالأمم المتقدمة المكذبة لرسلها ، وما أحاط بهم من انتقام وعذاب .

جاء فى الصحيحين :

أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه، فقال: ياقوم ، إنّى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا . وكذبه طائفة منهم ؛ فأصبحوا مكانهم ، فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذّب ما جئت به من الحق »[٣٢] .

٩٠- كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ .

تحتمل هذه الآية المعانى الآتية :

١- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ، كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى : التوراة والإنجيل، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزَّءوه أجزاء ، فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما ، أخرج ذلك البخارى وغيره .

٢- المعنى الثانى :

أن يتعلق : كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ . بقوله تعالى : وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ .

أى : وأنذر قريشا بالعذاب مثل ما أنزلنا على المقتسمين – يعنى : اليهود – وهو ما جرى على قريظة والنضير ، فجعل المتوقع بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز ؛ لأنه إخبار بما سيكون ، وقد كان[٣٣] .

٣- المعنى الثالث :

أى : أنذر الكافرين بالعذاب ؛ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ .

أى : مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين ، وهم أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله : لنبيتنّه وأهله ، أى : نقتلنهم ليلا ، فأخذتهم الصيحة ، فالاقتسام من القسم لا من القسمة[٣٤] .

٤- المعنى الرابع :

أنذر قريشا بعذاب مثل ما أنزلنا على المقتسمين ، وهم : الاثنا عشر ، اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فتعدوا فى كل مدخل متفرقين ؛ لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ ؛ يقول بعضهم : لا تغتروا بالخارج منا ؛ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر ، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بآفات، كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب وغيرهم[٣٥] .

٩١- ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ .

أى : أجزاء جمع: عِضه يعنى: كفار مكة ، قالوا : سحر ، وقالوا : كهانة ، وقالوا : أساطير الأولين .

أو المعنى : الذين جعلوا القرآن أصنافا ، صنف منه سحر ، وصنف منه شعر ، وصنف منه كهانة، أو آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وعملوا ببعض وتركوا بعضا ، بتواطؤ العلماء والزعماء .

٩٢ ، ٩٣- فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أى : فلنسألن الكفار جميعا ، سؤال توبيخ لهم ، على ما كانوا يقولون ويفعلون ، وسنجازيهم عليهما الجزاء الأوفى ، وعن أبى العالية: يسأل العباد عن خلتين : عما كانوا يعبدون ، وعمَّاذا أجابوا المرسلين[٣٦].

ويمكن أن تكون الآية عامة ، فى سؤال جميع الخلائق عن أعمالهم كبيرها وصغيرها ، جليلها وعظيمها .

روى ابن أبى حاتم : عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ: « يا معاذ ، إن المرء يسأل يوم القيامة ، عن جميع سعيه ؛ حتّى كُحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينك يوم القيامة ، وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وعن ابن عباس قال: لا يسألهم الله هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا؟![٣٧] .

جاء فى تفسير ابن عطية :

وقوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . ضمير عام ، ووعيد محض يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه ؛ فالكافر يُسأل عن : لا إله إلا الله ، وعن الرسل ، وعن كفره وقصده ، والمؤمن العاصى يسأل عن تضييعه ، والإمام عن رعيته ، وكل مكلف عما كلِّف به ، وفى هذا أحاديث[٣٨] .

٩٤ ، ٩٥- فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ .

أى : اجهر بدعوتك يا محمد ، وبلّغ رسالتك علنا ، أو اجهر بصلاتك ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .

وجاء فى تيسير التفسير:

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ . لا تبال بما يقولون ولا يهمنك قولهم . ا هـ .

قال عبد الله بن مسعود : مازال النبى ﷺ مستخفيا بدعوته ، حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه.

إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ .

وهذه الآية كالتعليل لما سبقها ، أى : إن الله هو حارسك وولى أمرك ، وحافظك حين تجهر بالدعوة، وتعلن على الملإ : أنك رسول الله حقا ، تدعو إلى توحيد الله والتصديق برسوله وباليوم الآخر ، وقد تحقق وعد الله لنبيه ، فأهلك أعداءه من كبار المشركين ، ببوائق من الله أصابتهم ، لم يسع بها محمد ولا تكلف فيها مشقة .

(وقال عروة بن الزبير ، وسعيد بن جبير : المستهزئون خمسة نفر ، الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والأسود بن يغوث ، والحارث بن قيس)[٣٩] .

وقد ماتوا جميعا بأهون الأسباب ، وقال قوم : هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها ، كانت لهم قوة وشوكة ، وكانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ حين يرونه ، أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم .

وقد اختلف المفسرون فى عدد هؤلاء المستهزئين وفى أسمائهم ، ولا حاجة إلى شىء منها ، والقدر المعلوم : أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة ، دبَّروا الكيد لرسول الله ﷺ فأفناهم الله وأبادهم ، وجعلهم عبرة لكل من يجرؤ على الاستهزاء برسول الله ﷺ [٤٠] .

٩٦- ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

يروى : أن جبريل أومأ وأشار إلى كل واحد من هؤلاء المستهزئين ؛ فهلكوا بقدرة الله القدير ، وقد وصفهم الله بأنهم اتخذوا آلهة أخرى ، من دون الله يعبدونها ، فهم لم يقتصروا على الاستهزاء بالنبى ﷺ، بل تعدَّوا ذلك إلى عبادة آلهة أخرى غير الله .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

توعدهم الله بعذاب الدنيا ، كما توعدهم بعذاب الآخرة ، أى : فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، حين يحل بهم عذاب ربِّهم الدنيوى والأخروى .

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩- وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ .

تأتى هذه الآيات فى ختام السورة ، تصف حال رسول الله ﷺ فى مكة ، وهو بشر ، يحيط به هؤلاء المستهزءون ، من أشراف مكة يتهمونه بالسحر والجنون ، والكهانة والكذب ؛ فيضيق صدره حزنا وألما من كلمات المشركين واستهزائهم ، كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه ، ويجد فى نفسه انقباضا وضيقا فى الصدر ، وأسى وحسرة على ما حلّ به ، ثم أرشده الله تعالى ، إلى أسباب دفع الهم والحزن فقال :

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ . أى : نزه الله تعالى عما يليق به ، وأكثر من ذكره وشكره وحمده وعبادته ، والصلاة له والسجود له سبحانه .

وقد يتساءل الإنسان ، عن العلاقة بين ضيق الصدر وذكر الله والسجود له ؟!

والجواب : أن المؤمن إذا لجأ إلى الله بالذكر والعبادة والثناء عليه والصلاة والسجود له ؛ فإن الله تعالى يشرح صدره وييسر له أمره ويلهمه رشده[٤١] .

قال تعالى : **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا** . (الطلاق: ٤) .

وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر ؛ فزع إلى الصلاة ، روى الإمام أحمد عن ابن عمار : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ؛ أكفك آخره » .

وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ .

أى : أخلص فى العبادة والتبتل والطاعة طول عمرك ، حتى يأتيك الموت ، وتلقى الله مؤمنا به متيقنا بوجوده .

وأكثر المفسرين : على أن المراد باليقين هنا : الموت ، أى : اعبد ربك طوال حياتك إلى نهاية عمرك، وفى هذا دليل على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على المرء مادام ثابت العقل .

روى البخارى : عن عمران بن حُصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع ؛ فقاعدا، فإن لم تستطع ؛ فعلى جنب »[٤٢] .

وجاء في تفسير ابن عطية ما يأتي :

و ٱلْيَقِينُ : الموت ، بذلك فسّره هنا ابن عمر ومجاهد وقتادة والحسن وابن زيد ، وليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمترى فيه عاقل فسمَّاه هنا يقينًا تجوُّزا ، أى : يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه ، وهذه الغاية معناها : مدة حياتك ، ويحتمل أن يكون المعنى : حتى يأتيك اليقين فى النصر الذى وعدته[٤٣].

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الحجر

١- وصف القرآن الكريم .

٢- إبراز المصير المخيف الذى ينتظر المكذبين .

٣- إقامة الأدلة على وجود الله ، بما نراه من مشاهد الكون فى السماء والأرض ، والجبال ، والنبات، والرياح ، والماء ، والحياة والموت .

٤- قصة آدم وإبليس ، ولمحات من قصص الأنبياء ، وإظهار مصير الغاوين فى النهاية والمهتدين.

٥- بيان : حال أهل الجنة ، وأهل النار يوم القيامة .

٦- الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ، الملتبس بالساعة ، وما بعدها من ثواب وعقاب .

٧- ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثانى والقرآن العظيم .

٨- نهى النبى والمؤمنين عن تمنّى زخرف الدنيا وزينتها .

٩- الدعوة للدين ، والجهر بالدعوة ، وعدم مبالاة المشركين .

١٠- التسبيح والعبادة والالتجاء إلى الله فى الشدائد .

★ ★ ★



تفسير سورة النحل

دروس من سورة النحل

عرض إجمالي للسورة :

سورة النحل سورة مكية ، وعدد آياتها « ١٢٨ » آية ، وهى سورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ، ولكنها مليئة حافلة ، موضوعاتها الرئيسة كثيرة منوعة ، والإطار التى تعرض فيه واسع شامل .

وهى كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية ، والوحى والبعث ، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة ، تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التى تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ، ودين محمد ﷺ ، وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال ، وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم ، وتلم بموضوع التحليل والتحريم ، وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع ، وتلم بالهجرة فى سبيل الله ، وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان ، والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة ، وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها .

فأما الإطار الذى تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذى تجرى فيه الأحداث فهو فسيح شامل.. هو السماوات والأرض ، والماء الهاطل ، والشجر النامى .. والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار ، وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها ، والأخرى بأقدارها ومشاهدها ، وهو الغيب بألوانه وأعماقه فى الأنفس والآفاق .

فى هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير ، حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار ، ليست فى جلجلة سورة الأنعام وسورة الرعد ، ولكنها فى هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة فى الكيان البشرى ، وتتجه إلى العقل الواعى كما تتجه إلى الوجدان الحساس إنها تخاطب العين ؛ لترى ، والأذن ؛ لتسمع ، واللمس ؛ ليستشعر ، والوجدان ؛ ليتأثر والعقل ؛ ليتدبر ، وتحشد الكون كله : سماءه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره ، وفجاجه وأنهاره، وظلاله وأكنافه ، ونبته وثماره ، وحيوانه وطيوره ، كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه .. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التى لا يغلق أمامها إلا القلب الميت ، والعقل المنكوس ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله فى الكون وآلائه على الناس ، كما تتناول مشاهد القيامة، وصور الاحتضار ومصارع الغابرين ، تصاحبها اللمسات الوجدانية التى تتسرب إلى أسرار الأنفس، وإلى أحوال البشر وهم أجنة فى البطون ، وهم فى الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم فى حالات الضعف والقوة ، وهم فى أحوال النعمة والنقمة ، كذلك تتخذ السورة الأمثال ، والمشاهد ، والحوار ، والقصص الخفيفة، أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التى تلون جو السورة كله ، فهى : الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير .. كلها متداخلة ، فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر لا تلبى ضروراتهم وحدها ، ولكن تلبى أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة، وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستريح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون ، ومن ثم تتراءى فى السورة ظلال النعمة، وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها ؛ والتعقيب بها فى مقاطع السورة وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج وأظهرها نموذج إبراهيم :

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (النحل : ١٢١) .

كل أولئك فى تناسق ملحوظ بين الصور والأفكار ، والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نشاهده فى أثناء استعراضنا لأجزاء السورة .

التوحيد فى السورة

تبدأ سورة النحل بآية مشهورة تقال كثيرا عندما يحين الأجل ويقف الإنسان عاجزا أمام حوادث القدر، يقول سبحانه :

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (النحل: ١) .

ومن أسباب نزول هذه الآية : أن أهل مكة كانوا يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخر. وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل العذاب ؛ زادوا استعجالا ، وزادوا استهزاء واستهتارا ، وحسبوا أن محمدا يخوفهم بما لا وجود له ولا حقيقة ؛ ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن .

نعم الله

تسترسل الآيات فى سورة النحل تستعرض نعم الله سبحانه على الإنسان ؛ فتذكر خلق السماوات والأرض والإنسان ، والأنعام والنبات ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والشمس والقمر والنجوم ، وهى ظواهر طبيعية ملموسة ولكننا إذا قرأنا الآيات من ٣ إلى ١٨ فى سورة النحل نجد أننا أمام لوحة كونية معروضة تنتقل بالإنسان من مشهد إلى آخر وكل مشهد يدلّ على وحدانية الخالق ، ووحدانية المنعم . وتعرض الآيات هذه النعم فوجا فوجا ومجموعة مجموعة بادئة بخلق السماوات والأرض فيقول سبحانه :

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . (النحل: ٣) .

فالحق قوام خلقهما والحق قوام تدبيرهما ، والحق عنصر أصيل فى تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما ؛ فما من شيء من ذلك كله عبث ولا جزاف ، إنما كل شيء قائم على الحق وملتبس به وسائر فى النهاية إليه .

ثم تستعرض الآيات نعمة خلق الأنعام ، والأنعام المتعارف عليها فى الجزيرة العربية كانت هى : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز . وقد أباح الله أكلها أما الخيل ، والبغال ، والحمير ؛ فللركوب والزينة ولا تؤكل ، ثم يجيء التعقيب على هذه النعمة يقول سبحانه :

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٨) .

ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة. إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ومقدرات الحياة كلها ، ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل، استقباله بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة .

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان ، والقرآن يهيئ القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجر حين يقول :

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

والفوج الثانى من آيات الخلق والنعمة ، هو :

إنزال الماء وإنبات النبات والمرعى والزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار .

والفوج الثالث من أفواج الآيات :

تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وكلها ذات أثر حاسم فى حياة الإنسان ومن شاء فليتصور نهارا بلا ليل أو ليلا بلا نهار ، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون ، كل أولئك طرف من حكمة التدبير ، وتناسق النواميس فى الكون كله . يدركه أصحاب العقول التى تتدبر وتعقل :

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (النحل: ١٢) .

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان :

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . (النحل: ١٣) .

امتن الله على عباده بما خلق لهم فى الأرض من ألوان المنافع ، وبما أودعه فيها للبشر من مختلف المعادن التى تقوم بها حياتهم فى بعض الجهات وفى بعض الأزمان ولفت أنظارهم إلى هذه الذخائر المخبوءة فى الأرض ، المودوعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوما بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم فى حينها ووقت الحاجة إليها ، وكما قيل : إن كنزا منها قد نفد أعقبه كنز آخر غنى ، من رزق الله المدخر للعباد قال تعالى :

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

ثم امتن سبحانه على عباده بالبحر المالح وما يشتمل عليه من صنوف النعم ؛ فمنها : اللحم الطرى من السمك وغيره للطعام ، وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان وغيرها من الأصداف والقواقع .

ومنها : مرور السفن تمخر عباب البحر ، وتيسر المصالح وتبادل المنافع بين الناس قال تعالى :

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل: ١٤) .

وعندما ينتهى استعراض النعم يبين القرآن : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق وأن نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . (النحل : ١٨) .

وحدة الألوهية

تتعرض الآيات من ٢٢ إلى ٥٠ فى سورة النحل ، لتقرير وحدة الألوهية فيقول سبحانه :

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .

وكل ما سبق فى السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدى إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة وهى : أن هذا الكون البديع المنظم لا يحفظ نظامه إلا إله واحد والذين لا يسلمون بهذه الحقيقة ؛ قلوبهم منكرة ؛ فالجحود صفة كامنة فيها ، والعلة أصيلة فى نفوسهم المريضة ، وطباعهم المعاندة المتكبرة عن الإقرار الإذعان والتسليم .

وتختم هذه الآيات بمشهد مؤثر ؛ مشهد الظلال فى الأرض كلها ساجدة لله ومعها ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار وامتلأت بالخوف من الله والطاعة لأمره بلا جدال. هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المتكبرة قلوبهم فى مفتتح هذه المجموعة من الآيات .

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين للوحى والقرآن ؛ إذ يزعمون : أنه أساطير الأولين ، ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله ؛ إذ يدعون : أن الله أراد منهم الشر وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة ؛ إذ يقسمون جهدهم : لا يبعث الله من يموت، ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا ، ويعرض فى ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرءون من تلك المقولات الباطلة كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ويخوفهم أخذ الله فى ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون وهم فى تقلبهم فى البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب .

إلى جوار هذا يعرض صورًا عن مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء... وينتهى هذا الدرس بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة فى الأرض والسماء والسياق القرآنى يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع – ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة – أى : الراجعة بعد امتداد – وهى حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب فى المشاعر والأعماق ، ويرسم المخلوقات داخرة أى : خاضعة خاشعة ويضم إليها ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة ويضيف إلى الحشد الكونى .. الملائكة فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود ، قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (النحل: ٤٩ ، ٥٠) .

أدلـة الـوحـدانيــة

تستمر الآيات من ٥١ إلى ٧٦ فى سورة النحل فى إثبات قضية الألوهية الواحدة التى لا تتعدد ، تبدأ فتقرر وحدة الإله ووحدة المالك ، ووحدة المنعم فى الآيات الثلاث الأولى متواليات وتختم بمثلين تضربهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء ولا يملك شيئا .. هل يستوون ؟! فكيف يسوِّى الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؛ فيقال : هذا إله وهذا إله ؟! .

وفى خلال هذ الدرس تعرض الآيات نموذجا بشريا للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده، وإذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به غيره .

وتعرض الآيات صورا من أوهام الوثنية وخرافاتها فى تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدعاة، فى حين أنهم لا يردون شيئا مما يملكونه على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه وفى نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل: ٥٨) .

وفى الوقت الذى يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق : بأن لهم الحسنى ، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيرا وهذه الأوهام التى ورثوها من المشركين قبلهم ، هى التى أرسل الرسول ﷺ ، يبين لهم الحقيقة فيها ، وليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور اليقين ثم تأخذ الآيات فى عرض نماذج من صنع الألوهية الحقة فى تأملها عظة وعبرة ؛ فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهى هى دلائل الألوهية لا سواها ؛ فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها والله يسقى الناس – غير الماء – لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم ، والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا ، والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس .

اســم الســورة

وقد سميت هذه السورة بسورة النحل للإشارة إلى الأمر العجيب الدقيق فى شأن النحل فهى تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق ، وهذا الإلهام لون من الوحى تعمل النحل بمقتضاه وهى تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء فى بناء خلاياها ، أو فى تقسيم العمل بينها ، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى .

وهى تتخذ بيوتها حسب فطرتها فى الجبال والشجر ، وما يعرشون أى : ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة ، بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق ،

قال تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (النحل: ٦٨ ، ٦٩) .

وقد سئل الإمام الشافعي : بم عرفت الله ؟ قال : بالنحلة ؛ نصفها يعسل ونصفها يلسع . وفى الحديث: «المؤمن كالنحلة» أى : أنه خفيف الظل مترفع فى هدفه ، لا يأكل إلا طيبا ، ولا يترك إلا أثرا حسنا ، وإذا وقع على شيء لم يكسره . وتستمر الآيات فى عرض أدلة القدرة الإلهية فتذكر : أن الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجا لا يعلم شيئا ، والله فضل بعضهم على بضع فى الرزق ، والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا ، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة ، وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا فى السماوات والأرض ، ويجعلون لله الأشباه والأمثال !

هذه اللمسات كلها فى أنفسهم وفيما حولهم ، يوجههم إليها ؛ لعلهم يستشعرون القدرة ، وهى تعمل فى ذواتهم ، وفى طعامهم ، وفى شرابهم ، وفى كل شيء حولهم .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

مظاهر القدرة الإلهية

تتحدث الآيات من ٧٧ إلى ٨٩ فى سورة النحل عن مظاهر القدرة الإلهية فتوضح عظمة الخالق وفيض نعمته وإحاطة علمه وتركز الآيات فى هذا الشوط على قضية البعث . والساعة إحدى أسرار الغيب ، الذى يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله فى السماوات والأرض ، وفى الأنفس والآفاق:

غيب الساعة التى لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهى عليه هينة ، وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . (النحل: ٧٧) .

وغيب الأرحام والله وحده هو الذى يخرج الأجنة من هذا الغيب لا تعلم شيئا ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة ؛ لعلهم يشكرون نعمته .

وغيب أسرار الخلق ويعرض منها تسخير الطير فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله .

يلى هذا الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهى بجانب تلك الأسرار وفى جوها ، نعم السكن والهدوء والاستظلال فى البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار .

وتذكر الآيات من نعم الله : الظلال ، والأكنان وهى ما يستر الإنسان ويغطيه والسرابيل وهى ما يلبسه الإنسان من قميص يقيه الحر والبرد أو درع تقيه بأس الحرب :

كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ . (النحل: ٨١) .

ثم تفصل الآيات أمر البعث فى مشاهد يعرض فيها المشركون وشركاؤهم والرسل شهداء عليهم والرسول ﷺ شهيد على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة فى جو البعث والقيامة .

الأوامر والنواهى

تتعرض الآيات من ٩٠ إلى ١١١ فى سورة النحل لشرح بعض أهداف القرآن ويبدأ هذا الدرس بآية شهيرة يرددها الخطباء على المنابر فى نهاية خطبة الجمعة وهى قوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (النحل: ٩٠) .

وفى هذا الدرس أمر بالوفاء بالعهد ونهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها وكلها من مبادئ السلوك الأساسية التى جاء بها القرآن الكريم .

وفى هذا الدرس بيان : الجزاء المقرر لنقض العهد ، واتخاذ الأيمان ؛ للخداع والتضليل ، وهو العذاب العظيم ، والبشرى للذين صبروا ومضاعفة الثواب لهم .

ثم تذكر الآيات : بعض آداب تلاوة القرآن . وهى : الاستعاذة بالله من من الشيطان الرجيم لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم ، كما تذكر بعض تقولات المشركين عن القرآن فمنهم من يرمى الرسول ﷺ بافترائه على الله ومنهم من يقول : إن غلاما أعجميا هو الذى يعلمه هذا القرآن .

وفى نهاية الدرس يبين : جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان . ويبين : جزاء من فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . وكل أولئك تبيان وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

وفى الآيات إباحة لمن أكره على الكفر أن ينطق لسانه به ما دام القلب عامر بالإيمان ؛ روى ابن جرير بإسناده أن العذاب لما اشتد على عمار بن ياسر ؛ نطق ببعض ما أرادوا ، ثم شكا ذلك إلى النبى ﷺ ؛ فقال له النبى ﷺ : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئنا بالإيمان ؛ قال النبى : « إن عادوا فعد » فكانت رخصة فى مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان كذلك صنعت سمية أم عمار بن ياسر ، وهى تُطعن بالحربة فى موضع العفة حتى تموت ، وكذلك صنع أبوه ياسر .

وقد كان بلال رضوان الله عليه يعذب أشد العذاب حتى لتوضع الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويطلب منه أن ينطق بكلمة الشرك فيأبى وهو يقول : أحد أحد .

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

ختام سورة النحل

يتحدث الربع الأخير فى سورة النحل عن مثل ضربه الله ؛ لتصوير حال مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم ؛ لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضربه لهم ، حين يقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ . (النحل: ١١٢) .

وهى حال أشبه شىء بحال مكة ؛ جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو فى جوار بيت الله الكريم ، وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة فى حراسته وحمايته آمنون مطمئنون ، كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان من الحجيج ومع القوافل الآمنة مع أنهم فى واد قفر جدب غير ذى زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل ، فإذا كذب أهل مكة بدعوة محمد وجحدوا رسالته ؛ استحقوا العقاب ، والعذاب ، ولباس الجوع والخوف ؛ جزاء كفرهم وعنادهم .

ثم ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التى حرمتها قبائل مكة على أنفسها اتباعا لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها وذلك لون من الكفر بنعمة الله وعدم القيام بشكرها يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله ، وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة .

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث ، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم . وقد جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم . ولم يكن محرما على آبائهم فى عهد إبراهيم الذى كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يكن من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده حتى حرم الله بعضها على اليهود فى صورة عقوبة لهم خاصة ، ومن تاب من بعد جهالته فإن الله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد ﷺ امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ؛ فعادت الطيبات كلها حلالا وكذلك السبت الذى منع فيه اليهود من الصيد ، فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ، ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده ؛ فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، وأن يلتزم قاعدة العدل فى رد الاعتداء بمثله دون تجاوز .. والصبر والعفو خير ، والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين ؛ لأن الله معهم ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح .

وفى أسباب نزول القرآن : أن الآيات الأخيرة من سورة النحل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب حين استشهد فى غزوة أحد . وفى هذه الغزوة مثَّل المشركون بالمسلمين فبقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم وما تركوا أحدًا غير ممثول به غير حنظلة بن الراهب ، كان الراهب أبو عامر مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك، ثم وقف رسول الله على جثة حمزة وقد مثل به فرآه مبقور البطن ؛ فقال : « أما والذى أحلف به ، إن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك ! » فنزل قوله تعالى :

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّـٰبِرِينَ . (النحل: ١٢٦) .

ولما نزلت هذه الآية ؛ كفر النبى عن يمينه وكف عما أراده ، ومن هذا ذهبوا إلى أن خواتيم سورة النحل مدنية ، ولا خلاف فى تحريم المثلة وقد وردت الأخبار بالنهى عنها حتى بالكلب العقور .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾

المفردات:

أتى أمر الله: قرب ودنا، وهذا وعيد للمشركين.

أمر الله: العذاب والهلاك لهؤلاء المشركين.

الروح: الوحي والرحمة.

من أمره: بأمره ومن أجله.

على من يشاء من عباده: الذين اصطفاهم للرسالة.

أن أنذروا: أي: خوفوا عبادى سطوتى وعقوبتى لهم على كفرهم.

أنه لا إله إلا أنا: لا إله إلا هو سبحانه، ولا تصلح الألوهية إلا له.

فاتقون: أي: خافوا عقابى؛ لمخالفة أمرى وعبادة غيرى.

تمهيد:

كان رسول الله ﷺ يخوِّف المشركين بعذاب الدنيا تارة، وبعذاب الآخرة تارة، ثم إنَّهم لما لم يشاهدوا ذلك؛ احتجوا وكذَّبوا رسول الله ﷺ، وقالوا: أين العذاب الذى وعدتنا بوقوعه ؟! وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال:

وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ. (العنكبوت: ٥٣).

وقال سبحانه: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ. (يونس: ٤٨).

وقد حكى القرآن عنهم قولهم:

وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ. (الأنفال: ٣٢)

وقد بين القرآن : أن لله نواميس وسننا فى إنزال العذاب بالناس ، وفى تأجيل عقوبتهم إلى حين ، قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . (النحل: ٦١) .

جاء فى كتب التفسير ما يأتى :

روى : أنه لما نزل قوله تعالى : ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ . (القمر: ١) .

قال الكفار فيما بينهم : إن هذا يزعم : أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون ؛ حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت ؛ قالوا ما نرى شيئا مما تخوفنا به ؛ فنزل قوله تعالى : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . (الأنبياء : ١) ؛ فأشفقوا وانتظروا يومها ، فلما امتدت الأيام ؛ قالوا : يا محمد ، ما نرى شيئا مما تخوفنا به ؛ فنزل قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ؛ فوثب رسول الله ﷺ ، ورفع الناس رءوسهم ، فنزل قوله تعالى: فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .

والحاصل : أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، ولم يروا شيئا نسبوه إلى الكذب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [٤٤] .

التفسير :

١- أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ...

أى : قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فمنوط بحكم الله النافذ ، وقضائه الغالب على كل شىء ، فهو يأتى فى الحين الذى قدَّره وقضاه .

ومعنى قوله : فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر فى علمه تعالى ؛ فلله سنن ونواميس فى إنزال العذاب ، وهو سبحانه لا يعجل لعجلة العباد ، وكل شىء عنده بمقدار .

سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

ادعوا : أن عبادتهم الأصنام لتشفع لهم عند الله ؛ حتى يتخلصوا من هذا العذاب المتوقَّع ؛ فأجاب القرآن عن هذه الشبهة ، بتنزيه الله عن شركة الشركاء والأنداد .

قال الفخر الرازى :

عَمَّا يُشْرِكُونَ . يجوز أن تكون ما مصدرية ، والتقدير : سبحانه وتعالى عن شركهم ، ويجوز أن تكون

بمعنى : الذى، أى : سبحانه وتعالى عن هذه الأصنام ، التى جعلوها شركاء لله ؛ لأنها جمادات خسيسة ، فأى مناسبة بينها وبين خالق الكائنات ، ومدبّر الأرض والسماوات ؟!

٢- يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ .

سبحانه وتعالى ينزل الملائكة بالوحى والقرآن ، وهو روح القلوب وحياتها ، ينزل هذا الوحى بأمره وإرادته ، على من يصطفيهم من الأنبياء والمرسلين ، وهو سبحانه يختارهم بمعرفته وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ .

أى : أنذروا عبادى : أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغى الألوهية إلا له ، ولا يصح أن يعبد شىء سواه ، فاحذروه وأخلصوا له العباده .

ويطلق الروح على جبريل عليه السلام ، وهو أمين الوحى ، ويطلق أيضا على القرآن الكريم .

قال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤) .

وقال عز شأنه : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . (الشورى: ٥٢) .

وفى الآية إشارة إلى أن الوحى من الله تعالى إلى أنبيائه ، لا يكون إلا بواسطة الملائكة ، وفى آخر سورة البقرة آيتان من قرأهما فى ليلة ؛ كفتاه ، أى : كانتا له كفاية وحفظا من كل سوء ، وفيهما يبدأ الإيمان بالله ، ثم بالملائكة الذين يحملون وحى السماء ، ثم بالكتب المنزلة من الله ، كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، ثم بالرسل الذين نزلت عليهم هذه الكتب .

قال تعالى : ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ . (البقرة: ٢٨٥ ، ٢٨٦).

★ ★ ★

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

من نطفة : أصل النطفة: الماء القليل، والمراد بها هنا : مادة التلقيح، أي : ماء الرجل عند اختلاطه بماء المرأة .

خصيم : أى : مخاصم مجادل ، قال الطبرى: خَصِيمٌ مُبِينٌ : يبين عن خصومته بمنطقه ، ويجادل بلسانه ، وعنى بالإنسان هنا : جميع الناس .

الأنعام : هى : الإبل والغنم والبقر ، ولا يقال لها : أنعام إلا إذا كان معها الإبل .

دفء : ما يُستدفأ به من الأكسية .

ومنافع : مركب ولبن ولحم ، والحرث بها ، وحملها الماء ، ونحو ذلك .

جمال : زينة في أعين الناس ، وعظمة لديهم .

حين تريحون : حين تردُّونها بالعشى من مسارحها ، إلى مراحها ومباركها التى تأوى إليها .

وحين تسرحون : أى : حين تخرجونها بالغداة إلى مسارحها ومراعيها .

الأثقال : واحدها : ثقل وهو متاع المسافر .

شق الأنفس : مشقتها وتعبها .

وعلى الله قصد السبيل : أى : وعليه السبيل القصد ، أي : المعتدل ، فإن قصد ، يقصد ، قصدًا ، أى : استقام واعتدل، ومنه الاقتصاد ، أى : الاعتدال والتوسط ، جاء فى تفسير المراغى : يقال: سبيل قصدٌ وقاصد ، إذا أدّاك إلى مطلوبك .

ومنها جائر : أى : ومن السبل مائل عن المحجّة ، منحرف عن الحق .

تسيمون : ترعون ماشيتكم .

ذرأ : خلق ، يقال : ذرأ يذرأ .

ألوانه : أصنافه .

يذكرون : يتذكرون أن اختلافها فى الأنواع والصور والخواص لا يكون إلا بإرادة خالق حكيم.

الفلك : السفينة ، وهذا اللفظ يستوى فى المفرد والجمع .

مواخر : جمع ماخرة أى : جارية فى الماء ، وأصل المخر شق الماء ، يقال : مخرت السفن ، تمخر مخرا ، أى : جرت شاقة الماء .

ولتبتغوا : أى : ولتطلبوا .

رواسى : جمع راسية وراسٍ ، وهى : الثوابت فى الأرض مْن الجبال .

أن تميد بكم : يعنى : لئلا تميد بكم ، والميد : هو الحركة والاضطراب يمينا وشمالا .

سبلا : طرقا .

عـــــلامــــــات : أى : معالم الطرق بالنهار ، وكل علامة يستدل بها على الطريق من الجبال والفجاج وغيرها داخلة فيها .

محتوى الآيات :

تأتى هذه الآيات فى مقام الرد على المشركين ، الذين عبدوا الأصنام ، راغبين فى شفاعتهم ، فبين القرآن لهم فى هذه الآيات : طائفة من أنعم الله على عباده ، فى خلق الكون ، وخلق الإنسان ، ثم فى تسخير الأنعام له للركوب ، والأكل واللبن والزينة ... ، ثم فى إنزال الماء وإنبات النبات ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والبحار ، والجبال ، والنجوم ، وسائر النعم .

التفسير :

٣- خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تبتدئ هذه الآيات بذكر : أدلة القدرة ، وقد بُدئت بذكر الأشرف فالأشرف ، ذكر هنا السماوات ، ثم ثنى بالإنسان ، ثم ثلّث بأحوال الحيوان ، ثم ربّع بذكر أحوال النبات .. إلخ .

ومعنى الآية :

خلق الله السماوات وما فيها من أفلاك وأبراج ، وخلق الأرض وما عليها من جبال وأنهار ونبات وفجاج ...

بِٱلْحَقِّ . أى : على نهج تقتضيه الحكمة ولم يخلقها عبثا ، وقد أوجدهما على أقدار وصور وأوضاع، وخواص مختلفة قدَّرها بحكمته ، ولم يشركه فى إنشائها وإحداثها شريك ، ولم يعنه على ذلك معين .

تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزه سبحانه وتعالى عما يشركونهم معه فى الملك ؛ إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السماوات والأرض ، فلا تليق العبادة إلا له .

٤- خَلَقَ الإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ .

خلق الإنسان من نطفة ، أى : من ماء مهين ، خلقًا عجبا فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا، وجعل له السمع والبصر والقوة والإدراك والعقل ، وتدرج من الضعف إلى الشباب والقوة ، ومن القوة إلى الضعف والشيخوخة ؛ حتى يتأمل فى خلقه ، ويستدل بذلك على قدرة الخالق المبدع ، القادر على إعادته عند البعث للحساب والجزاء .

بيد أن الإنسان المخلوق يكابر ويجادل ، ويقول : مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ . (يس: ٧٨) .

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ .

إذا به مخاصم عنيف ينكر وجود خالقه ، ويكذّب رسله ، ويعمل على صدِّ الناس عن اتباعهم ، وروح الآية تشير إلى موقف كفار مكة ، وإنكارهم للبعث ، وترشدهم إلى أن الإيمان بالله هو الذى ينقّى أرواحهم، ويرشدها إلى حكمة الحكيم ، وإلى قدرة الخالق العظيم ، سبحانه وتعالى .

٥- وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

امتن الله على عباده بما خلق من الحيوانات ، وفى سورة الأنعام ذكر سبحانه : ثمانية أزواج ، هى: الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز .

من الإبل اثنين هما: الجمل ، والناقة .

ومن البقر اثنين هما: الثور ، والبقر .

ومن الغنم اثنين هما: الكبش ، والشاة .

ومن المعز اثنين هما: التيس ، والمعز .

والإنسان يستفيد بأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ، ويتخذ منها أكسية تدفئة وتستر عورته، وينتفع بلحومها وألبانها ، ويستفيد بها فى حرث الأرض وسقيها ، ويأكل من لحومها .

وانتصب الأنعام بفعل مقدر يفسره المذكور بعده ، أى : وخلق الأنعام خلقها لكم .

ومعنى الآية : ومن مظاهر قدرته ونعمه عليكم : أن خلق لكم الأنعام ، وجعل لكم فيها ما تستدفئون به من الثياب المأخوذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيكم برودة الجوّ ، وجعل لكم فيها منافع متعددة ؛ بالبيع والاستفادة بألبانها ولحومها وزينتها ، وسائر المنافع الأخرى ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . (المؤمنون: ٢١) .

٦- وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ .

للأنعام فوائد أساسية ، وهى : الأكل ، والدفء ، وشرب اللبن ، والاستفادة بها فى السقى والحرث ، وغير ذلك من المنافع ، وهناك منافع فرعية هى : جمال هذه الحيوانات ، حين تعود من مراعيها ، وقد امتلأت ضروعها باللبن ، وامتلأت بطونها بالطعام ، وتحركت فى منظر جميل مع رعاتها ، وكذلك فى الصباح حين تذهب إلى مسارحها ومراعيها ، وقدم الرواح فى العشىّ على التحرك إلى المسارح فى الصباح لأنها تعود وهى فى قمة جمالها حين تمتلئ بطونها بالطعام ، وضروعها باللبن ، وفى الصباح تذهب خاوية البطون ، خاوية الضروع .

٧- وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ ٱلأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

أى : وتحمل أحمالكم الثقيلة ، وأمتعتكم التى تعجزون عن حملها ، إلى بلد بعيد لم تكونوا ؛ لتصلوا إليه بدونها ، إلا بعد تعب شديد وجهد مضن .

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

أى : ربكم لعظيم الرأفة والرحمة بكم ؛ حيث لم يترككم تحملون أثقالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل أوجد هذه الأنعام ؛ لمنافعكم ومصالحكم .

٨- وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

أى : وخلق الخيل والبغال والحمير ، للحمل والركوب ، وهى كذلك زينة وجمال[٤٥] .

جاء فى حاشية الجمل :

والخيل : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، بل من معناه ، وهو فرس ، وسميت خيلا ؛ لاختيالها فى مشيتها، والبغال : جمع بغل وهو المتولد بين الخيل والحمير .

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان ، والله تعالى يمتن على عباده بهذه النعمة ، فالجمال المتمثل فى الزينة – عنصر له قيمة – وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات ، من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن الضرورات ، تلبية حاسة الجمال ، ووجدان الفرح ، والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .

قال القرطبى فى تفسيره :

هذا الجمال والتزيّن وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى ، أذن به لعباده ، ففى الحديث الشريف: « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل فى نواصيها الخير »[٤٦] . خرّجه البرقانى ، وابن ماجة فى السنن .

وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

أى: من وسائل المواصلات والحمل والركوب ، مالم يكن يعلمه السابقون ، وسيخلق أشياء لا نعلمها نحن ، وقد وجدت بعد نزول هذه الآية الغواصات التى تمخر عباب الماء ، والأساطيل البحرية للصيد والسياحة والحرب ، ووجدت السيارات والدبابات والمدرعات ، والناقلات العملاقة ، والقاطرات والطائرات وغيرها ، والقرآن بذلك يهيئ القلوب والأذهان للاستفادة من كل جديد . واستغلال التقدم العلمى ، ووسائل

التقنية والاختراع ، وتحديث العقل والعلم والصناعة والزراعة ؛ حتى تظل الأمّة قوية عزيزه الجانب ، قال تعالى : وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . (الأنفال: ٦٠) .

والقوة تقدر فى كل زمان بقدرها ، كانت القوة فى الرمىّ ، وتطورت إلى استخدام المدفع والدبابة والقنّاصة والطائرة والبارجة ، ولا يتم النصر إلا بتطور السلام ؛ ليكون فى قوة سلاح الخصم أو يزيد ، ومن قواعد أصول الفقه : ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب .

وحتى لا يقول بعض الناس : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها ، وإنما نصّ القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها ؛ فإن القرآن الكريم قد هيأ الأذهان والقلوب ، للاستفادة من كل نافع ومفيد حين قال : وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ.[٤٧] .

٩- وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

القصد : الاستقامة ، وٱلسَّبِيلِ : الطريق ، وقصد السبيل على تقدير مضاف ، أى : وعلى الله بيان : الطريق المستقيم ، وهو طريق الإسلام .

وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ؛ فالله سبحانه بحكمته العالية ، بين للناس : الطريق المستقيم، وهو طريق الهدى وطاعة الرحمان ، واتباع الإسلام ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ومن السبل والطرق طرق جائرة مائلة عن الاستقامة منحرفة عن الجاده ، وهى كل طريق تخالف ما جاء به خاتم الرسل ﷺ من عقائد وشرائع وآداب ، فالطريق القصد المستقيم ، يوصل إلى الإسلام ، والطريق الجائر المنحرف ، يوصل إلى الكفر والضلال ، وفى هذا المعنى قال تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . (الأنعام: ١٥٣) .

وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

لو أراد الله تعالى أن يهديكم جميعا إلى الإسلام لهداكم ، أى : لأجبركم على الهدى كالملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لاَ يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم: ٦) .

لكنه أراد سبحانه أن يخلق للإنسان العقل والإرادة والاختيار ، وحرية الفكر والتصرف ، فمن اختار طريق الهدى ؛ أعانه عليه ، ويسره له ، وأمدّه بالمعونة والتوفيق ، ومن اختار طريق الضلال والانحراف ، وآثر الهوى على الهدى ؛ تركه الله ضالا متحيرا ، وبذلك تكون هناك عدالة الجزاء يوم القيامة ، قال تعالى:

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ . (النازعات: ٣٧-٤١) .

وقال عز شأنه : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ... (يونس: ٩٩) .

وقال عز شأنه : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ... (هود : ١١٨ ، ١١٩) .

وقال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢ ، ٣) .

١٠- هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ .

تستمر هذه الآيات فى بيان : نعم الله تعالى على عباده ، أى : إن الذى أنعم عليكم بالنعم السابقة ، وسخَّر لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ، هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالاً تشربون منه، وتسقون أشجاركم وزروعكم ، التى تسيمون فيها أنعامكم ، وفيها ترعى حيواناتكم وماشيتكم .

قال الفخر الرازى :

والحاصل : أن ماء المطر قسمان :

أحدهما : هو الذى جعله الله شرابا لنا ولكل حىّ ، وهو المراد بقوله : لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ . وقد بين الله تعالى فى آية أخرى: أن هذه النعمة جليلة فقال : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ . (الأنبياء: ٣٠) .

والقسم الثانى: من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سببا لتكوين النبات ، وإليه الإشارة بقوله: وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . والمراد من الشجر : الكلأ والعشب .

قال الزجاج : كل ما نبت على الأرض فهو شجر ، وقال ابن قتيبة فى هذه الآية ، المراد من الشجر: الكلأ، وقيل : إن الإبل تقدر على رعى ورق الأشجار الكبار . اهـ .

ويمكن أن يطلق الشجر على الأشجار والنباتات ، وأتى سبحانه بلفظ فى المفيدة للظرفيه ، فى قوله تعالى: فِيهِ تُسِيمُونَ ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى هذا الشجر ، قد يكون عن طريق أكل ما تحته من الأعشاب والمرعى .

١١ - يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ .

أى : ينبت لكم بماء المطر ٱلزَّرۡعَ . كالقمح والشعير ، والذرة والفول والعدس ، وغير ذلك من الأغذية .

وَٱلزَّيۡتُونَ . الذى تستعملونه إداما فى أغذيتكم .

وَٱلنَّخِيلَ . الذى يخرج التمر بأنواعه ، وَٱلۡأَعۡنَٰبَ . التى تتلذذون بها ، وفى العنب غذاء وفاكهة وتنعم.

وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ . التى تشتهونها وتنتفعون بها ، والتى تختلف فى أنواعها ، وفى مذاقها ، وفى روائحها ، وفى ألوانها ، مع أن الماء الذى سقيت به واحد ، والأرض التى تنبت فيها متجاورة .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : إن فيما ذكر من إنزال الماء ، وإنبات أصناف الزروع والنخيل ، والأعناب والثمرات ، على اختلاف أنواعها وألوانها وأحجامها ، لدلائل على قدرة إله قادر ، قد أكمل نظام هذا الكون ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار ، والهواء والتراب والماء ؛ حتى يتكامل نظام الكون ، ويتيسَّر لهذا النبات النمو والنضج، وإفادة الإنسان والحيوان .

فمن فكّر فى أن الحبّة والنواة تقع فى الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها ، فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض ، ويخرج منها ساق ينمو ، وتخرج فيه الأوراق والأزهار ، والحبوب والثمار المختلفة الأشكال ، والألوان والخواص ؛ علم أن من هذه آثاره ؛ لا يمكن أن يشبهه شيء فى صفات كماله ، فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته ، وهى الألوهية واستحقاق العبادة[٤٨] .

وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى بنعمة إنبات النبات ونموّه ، وإحيائه الأرض بعد موتها ، وتفضله على الإنسان بإنزال الماء ، وإنبات الزروع والثمار ، متاعا للإنسان والحيوان ، فى كثير من الآيات .

قال تعالى: فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا * وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا * وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا * وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا * مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ . (عبس: ٢٤-٣٢) .

وقال تعالى : أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۚ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ . (النمل: ٦٠) .

وقال سبحانه : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الرعد: ٤) .

١٢- وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

لقد سخر الله للإنسان هذا الكون كله ، ويسر له الانتفاع بكل ما فيه ، فالليل من أجل النوم والراحة، والنهار من أجل السعى والعمل ، والشمس تمدّ الكون بالطاقة ، والقمر ينير الليل ويبدد ظلمته ، والنجوم مسخرات بأمر الله وإرادته ، فهى زينة للسماء ، وهداية للسائرين بالليل ، ورجومًا للشياطين ، فمن تفكر بعقله ؛ أدرك أن وراء هذا الكون البديع ، يدًا حانية تمسك بنظامه ، وتحفظ توازنه .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

تسخير الشمس والقمر ، تصييرهما نافعين لهم ، بحسب ما تقتضيه مصالحهم ، يتعاقبان دائما ، كالعبد الطائع لسيده لايخالف ما يأمره به ، ولا يهمل السعى فى نفعه ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ التسخير لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، أى : يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرّده ، وعدم وجود شريك له . ا هـ.

وقد قرأ ابن عامر: والشمسُ والقمرُ والنجومُ ، كلها بالرفع على الابتداء والخبر هو قوله : مُسَخَّرَٰتٌ ، وقرأ حفص عن عاصم: وَٱلنُّجُومُ بالرفع على الابتداء وقد قرأ جمهور القراء ، الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ ، بالنصب على المفعولية لفعل سخّر[٤٩] .

١٣- وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

وما خلق لكم فى الأرض ، من عجائب الأمور ، ومختلف الأشياء ، من معادن ونبات وحيوان ، على اختلاف أجناسها وأشكالها وألوانها ، وخواصها ومنافعها .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

أى : يتذكرون آلاء الله وأنعمه المتعددة ، بألوانها المختلفة ، فيشكرونه ويخبتون إليه ، قال تعالى . وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ . (الروم:٢٢) .

١٤- وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تعدد هذه الآية أربعة أنواع من منافع البحر ، فقد ذلل الله البحر المالح الهائج المتلاطم الأمواج ، للإنسان ؛ حتى يستفيد منه بالفوائد الآتية :

١- صيد السمك بكل أنواعه ؛ ليأكل الإنسان لحما طريا لذيذا ، وفى وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ؛ لأنه يسرع إليه الفساد ، فسبحان الذى جعل فى الماء المر الذى لا يشرب ، لحما طريا لذيذا .

٢- ومن فوائد البحر : استخراج اللؤلؤ والمرجان ، تتحلى بها النساء للرجال .

٣- سير السفن تمخر عباب الماء ، وتنقل الأشياء من بلد إلى بلد .

٤- الانتقال فى السفن بواسطة البحر من بلد إلى بلد ؛ طلبا للرزق والتجارة والسياحة والحج والعمرة.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

أى : ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ؛ إذ جعل ركوب البحر ، مع كونه مظنة للهلاك سببا للانتفاع وحصول المعاش .

١٥- وَأَلْقَى فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

تستمر سورة النحل التى تسمّى : سورة النعم ، فى عرض أنعم الله على عباده فتقول :

وَأَلْقَى فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .

أى : حفظ الله توازن الأرض ، وثباتها وعدم اضطرابها ؛ بالجبال الراسيات الثوابت .

قال أبو السعود فى تفسيره :

إن الأرض كانت كرة خفيفة قبل أن تخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب ، فلما خلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز ، فصارت كالأوتاد لها . ا هـ .

وقد امتن الله على عباده بالجبال فى أكثر من آية ، فالجبال كالأوتاد فى حفظ الأرض ، وتحفظ الماء فى رءوسها فى فصل الشتاء ؛ ليسيل على الوديان والوهاد فى فصول: الصيف ، والربيع ، والخريف .

والجبال مكان أمين حصين ، وملجأ للهارب ، والمعتزل عن الدنيا ، والراغب فى التأمل والعبادة ، ولأمر مَّا بدأ الوحى على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، وبدأت الهجرة من غار ثور ، وكانت معركة أُحد على جبل أحد ، وناجى الله موسى من فوق جبل الطور ، ومناسك الحج تتم بالسعى بين الصفا والمروة وهما جبلان ، ويقف الحجيج على جبل عرفات يوم التاسع من ذى الحجة ، فالجبال وسيلة للصفاء والنقاء ، والتفرغ الروحى ، وقد اهتز الجبل وغاص فى الأرض دكًا ؛ عندما تجلى الله له .

قال تعالى : وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأعراف: ١٤٣) .

وفى آخر سورة الحشر نجد عددًا من أسماء الله تعالى ، وقبلها مباشرة نجد هذه الآية .

لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر: ٢١) .

وقال تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... (لقمان: ١٠) .

وقال عز وجل : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا . (النبأ: ٦، ٧) .

وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

من كمال إعمار الأرض ، أن يسر الله فيها الأنهار والطرق ، فنجد الأنهار تنبع من مكان ، وتسير فى مكان ، وتصب فى مكان آخر.

فنهر النيل ينبع من إفريقيا ويسير طويلا فى بلاد السودان ، ويستفيد منه أهل مصر ، وكذلك الطرق التى يسلكها الناس للرعى والتجارة والسياحة ، وقد تحدُث ثلمة فى الجبل ؛ لتكون ممرًا طريقا قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . (الأنبياء: ٣١) .

لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

أى : جعل فى الأرض طرقا ومسالك ؛ لعلكم تهتدون بتلك الطرق ، إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه، فلا تضلون .

قال تعالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا . (نوح: ١٩،٢٠) .

١٦- وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

أى : ألهم الإنسان اتخاذ المعالم والأمارات ؛ لمعرفة الطرق والبلاد التى يقصدون إليها ، ومن المعالم: الجبال الكبيرة ، والآكام الصغيرة ، والعيون والأفلاج ، ومطلع الشمس ومغربها نهارا . وبالنجوم ومواقعها يهتدون ليلا ؛ للسفر فى البر والبحر ، وقرئ : **وبالنُجُم هم يهتدون** . بضم النون والجيم .

وقيل : المراد بالنجوم : الثريا ، والفرقدان ، وبنات النعش الصغرى والكبرى ، والجدى[٥٠] .

وفى الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم ؛ أصل فى معرفة الأوقات، والطرق والقبلة ، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة .

قال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء ؛ لتكون زينة للسماء ، ومعالم للطرق ، ورجومًا للشياطين، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

★ ★ ★

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات:

أفمن يخلق : أى : هذه الخلائق العجيبة فى هذا الكون ، والإنسان والحيوان والنبات وسائر النعم.

كمن لا يخلق : مثل الأصنام .

لا تحصوها : لا تضبطوا عددها .

ما تسرون : ما تخفون .

والذين يدعون من دون الله : أى : والآلهة التى يدعون من دون الله .

أيان يبعثون : أى : متى يبعثون .

لا جرم : أى . حقا .

يسرون : يخفون فى أنفسهم .

تمهيد :

بين سبحانه وتعالى فيما سبق : طائفة من النعم ، التى أنعم الله بها على عباده ومنها يأتى .

١– خلق الكون بكل ما فيه من سماء وأرض وغيرهما .

٢– خلق الإنسان .

٣– خلق الأنعام بكل أنواعها وأصنافها .

٤– هداية الإنسان وإرسال الرسل وبيان الطريق المستقيم .

٥– إنزال المطر ، وإنبات صنوف الزروع والثمرات .

٦– تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

٧– تسخير البحار والجبال والأرض والطرق .

ثم التفت إلى الجاحدين ؛ ليقارن بين خلق الله ، ونعمه المتعددة ، وبين آلهتهم المدعاة التى لا تسمع ولا تجيب ولا تخلق ولا تنفع ..

التفسير :

١٧– أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ .

أى : أفمن يخلق هذه المخلوقات العجيبة التى تشاهدونها بأعينكم ، فى الكون والإنسان والحيوان والنبات والبحار والجبال ، كَمَن لاَّ يَخْلُقُ شيئا مثل الأصنام التى تدعون : أنها آلهة ، مع أنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

والاستفهام هنا استفهام إنكارى ، أى : أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل ؟ ، وهو تبكيت للكفرة ، وإبطال لعبادتهم الأصنام .

أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ .

أى : أفلا تتذكرون ، فإن من عنده أدنى تأمل وتفهم وتعقل ، لا يسوى بين القادر والعاجز ، وهو تبكيت جديد ؛ ليعلموا أن العبادة لا تليق إلا للمنعم ، بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام فلا ينبغى عبادتها .

قال قتادة : الله هو الخالق الرازق ، لا هذه الأوثان التى تعبد من دون الله ، ولا تخلق شيئا ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا . ا هـ .

١٨- وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

إن أنعم الله وأفضاله لا حصر لها ، ولا عد ؛ لكثرتها وتنوعها وتتباعها ، وإذا كنتم لا تستطيعون حصرها، فمن باب أولى لا تطيقون شكرها .

قال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير :

ومما يدل قطعا على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى ، أن كل جزء من أجزاء البدن الإنسانى لو ظهر فيه أدنى خلل ؛ لتنغص العيش على الإنسان ، ولتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ، ثم إنه تعالى يدبِّر أحوال بدن الإنسان ، على الوجه الأكمل الأصلح ، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ، ولا بكيفية مصالحه ، ولا بدفع مفاسده ، فليكن هذا المثال حاضرا فى ذهنك ، ثم تأمل فى جميع ما خلق الله فى هذا العالم ، من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهيأة لانتفاعك ؛ لتعلم أن عقول الخلق قاصرة عن إحصاء نعمه وأفضاله وإحسانه[٥١] .

إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

لمن تاب إليه ورجع إلى بابه معترفا بالعجز والتقصير ، وهو سبحانه يغفر الكثير ويجازى على اليسير.

١٩- وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .

هو سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم ، السرية منها والجهرية ، فراقبوه ولا تعصوه .

وقد كان الكفار مع عبادتهم غير الله ، يسرُّون ضروبا من الكفر ، فى مكايد الرسول ﷺ ، فجعل هذا زجرا لهم عنها ، كما أن الإله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية ، وهذه الأصنام جمادات لا تحسُّ بشىء أصلا، فكيف تحسنُ عبادتها[٥٢] .

٢٠- وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

أى : هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله ، لا تخلق شيئا مهما صغر ، وهى جمادات صنعها المشركون بأيديهم ، وخلقوها ثم عبدوها ، لقد وصف الله الأصنام بما يبعدها عن الألوهية ؛ فهى لا تخلق شيئا، ثم إنها مخلوقة لغيرها .

٢١ - أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

هذه الأصنام جمادات لا تحسب بشيء ، فهى أموات لا حياة فيها ، ولا تعتريها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل .

وفائدة قوله : غَيْرُ أَحْيَآءٍ . بيان . أن بعض مالاحياة فيه ، قد تدركه الحياة بعد ؛ كالنطفة التى ينشئها الله علقة ثم مضغة ثم عظاما، ثم يكسو العظام لحما ، ثم ينشيء النطفة خلقا آخر ، أى : إنسانا كامل الحواس فيه الروح والحياة ، أمّا هذه الأصنام من الحجارة ، فلا يعقب موتها حياة ، ذلك أتم فى نقصها .

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

إن هذه الأصنام لا تعلم متى يبعث عبادها ؛ حتى تساعدهم أو تنفعهم بعبادتهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام شيئًا ، عن الوقت التى يبعثها فيه الله يوم القيامة ؛ لتكون وقودا للنار هى وعبَّادها ، للتدليل على مهانتها وذلها .

قال تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... (الأنبياء: ٩٨) .

قال الفخر الرازى:

فإن قيل : إن هذه الأصنام جمادات ، والجمادات لا توصف بأنها أموات ، ولا توصف بأنهم لا يشعرون.

والجـواب :

إن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالألوهية وعبدوها ؛ قيل لهم : ليس الأمر كذلك ، بل هى أموات ولا تعرف شيئا ، فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم .

ثم إن من يعبد الأصنام هو فى نهاية الجهالة والضلالة ، والكلام مع الجاهل الغرّ الغبىّ ، قد يحسن فيه أن يعبّر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه من ذلك الإعلام يكون ذلك المخاطب فى غاية الغباوة، وإنما يعيد تلك الكلمات ؛ لكون ذلك السامع فى نهاية الجهالة ، وأنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة(٥٣) .

٢٢ - إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ .

أى : أن الله سبحانه وتعالى ، الذى هو أهل للعبادة هو إله واحد ، لا شريك له ، ولا ندّ له .

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ .

لكن المشركين عميت قلوبهم عن هذه الحقيقة فأنكروها ، وأنكروا البعث والجزاء فى الآخرة ،

واستكبروا عن الإيمان بمحمد ﷺ : حقدا وحسدا ، قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٣٣) .

لقد حجبهم الجحود والكنود والاستكبار عن الإيمان ؛ فاستحقوا الجزاء العادل ، وعذاب جهنم يوم القيامة ، حال كونهم أذلاء صاغرين ؛ جزاء استكبارهم عن اتباع الحق .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . (غافر:٦٠) .

وفى الحديث الصحيح : « إن المتكبرين أمثال الذرّ يوم القيامة ، تطؤهم الناس بأقدامهم؛ لتكبرهم »[٥٤].

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، فقال رجل : يا رسول الله ، الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنة ، فقال: « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس »[٥٥] .

٢٣- لاَ جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ .

أى : حقا ، إن الله يعلم ما يسرون من الكفر والاستكبار عن الإيمان بك ، وَمَا يُعْلِنُونَ من أقوال وأفعال وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ.

أى : عن الاستجابة للحق ، المغرورين بأموالهم وأولادهم ، الجاحدين لنعم الله وآلائه .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات:

أنزل ربكم : أي : على محمد .

أساطير : واحدها : أسطورة ، كأرجوحة وأراجيح وهى الأكاذيب والترهات والأباطيل .

الأولين : الغابرين القدماء ، قالوا ذلك ؛ إضلالا للناس، وقد نزلت الآية فى النضر بن الحارث .

الأوزار : الآثام ، واحدها : وزر .

ساء ما يزرون : أي : بئس شيئا يحملونه .

قد مكر الذين من قبلهم : وهو نمروذ بن كنعان ، بنى صرحا طويلاً ببابل ، سمكه خمسة آلاف ذراع ؛ ليصعد منها إلى السماء ؛ ليقاتل أهلها .

والمكر : صرف غيرك عما يريده بحيلة ، ويراد به هنا : مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، والمقصود بالآية : المبالغة فى وصف وعيد أولئك الكفار ، وأن هلاكهم محقق كما حدث لمن قبلهم .

فأتى الله بنيانهم من القواعد : أهلكه وأفناه ، فأرسل عليه الريح والزلزلة ؛ فهدمته من الأساس ، كما يقال: أتى عليه الدهر.

القواعد : الدعائم والعمد والأساس ، واحدها : قاعدة .

خرّ : سقط .

السقف من فوقهم : أى : وهم تحته .

وأتاهم العذاب من
حيث لا يشعرون : من جهة لا تخطر ببالهم ، أى: من جهة لا يحتسبونها ولا يتوقعونها ، وقيل: هذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل .

يخزيهم : يذلهم ويهينهم ، أو يعذبهم بالنار .

تشاقون : تخاصمون وتعادون المؤمنين ، وتنازعون الأنبياء فى شأنهم ، وأصله: أن كلا من المتخاصمين ، فى شق وجانب غير شق الآخر .

الذين أوتوا العلم : الأنبياء أو الملائكة أو العلماء .

السلم : الاستسلام والخضوع ، والمعنى : انقادوا واستسلموا عند الموت .

بلى : نعم ، أى : فتجيبهم الملائكة .

إن الله عليم بما
كنتم تعلمون : فهو يجازيكم عليه .

مثوى : مأوى ، والمثوى: مكان الإقامة .

تمهيد :

تأتى فى هذه الآيات ، شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وتذكير الناس بما أصاب المكذبين والمتكبرين ؛ حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

ثم عرض بعض مشاهد الآخرة ، حين ينال الظالمون جزاءهم فى جهنم خالدين فيها أبدا . فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

التفسير :

٢٤ - وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

أفادت كتب السيرة : أن قريشا وزعماء مكة ، أهمَّها أمر الدعوة الإسلامية ، حيث إن أتباع محمد يزيدون، ورأوا تأثير القرآن فى نفوس الناس ، وصار الواردون إلى مكة فى موسم الحج وغيره ، يسألون الناس عن هذا النبى الذى ظهر ، وعن القرآن الذى أنزل عليه ؛ فدبَّر لهم الوليد بن المغيرة معاذير ، واختلاقا يختلقونه ؛ ليقنعوا السائلين به .

فندب منهم ستة عشر رجلا ، بعثهم أيام موسم الحج يقعدون فى طرق مكة ، ومسالك الدخول إليها ، يقولون لمن سألهم عن محمد : لا تغتروا بهذا الذى يدّعى: أنه نبى ؛ فإنه مجنون أو ساحر أو شاعر أو كاهن، وأن الكلام الذى يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها ، وقد تقدم ذلك فى آخر سورة الحجر ، وكان النضر ابن الحارث يقول : أنا أقرأ عليكم ما هو أجمل من حديث محمد ، أحاديث رُستم وإسْفَنْديار ، قال تعالى فى شأنه... وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ . (الأنعام: ٩٣) .

وفى صحيح البخارى ما يفيد : مساءلة العرب عن بعث النبى ﷺ ، ومن ذلك سؤال هرقل ملك الروم لأبى سفيان ، عن هذا النبى وعن نسبه وعن أتباعه ، وعن حروبه ، ولما خرج أبو سفيان من عند ملك الروم، قال لمن معه : لقد أمَرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة ، حتى أصبح ملك الروم يسأل عنه .

وروى البخارى فى قصة إسلام أبى ذر[٥٦] أنه سمع بالنبىّ ﷺ وهو فى قومه غفار ، فأرسل أخاه ؛ ليستعلم عن هذا النبى ، ثم حضر بنفسه مستفهما عنه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ .

أى : إذا سألت وفود العرب فى موسم الحج وغيره ، أهل مكة عن محمد وعن القرآن الذى نزل عليه .

قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

أى : إن هذا القرآن ليس وحيا من الله ، وإنما هو أكاذيب وخرافات مأخوذة من كتب المتقدمين .

قال تعالى : وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . (الفرقان: ٥) .

والسائل إما واحد من المسلمين ، أو من كلام بعضهم لبعض ، أن النضر بن الحارث ، أو قول المقتسمين الذين اقتسموا مكة ، ينفّرون عن رسول الله ﷺ ، إذا سألهم وفود الحجيج ، عما أنزل على محمد ﷺ .

٢٥ – لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ .

اللام فى لِيَحْمِلُوٓاْ تسمى: لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل : فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا. (القصص: ٨) .

والمعنى : إنما قالوا ذلك ؛ ليتحملوا أوزارهم ، وآثامهم كاملة يوم القيامة ، وجانبا من أوزار الذين يتبعونهم ، جهلا بغير علم ، فلا يعلمون أنهم ضُلاَّل ، ويقتدون بهم فى الضلال .

والآية كما نرى تشعر هؤلاء المفترين من أهل مكة ، بجزائهم العادل يوم القيامة ، فهم سيتحملون وزرهم كاملا بدون نقص ، وسيتحملون جانبا من إضلال من اتبعهم ، واثقا فيهم ، غير عالم بما هم عليه من ضلال ، وكأن الآية تضعهم أمام مسئولياتهم ، وتوضح لهم عظيم الجرم الذى يرتكبونه ؛ ليكفروا فى تبعاتهم ، ويعدلوا عن ضلالهم .

أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ . أى : بئس شيئا يحملونه من ذلك الذى يفعلون .

ونظير الآية قوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ . (العنكبوت: ١٢).

وروى الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك إلا من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »[٥٧] .

ثم أبان الله تعالى وجود الشَّبه ، بين الكفار القدامى والجدد ، فى الجرم والعقاب فقال :

٢٦ - قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

أكثر المفسرين على : أن المراد بهذه الآية ، هو : نمروذ بن كنعان ، بنى صرحا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ، ويمكن أن تكون الآية عامة فى كل ظالم مكابر ، مثل قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم فرعون .. قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . (الأنعام: ١٢٣) .

وفى الآية تشبيه هيئة القوم الذين مكروا فى المنعة فأخذهم الله بسرعة ، وأزال تلك العزة ؛ بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم ، وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده ، فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا ، فهذا من أبدع الاستعارات التمثيلية ؛ لأنها تنحلّ إلى عدة استعارات .

جاء فى التفسير المنير :

أى : قد كاد لدين الله ورسله من تقدّمهم من الأمم ، واحتالوا بمختلف الوسائل؛ لإطفاء نور الله ؛ فأهلكهم الله تعالى فى الدنيا ، بأن دمّر مبانيهم من قواعدها ، وسقط عليهم السقف من فوقهم ، وأبطل كيدهم ، وأحبط أعمالهم، وأطبق عليهم العذاب من كل جانب ، ومن حيث لا يحسُّون بمجيئه ولا يتوقعون،

فإن الأخذ فجأة أشد نكاية؛ لما يصحبه من الرعب الشديد ، فاعتبروا يا أهل مكة وأمثالكم ، وهذا كله تمثيل لصورة العذاب ومضمونه: إهلاككم من الله تعالى: [٥٨] .

وخلاصة ذلك : أن الله أحبط أعمالهم ، وجعلها وبالا عليهم ، ونعمة منهم .

٢٧- ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ...

كانت الآية السابقة ، تتحدث عمًّا أصاب المكذِّبين للرسل فى الدنيا من العذاب والهلاك ، ثم جاءت هذه الآية ؛ لتبين ما ينتظرهم فى الآخرة .

ومعنى الآية :

إن الله سيفضح هؤلاء المشركين على رءوس الخلائق ، مع الإذلال والإهانة ، ثم يسألهم سؤال توبيخ وتقريع : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم فى الدنيا تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء ؟! هل حضروا ليشفعوا لكم ، كما كنتم تزعمون ؟! ، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** . (القصص: ٧٤) .

وكلمة **تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ** من المشاقة ، وهى عبارة عن كون كل واحد من الخصمين ، فى شق غير شقّ صاحبه ، وقد كان الكافرون يقولون للمؤمنين : إنه لا بعث ولا حساب ، وإن صح ما تقولون من العذاب فى الآخرة : فإن الأصنام ستشفع لنا ، فناداهم الله على سبيل التبكيت والاحتقار لشأنهم ، أين هؤلاء الشركاء الذين زعمتم : أن لهم اليوم شفاعة ؟!

والخلاصة : إنه لا شركاء ولا أماكن لهم .

قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ .

أى : قال الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد ، وهم الأنبياء والمؤمنون ، وكل من اهتدى إلى الحق فى الدنيا ، وأخلص لله تعالى العبادة والطاعة ، أو قال الدعاة والهداة والعلماء : إن الخزى الكامل ، والذلّ والهوان على هؤلاء الكافرين ، أصحاب القلوب المنكرة للحق ، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر ، وما فيه من حساب وجزاء .

٢٨- ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم ، وهم ظالموا أنفسهم ومعرضوها للعذاب المخلّد بكفرهم ، وأىُّ ظلم للنفس أشدُّ من الكفر ؟!

فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ .

أى : استسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب ، قائلين : ما كنا نشرك بربنّا ، وهم قد كذبوا على ربهم ، واعتصموا بالباطل برجاء النجاة ، والمراد بالسلم هنا : الاستسلام والاستكانة ، على خلاف عادتهم فى الدنيا من العناد والمكابرة ، وقد حكى الله عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام: ٢٣) .

بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام ، والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم من الإنكار ، والله مجازيكم بأفعالكم .

٢٩- فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : فادخلوا أيها الكافرون من أبواب جهنم ، وطبقاتها المتعددة ، وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك .

فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : فلبئس مقام المتعاظمين عن الإيمان بالله ؛ جهنم .

وأبواب جهنم قد ذكرها القرآن فى آية أخرى فقال : لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . (الحجر: ٤٤)، وتطلق الأبواب على: المنازل والدركات، والمعروف: أن الجنة درجات آخرها الفردوس الأعلى ، قالت أم حارثة يا رسول الله ، حارثة ابنى فى الجنة أم فى النار ؟! ، فقال : « اتق الله يا أم حارثة ، إنها جنان وليست جنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى منها»[٥٩] .

والمعروف: أن النار دركات ، وفى هذا المعنى قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . (النساء: ١٤٥) .

ويمكن أن يراد بقوله تعالى :

فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ . أى : من أبوابها المتعددة ، أو فادخلوا فى طبقات جهنم ، التى خصصت كل طبقة منها لفئة من الظالمين تناسب عملهم ، وهو يناسب قول الحق سبحانه : لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . (الحجر: ٤٤) .

وقد مرّ هذا المعنى عند تفسير هذه الآية من سورة الحجر .

★ ★ ★

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات:

جنات عدن : أى : جنات استقرار وإقامة ، يقال: عدن بالمكان، يعدن عدنا ، أى : استقر به وأقام .

طيبين : أى : طاهرين من ظلم أنفسهم بالمعاصى والكفر.

تمهيد :

يقارن القرآن بين عمل الكافرين والظالمين ، وجزائهم فى جهنم ، وبين عمل المتقين وجزائهم فى الجنة، من باب المقابلة بين الأضداد ، وبضدها تتميز الأشياء ، وقد سبق الحديث عن الظالمين ، ودخولهم أبواب جهنم ، وهنا فى هذه الآيات حديث عن المتقين وجزائهم فى الجنة .

التفسير:

٣٠ - وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ .

قال المفسرون :

هذا كان أيام الموسم ، يأتى الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره ؛ فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتى المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل عليه ، فيقولون خيرا ، والمعنى: أنزل خيرا[٦٠] .

أى : إن الله تعالى أنزل على نبيه وحيا ، يتضمن الخير والهدى والإيمان .

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ . أى : للمتقين مكافأة فى الدنيا بزيادة الرزق والتوفيق .

وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ . أى : وما ينالونه فى الآخرة من جزاء كريم ، وجنات النعيم ، خير وأحسن مقيلا .

وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ . أى : ولنعم دار المتقين دار الآخرة ، حيث ينالون فيها كل تكريم وكل نعيم .

قال تعالى : وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ . (الزمر: ٧٤) .

روى مسلم وأحمد: عن أنس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيعطى بحسناته فى الدنيا ، فإذا لقى الله عز وجل يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا[٦١] .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (النحل: ٩٧) .

٣١- جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ.

جَنَّٰتُ . مبتدأ وخبره يَدْخُلُونَهَا ، أى : نعم دار المتقين ، جنات إقامة دائمة يدخلونها بفضل الله تعالى، ويقتسمونها بحسب أعمالهم .

قال الفخر الرازى : جَنَّٰتُ يدل على: القصور والبساتين ، عَدْنٍ يدل على: الدوام ، تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يدل على: أنه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الأنهار جارية من تحتهم .

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ . تدل على حصول كل الخيرات والسعادات ، وهو دليل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا.

كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ. أى : هكذا يكون جزاء التقوى . ا هـ .

وفى معنى هذه الآية يقول الله سبحانه :

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

وقوله تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . (الزخرف: ٧١) .

٣٢- ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : هم الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبرارا ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصى طيبة نفوسهم بلقاء الله .

يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ . أى : تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة ، قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين[٦٢].

قال الفخر الرازى:

وقوله : طَيِّبِينَ ، كلمة مختصرة ، جامعة للمعانى الكثيرة ؛ وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أُمروا به ، واجتنابهم عن كل ما نُهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة، مبرئين عن الأخلاق المذمومة [٦٣] .

وقال مجاهد: الطيب من تزكو أقواله وأفعاله . ا هـ .

وقال الراغب: الطيب من الناس من تعرَّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلَّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال . ا هـ

وقال الشوكانى:

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ .

طاهرين من الشرك ، أو صالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله .

يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ . أي: تسلم عليهم الملائكة ؛ تبشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان .

ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . أي : بسبب عملكم . ا هـ .

وفى الحديث الصحيح :

« لن يدخل أحدكم الجنة عمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : « ولا أنا؛ إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، فسددوا ، وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت ؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يتوب»[٦٤] (رواه البخارى) .

وفى معنى هذه الآيات يقول الله تبارك وتعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت: ٣٠-٣٢) .

★ ★ ★

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

المفردات:

ينظرون : ينتظرون ، فإن نظر ، ينظر ، نظرا ، يعنى : أبصر ، ويعنى أيضًا : انتظر .

إلا أن تأتيهم الملائكة : تقبض أرواحهم .

أو يأتى أمر ربك : هو القيامة ، أو العذاب المستأصل لهم .

فأصابهم سيئات ما عملوا : أى : جزاء سيئات ما عملوا .

وحاق بهم : أى : أحاط بهم ، وخصّ استعمالاً بإحاطة الشرّ .

تمهيد :

تفيد الآيات : أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم ، إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال ، فلا يبقى منهم أحدا ، ثم أتبع ذلك ببيان : سنة الله فى هلاك الكافرين ، فقد كذبت أمم

سابقة برُسلها ، وجحدت رسالات السماء ، كقوم نوح والذين من بعدهم ، فأهلكهم الله بسبب ظلمهم وجحودهم، وما ظلمهم الله ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .

التفسير:

٣٣- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

تأتى هذه الآيات على سبيل التهديد والوعيد لكفار مكة ؛ فهم فى عتوّهم وكفرهم وجحودهم رسالات السماء ؛ فى حالة من ينتظر أحد أمرين :

١- حضور الملائكة لتقبض أرواحهم على الكفر .

٢- مجىء عذاب السماء ؛ ليستأصلهم ؛ كما فعل بقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

وخلاصة هذا: حثّهم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق ، قبل أن يأتيهم الموت ، أو قبل أن يأتيهم عذاب الاستئصال .

كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .

أى : مثل هذا التكذيب يا محمد ، كذبت أمم سابقة برسلها ، وتمادى المكذبون فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا وحل بهم عذابنا ونكالنا .

وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أى : لم يظلمهم الله حين أنزل بهم العذاب ؛ لأنه أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم ، بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل وإحجامهم عن اتباع الحق .

٣٤- فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

أى : فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ما فعلوا ، وأحاط بهم عذابه الأليم ؛ جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل ، وبما أخبرهم به من حساب وثواب وعقاب فى الآخرة .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات:

البلاغ المبين : أى : التبيين الواضح الذى لا إيهام فيه .

الطاغوت : أى : الشيطان وكل ما عبد من دون الله مشتق من الطغيان ، وهو تجاوز الحدّ ، والطاغوت يقع على الواحد والجمع ، مثال وقوعه على الواحد قوله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ . (النساء: ٦٠) ، ومثال وقوعه على الجمع قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ . (البقرة : ٢٥٧).

حقت : أى : ثبتت ووجبت ، يقال : حق الأمر ، يحق بفتح الحاء وكسرها ؛ أى : ثبت ووجب .

تمهيد :

تستمر الآيات فى كشف ألاعيب المشركين ، ومن ذلك : طعنهم فى إرسال الرسل ، وقولهم : نحن مجبورون على أعمالنا ، فلو شاء الله لم نعبد الأصنام ، ولم نحرّم ما حرّمنا من الأطعمة ، وهى تَعلّة كاذبة يتعلل بها المكذبون والكافرون ؛ لإلقاء التبعة على القدر ، فقد خلق الله الإنسان مزودًا بأسباب الهداية والغواية ، فمن اختار الهدى وسار فى طريق الطاعة ؛ أمدَّه الله بالمعونة والفلاح ، ومن اختار التكذيب والغواية ؛ صرف الله عنه الهدى ، وقد عقب الله على هذه الآية : بأنه أرسل الرسل ؛ لدعوة الناس إلى التوحيد، والبعد عن عبادة الطاغوت والأصنام والباطل ، فمن الناس من اهتدى بهداية السماء ، ومنهم من اختار الضلالة فاستحق العذاب ، هكذا كان شأن الأمم السابقة مع رسلهم ، فلا تحزن يا محمد ، فليس عليك إلا البلاغ ، قال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١،٢٢) .

التفسير:

٣٥- وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

أى: قال أهل الكفر والإشراك ، وهم كفار قريش : لو شاء الله ما عبدنا الأصنام نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا ما حرمنا من أنواع الحيوانات كالبحائر والسوائب[٦٥] وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء ، لا على سبيل الاعتقاد، وغرضهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راض به ، وهو حق وصواب ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، حيث تعلل المشركون بالمشيئة الإلهية فى أكثر من موقع.

قال تعالى فى الآية ١٤٨ من سورة الأنعام :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

جاء فى ظلال القرآن ٦١/١٤:

وهذه مقولة جديدة من مقولات المشركين ، فى علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله - فى زعمهم - ألا يفعلوا شيئا من هذا لمنعهم من فعله ، وهذا وهم وخطأ فى فهم معنى المشيئة الإلهية ، فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحلّه لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها فى شرائعه ، على ألسنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ ، ولهذا قال تعالى بعده : **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** . فهذا أمره وهذه إرادته لعباده ، وقد شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار . اهـ .

وقريب من هذه الآية ، ما ورد فى الآيات ٢٨-٣٠ من سورة الأعراف ، من قوله تعالى :

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ .

وهذه الشبهة تكررت على ألسنة الكافرين السابقين ؛ تبرئة لساحتهم ، وتنصلا من التبعة .

كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .

أى : مثل هذا التكذيب والاستهزاء ، فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم ، بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار .

فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

أى : ليس على الرسل إلا تبليغ رسالات السماء بالحجة البينة ، والأدلة الواضحة ، وليس من شأنهم هداية الناس ، فهذه أمور تتعلق بمشيئة الله تعالى .

قال تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . (القصص: ٥٦) .

وقصارى ذلك : إن الثواب والعقاب لا بدّ فيهما من أمرين : تعلق مشيئة الله تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همة العبد إلى تحصيل أسبابه ، وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهى ، أمّا العمل بها إلجاء وقسرا فليس من وظيفتهم ، لا فى كثير ولا قليل .[٦٦]

٣٦- وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ...

إن من سنته تعالى : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتأييد رسله بالمعجزات ، وقد استمر إرسال الرسل لجميع الأمم السابقة ؛ إرشادا للبشرية وتعليمًا لها ، وتنبيها للعقول ، وتحذيرًا للناس من مكايد الشياطين ، ومن ضلال المضلين ، قال تعالى : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء: ١٦٥) .

وقال عز شأنه : وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . (فاطر: ٢٤) .

ومعنى الآية :

أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق ، وبعثنا فى كل أمة سبقت قبلكم ، رسلا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال الرسول لقومه : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا.

فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ .

أى: إن البشر كانوا بإزاء الرسل صنفان :

صنف : هداه الله إلى الإيمان ، فآمن بالرسل وبالله وباليوم الآخر ؛ ففاز وأفلح ، واستحق النجاة والرضوان فى الدنيا والآخرة .

وصنف : كذَّب بالرسل ، واستكبر عن قبول الحق ، واتَّبع الضلال ؛ فاستحق غضب الله وعقابه .

قال الفخر الرازى :

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ . يريد من ظهرت ضلالته ، كما يقال للظالم : حقّ ظلمك وتبين . ا هـ .[٦٧].

فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

أى : التفتوا حولكم أيها المشركون ، أو سيروا فى جنوب الجزيرة وشمالها ، وشرقها وغربها ؛ لتشاهدوا ما أصاب المكذبين ، من الدمار والهلاك ، كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليهم الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخطنا عليهم ؛ لعلكم تعتبرون بما حلّ بهم .

٣٧- إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ .

تأتى هذه الآية ؛ تسلية للرسول ﷺ ، وتحديدا لرسالته بالتبليغ ، وفيها تهدئة لخاطره ، وتطمينا لنفسه، وقد كان حريصا على هداية قومه ، راغبا فى إيمانهم ، بيد أنّهم آثروا الضلالة ، وكان الرسول ﷺ بمثابة من يشعل ضوءا لهداية قومه ، فيتتابع الفراش فى إلقاء نفسه فى هذه النار ؛ ليشتعل ويهلك ، كما ورد فى الحديث الصحيح :

«إنما مثلى ومثل قومى كمثل رجل أشعل نارا فجعل الفراش يتهافت على الوقوع فيهما ، وإنى ممسك بحجز قريش أن تقع فى النار»[٦٨] .

ومعنى الآية :

إن تحرص – أيها الرسول الكريم – على هداية هؤلاء المصرِّين على كفرهم ؛ لن ينفعك حرصك ؛ لأن الله تعالى لا يخلق الهداية جبرًا وقسرًا ، فيمن استحق الضلالة ، بسوء اختياره ، وتوجيه عزائمه إلى عمل المعاصى ، والإشراك بربه .

وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ . تذييل مؤكد لما قبله .

أى : وليس لهؤلاء الضالين من ناصر يدفع عنهم عذاب الله تعالى ، إن نزل بهم .

ونحو الآية قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . (القصص: ٥٦) .

وقوله سبحانه : مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ . (الأعراف: ١٨٦) .

ومجمل القول : إن من اختار الضلالة ، ووجه همته إلى تحصيل أسبابها ؛ فالله سبحانه وتعالى لا يخلق فيه الهداية قسرًا والجاء ؛ لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار ، لا الإلجاء والاضطرار .

★ ★ ★

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

جهد أيمانهم : الجهد ، بفتح الجيم : المشقة . وبضمها : الطاقة ، وجهد أيمانهم ، أى : غاية اجتهادهم فيها ، وجهد مفعول مطلق لفعل مقدر تقديره: أقسموا بالله يجهدون جهدًا .

لا يبعث الله من يموت: أى : لا يحييه بعد الموت .

بلى : كلمة جواب كنعم ؛ لكنها لا تقع إلا بعد النفى ، فتثبت ما بعده .

وعدًا عليه حقا : أى : وعد ذلك وعدًا عليه حقًا ، أى : ثابتا لا شك فيه .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات لتقديم شبهة جديدة للمشركين ، وللرد عليهم ، فهم ينكرون البعث بعد الموت ، ويقسمون على ذلك ، والله تعالى يوضح لهم : أن البعث حق لازم ؛ ليثاب الطائع ويعاقب العاصى ، وكانت حجة المشركين أن الموت يُفَتِّت الأجسام ويبعثرها ، فكيف تجمع كما كانت ؟

فبينت الآية الأخيرة : أن هذا أمر هين فى يد القدرة الإلهية ، التى تقول للشىء : كن ؛ فيكون ، وفى الآيات ٧٨-٨٣ من سورة يس ، وهى الآيات الأخيرة فى السورة ، تأكيد هذا المعنى .

التفسير:

٣٨ - وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ .

سبب النزول:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم: عن أبى العالية قال: كان لرجل من المسلمين، على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذى أرجوه بعد الموت، إنه لكذا وكذا؛ فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت، وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله: وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ... الآية .

وروى البخارى: عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تعالى: كذَّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إياىَ، فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وأمَّا شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد »[٦٦] .

ومعنى الآية: وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ...

أنهم أقسموا بالله، واجتهدوا فى الحلف وأغلظوا فى الأيمان: أنه لا يقع بعث بعد الموت، وهذا استبعاد منهم لحصوله، من جرَّاء أن الميت يفنى ويُعدم، والبعث إعادة له بعد ما رمّ وبلى وصار ترابا .

قال القرطبى: وهذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله، وبالغوا فى تغليظ اليمين: بأن الله لا يبعث من يموت .

بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أى: بلى سيبعث الله الأموات بعد مماتهم، وقد وعد ذلك وعدًا حقا، لابد منه، ولا خلف فيه .

وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة؛ لجهلهم بكمال قدرة الله تعالى، وعموم علمه، ونفاذ إرادته وسموّ حكمته، والمراد بأكثر الناس: المشركون، ومن كان على شاكلتهم، فى إنكار البعث والحساب، والثواب والعقاب يوم القيامة.

وفى التنصيص على أكثر الناس؛ مدح للأقلية منهم، الذين آمنوا بالبعث وبالآخرة، وما فيها من حساب وجزاء، وهم المؤمنون الصادقون .

٣٩- لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ .

أى : بل يبعث الله تعالى يوم القيامة .

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ من أمور البعث ، وليظهر لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل ، وخالفتهم فيه أممهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصى ، والظالم من المظلوم ، وليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ . أى : وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء ، أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ . (النحل: ٣٨) .

وكانوا كاذبين فى سخريتهم من المؤمنين ، وفى هذا اليوم يلقى الكفّار جزاءهم فى جهنم ، وينظر إليهم المؤمنون ، وهم يعذبون جزاء جحودهم للبعث ، وتكذيب الرسل ، والسخرية بالمؤمنين ، قال تعالى: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . (الطور: ١٣، ١٤) .

فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة :

١- إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره .

٢- إظهار كذب الكافرين ، الذين أنكروا البعث ، واستهزءوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

٤٠- إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ.

أى : إذا أردنا أن نبعث من يموت ، فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائه ؛ لأنا إذا أردنا أمرًا وقع وحدث؛ فقدرتنا لا يتعاصى عليها شىء ، ولا يحول دون نفاذها حائل .

قال ابن كثير :

أخبر سبحانه عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول لـه: كُن فَيَكُونُ . والمراد من ذلك : إذا أراد كونه ؛ فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء[٧٠]

قال تعالى : وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ... (القمر: ٥٠) .

وقال سبحانه : مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... (لقمان : ٢٨) .

ونلاحظ أن هذه الآيات قد حكت إنكار الكفار للبعث ، ثم ردت عليهم بالحجة والبرهان ، وفى هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى فى آخر سورة يس :

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ الأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس: ٧٨-٨٣) .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

المفردات :

لنبوئنهم فى الدنيا حسنة : أى : لننزلنهم فى الدنيا بلدة حسنة ، هى : المدينة ، يقال : بوأه الدار، يبوئه فيها أنزله بها .

تمهيد :

تعرّض المسلمون فى مكة لألوان متعددة من العذاب والوعيد ، فهاجروا إلى الحبشة مرتين ، وهاجروا إلى المدينة ، فى تضحية بالوطن والأهل والمال ؛ فنزلت هذه الآية توضح منزلتهم وجزاءهم .

التفسير:

٤١ - وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أى : والذين فارقوا قومهم وأوطانهم ودورهم ، وذهبوا إلى بلاد أخرى ؛ احتسابا لأجر الله وطلبا لمرضاته ، من بعد ما نالهم الأذى والظلم من الكفار ؛ هؤلاء سنكافئهم فى الدنيا بالمنزلة الحسنة ، حيث أسكنهم الله المدينة ، ونصرهم على العباد ، وفتح لهم البلاد ، وصاروا أمراء حكاما ، وكان كل منهم للمتقين إماما .

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أى : إن ثواب الدار الآخرة فى الجنة ، أكبر من نعيم الدنيا ، لو كان المهاجرون يعلمون ذلك ؛ لازداد يقينهم ، وقوى عزمهم ، وفى هذا تحريض لمن بقى بمكة من المهاجرين ؛ حتى يهاجروا .

وقيل : الضمير يعود على مشركى مكة ، أى : لو كانوا يعلمون ثواب الله للمهاجرين ؛ لكفوا عن إيذائهم وظلمهم ، ولآمنوا بالله ورسوله .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبى ﷺ ، وهم : صهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب ، وعابس ، وجبير ، موالى لقريش ، فجعلوا يعذبونهم ؛ ليردّوهم عن الإسلام ، أمّا صهيب فقال لهم: أنا رجل كبير ، إن كنت لكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم ، فافتدى منهم نفسه بماله ، وتركوه يهاجر ، فلما رآه أبو بكر قال : ربح البيع يا صهيب[٧١] . وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر ، والرجوع عن الإسلام ، فتركوا عذابهم ، ثم هاجروا فنزلت هذه الآية[٧٢] .

وعن عمر : أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ذخر لك فى الآخرة أكبر[٧٣] .

٤٢- ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

أى : هؤلاء هم الذين صبروا على أذى المشركين ، وهاجروا ؛ فرارا بدينهم ، صابرين على مفارقة الأهل والأوطان ، وهم يتوكلون على الله ، ويعتمدون عليه ، بعد الأخذ فى الأسباب ، وهذه الآية بمثابة الوسام على جبين هؤلاء المهاجرين .

قال الفخر الرازى :

والمعنى: أنهم صبروا على العذاب ، وعلى مفارقة الوطن ، الذى هو حرم الله ، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله ، وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل ، أما الصبر فللسعى فى قهر النفس، وأمّا التوكل فللانقطاع بالكلية عن الخلق ، والتوجه بالكلية إلى الحق ، فالأول : هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى ، والثانى: آخر هذا الطريق ونهايته والله أعلم[٧٤] .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

المفردات :

فاسألوا أهل الذكر : من أسلم من أهل التوراة والإنجيل ، وفى المصحف المفسَّر : فاسألوا العلماء والعارفين بالتواريخ .

بالبينات والزبر : البينة: هى المعجزة الدالة على صدق الرسول ، والزُّبر: واحدها: زبور ، وهى كتب الشرائع والتكاليف ، التى يبلغها الرسل إلى العباد .

الذكر : القرآن .

مكروا : المكر : السعى بالفساد خفية .

مكروا السيئات : ظلموا المؤمنين ، وراموا أن يفتنوهم عن دينهم .

يخسف : يجعل عاليها سافلها .

فى تقلبهم : أى : منقلبين فى أسفارهم ، وتصرفهم فى البلاد ليلاً أو نهارًا ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ . (آل عمران: ١٩٦) .

بمعجزين : أى : بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار .

على تخوّف : أى : على خوف ووجل من العذاب .

يتفيؤ ظلاله : أى : يرجع من موضع إلى موضع ، فهو فى أوَّل النهار على حال ، ثم يتقلص ، ثم يعود إلى حال أخرى فى آخر النهار.

عن اليمين : أول النهار .

والشمائل : آخر النهار .

السجود : الانقياد والخضوع .

داخرون : منقادون صاغرون ، واحدهم: داخر ، وهو الذي يفعل ما تأمره به شاء أو أبى .

يخافون ربهم : أى: يخافون عقابه .

من فوقهم : أى : بالقهر والغلبة ، كما قال : وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ . (الأعراف: ١٢٧) .

تمهيد :

تناقش الآيات شبهة أخرى من شبه المشركين ، حيث قالوا : لو أن الله أرسل رسولا ؛ لبعثه ملكا ، لا رجلا من سائر الناس ، فبيّن القرآن : أن سنة الله فى إرسال الرسل ، أن يكونوا رجالا من سائر الناس ؛ لتتحقق القدوة والأسوة ، وأهل التوراة والإنجيل يعرفون ذلك ، ثم هددهم القرآن بألوان العذاب ، ومنها : خسف الأرض كما فعل بقارون ، أو يأتيهم بغتة فجأة ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى أسفارهم ومعايشهم، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى ، ثم عقب ذلك بلفت أنظارهم ، إلى كمال قدرته ، وبديع خلقه ، وأن هذا الكون بجميع ما فيه ، خاضع لقدرة الله ، يسبح بحمد الله ، ويسير وفق مشيئته وأمره سبحانه وتعالى .

التفسير :

٤٣ – وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ .

كان أهل مكة ينكرون رسالة محمد ﷺ ، ويقولون : الله أعظم من أن يكون بشرًا ، فهلاَّ بعث الله إلينا ملكًا ، فأجابهم الحق سبحانه بهذه الآية .

والمعنى : لقد أرسلنا الرسل من البشر ، مثل : إبرهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى ؛ لأن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، ولو فرضنا أن الله اختار ملكا للرسالة ، لجعله فى صورة بشر؛ حتى يطيق الناس التفاهم والتخاطب معه ، ثم توجه الخطاب إلى أهل مكة فقال الله لهم :

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ .

أى : اسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ فهم أهل التوراة والإنجيل ، وقيل : أهل الذكر ، هم: أهل العلم بأخبار الأمم السابقة .

إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أن الرسل بشر ، يخبرونكم بأن أنبياءهم بشر ، كموسى ، وعيسى ، وأن الرسل بشر كلهم .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم .

قال تعالى : وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . (الأنعام : ٨) .

وقالوا : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا . (المؤمنون : ٤٧) .

وقالوا: مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ . (المؤمنون: ٣٣، ٣٤) .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ . (يونس:٢) .

لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا . (الفرقان:٧) .

٤٤ – بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى: أرسلنا الرسل رجالا من البشر ، وقد أرسلناهم بالبينات والزبر ، أى : بالمعجزات والكتب التى تحمل الشرائع والعبادات والمعاملات .

وَٱلزُّبُرِ : جمع زبور بمعنى : مزبور أى : مكتوب ، يقال: زبرت الكتاب : من باب نصر وضرب ، أى : كتبته كتابة عظيمة .

قال الفخر الرازى :

بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ . لفظة جامعة لكل ما تتكامل به الرسالة ؛ لأن مدار أمرها على المعجزات ، الدالة على صدق من يدّعى الرسالة وهى البينات ، وعلى التكاليف التى يبلغها الرسول من الله تعالى إلى العباد وهى الزبر . ا هـ .

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى: أنزلنا القرآن الكريم عليك يا محمد ، وهو ذكر وشرف وبيان لك ولقومك ، وقد اشتمل القرآن الكريم على الأمور الكلية ، فهو أصل الشريعة وكلىّ أمورها ، وفيه إجمال لأمّهات الفضائل ، وأصول

التشريع، والنبى ﷺ : شارح للقرآن ومبين له ، ومفصل لمجمله ، وموضح لمبهمه . قال ﷺ : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ...»[٧٥] .

جاء فى تفسير ابن عطية ما يأتى:

وقوله : لِتُبَيِّنَ . يحتمل أن يريد : لتبين بسردك نص القرآن ما نزل ، ويحتمل أن يريد : لتبين بتفسيرك المجمل ، وبشرحك ما أشكل مما نزل ، فيدخل فى هذا ما تبينه السنّة من أمر الشريعة ، وهذا قول مجاهد[٧٦].

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . أى : أنزل الله القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ، على النبى الأمين ؛ ليشرح للعباد أمور دينهم ، ويبين لهم ما فى كتاب الله تعالى ، ويوضح لهم أهدافه ومراميه ؛ حتى يثير فى الناس أسباب التأمل ، والتفكر فى آيات القرآن الكريم والاتعاظ بها والعمل بمقتضاها ، قال تعالى : كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ . (ص: ٢٩) .

وفى كتب علوم الحديث ، نجد بيانا مستفيضا لمنزلة الحديث الشريف ؛ فهو الأصل الثانى من أصول التشريع ، والرسول ﷺ مبلّغ للناس هذا الكتاب وشارح له ، والكتاب لا يستغنى عن بيان الرسول ﷺ وشرحه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام قرآنا متحركا ، يجسد الوحى ، ويشرحه بالقول والعمل والإقرار .

سئلت السيدة عائشة عن خلق الرسول ﷺ ، فقالت : « كان خلقه القرآن »[٧٧] .

وهذه الآية توضح منزلة السنّة ، فهى ضرورية لشرح القرآن ،وتفصيل أحكامه ، قال تعالى : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

٤٥ – أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

هذه الآية تهديد لأهل مكة ، بأن تصيبهم ألوان العذاب ، التى أصابت السابقين ومنها: الخسف ، ونقص الأموال والأولاد ،والأخذ فجأة ، وإلقاء الرعب والخوف ، ثم الهلاك والدمار ، والاستفهام فى الآية الكريمة للتعجب والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر دل عليه المقام ، والتقدير : أجهل الذين مكروا السيئات، وعيد الله لهم بالعقاب ، فأمنوا مكره ..؟!

والمراد بمكر السيئات : سعيهم بالإفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخداع ، ورغبتهم فى صدّ المؤمنين عن الإيمان بالله ورسوله .

أن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلأَرْضَ .

بمعنى: أن تنشق الأرض فتبتلع المخسوف به ؛ كما حدث لقارون ، قال تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلأَرْضَ . (القصص: ٨١) .

أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ .

أى : ينزل بهم العذاب فجأة من حيث لا يتوقعون ، كما صنع بقوم لوط .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ... (الحشر: ٢) .

٤٦ – أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ .

أى : يأخذهم بالعذاب حال كونهم فى عز ونعيم ، يتحركون بالسفر والتجارة ، ومحاولتهم المعايش بالحركة والرعاية ، والعمل والأمل فى السفر والحضر .

فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ . لا يعجزون الله فيما أراده بهم من العذاب ، والمعجز: المفلت هربًا كأنّه عجز طالبه.

وفى معنى الآية قوله تعالى:

لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَـادُ . (آل عمران: ١٩٦،١٩٧).

ففى قدرة الله أن ينتقم من الظالم ، على أى حال ؛ سواء أكان نائما هادئا ، أو متحركا مسافرًا متقلبا، وسواء أكان خائفا من العذاب مترقبا له ، أو آمنا وادعًا لا يتوقع العذاب ولا ينتظره .

قال تعالى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ . (الأعراف: ٩٧–٩٩) .

٤٧ – أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

التخوّف فى اللغة: يأتى مصدر تخوّف القاصر ، بمعنى: خاف ، ويأتى مصدر تخوف المتعدى بمعنى: تنقص ، وهذا الثانى لغة هذيل .

والمعنى على الأول :

أو يأخذهم وهم فى حالة خوف ، وتوقع نزول العذاب بهم ، كما نزل بالذين من قبلهم.

قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد .

والمعنى على الثانى :

أو يأخذهم وهم فى حالة تنقص فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم حتى يهلكوا ؛ فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض .

جاء فى تيسير التفسير :

أو التخوف: التنقص ، بمعنى : إهلاكهم كلهم ، لكن قوما بعد قوم ، ومالاً بعد مال ، حتى يأتى على الكلّ.

قال عمر رضى الله عنه على المنبر : ما المراد بالتخوف ؟ ، فقال شيخ من هذيل : التخوف: التنقص فى لغتنا ، فقال : هل تعرفه الشعراء ؟ قال نعم : قال شاعرنا أبو كبير الهذلى يصف ناقته :

تخوف الرجل منها تامكا قرِدًا كما تخوف عود النبعة السَّفَن

فقال عمر : عليكم بديوانكم ، لا تضلُّوا ، أى : فى تفسير القرآن ؛ قالوا وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ؛ فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعانى كلامكم[٧٨] .

فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

إذ أمهلهم فيزداد عذرهم قطعا ، وقد يؤمن بعضهم ، والآيات فى جملتها تهديد للكافرين ، من التمادى فى كفرهم ؛ حتى لا يتعرضوا لعذاب الله تعالى ، وذكرت ألوانا من العذاب ، منها : الخسف ، وعذاب الفجاءة ؛ كالزلازل والصواعق ، أو القحط والأمراض ، فتنقص ثرواتهم وأموالهم وأولادهم ، ثم يصيبهم الهلاك وهم فى نقص وضعف ، وتخوف من الهلاك .

٤٨- أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون ، الذين مكروا السيئات ، ولم ينظروا إلى ما خلق الله تعالى من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال ، التى تتفيؤ ظلالها ، وترجع من موضع إلى موضع ، عن اليمين والشمائل ، فهى فى أول النهار على حال ، ثم تتقلص ، ثم تعود إلى حال أخرى فى آخر النهار ، مائلة من جانب إلى جانب ، ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها ، خاضعة كل الخضوع لما سُخِّرت له .

والاستفهام فى قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ . للإنكار والتوبيخ ، والرؤية بصرية

أى : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا ، ثم أتبع سبحانه وتعالى هذه الآية بآية أخرى مؤكدة لها ، فهى كالدليل لما سلف فقال :

٤٩- وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

أى : يخضع ويخشع ، ويستسلم لعظمة الله وقدرته ، ما فى السماوات ، وما فى الأرض مما يدب عليها وكذلك ملائكته الذين فى السماوات وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له .

٥٠- يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

أى : إن من صفات الملائكة أنهم يخافون ربهم ، الذى هو من فوقهم بجلاله وقهره ، وعلوّه - بلا تشبيه ولا تمثيل - ، ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعات ، ومن كل ما يكلفهم به سبحانه ، دون أن تصدر منهم مخالفة ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى :

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ . (الرعد: ١٥).

ومجمل القول:

إن المخلوقات تدين لعظمة الله تعالى ، وتخضع لقدرته بأسرها ، جمادها ونباتها وحيوانها ، ومكلّفوها من الإنس والجن والملائكة .

★ ★ ★

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

المفردات :

الرهبة : الخوف .

الدين : الطاعة .

واصبا : دائمًا ، كما قال : لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . (الصافات: ٩) .

تجئرون : تتضرعون لكشفه ، وأصل الجؤار: صياح الوحش ، ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

تمهيد :

لما بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة : أن كل ما فى الكون من إنس وجن ، وحيوان وجماد ، ونبات وملك ، منقاد لله وخاضع لسلطانه ، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك به ، وبين : أن كل ما سواه فهو فى ملكه ، وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان لا يتضرع إليه إلا إذا مسه الضر ، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره ، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد .

التفسير :

٥١ - وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ .

تحدث القرآن الكريم عن الوحدانية فى الذات والصفات والأفعال ، وردّ على المشركين وفنّد حججهم، مثل قوله تعالى : **قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ، وقوله سبحانه : **لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** . (الأنبياء: ٢٢) .

وفى هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى : لا تتخذوا آلهة سواى ، ولا تعبدوا إلها آخر ، إنما الله إله واحد لا شريك له ، وأنا الخالق الرازق المحيى المميت ، الباعث ، المحاسب المجازى على القليل والكثير .

فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ .

والمعنى : إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا ، دون غيرى ؛ لأني أنا الذى لا يعجزني شيء . وقوله : **ٱثۡنَيۡنِ** صفة للفظ إلهين ، أو مؤكد له ، وخصّ هذا العدد بالذكر ؛ لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بطريق الأولى .

وقوله سبحانه : **إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ** . بيان وتوكيد لما قبله وهو مقول لقوله سبحانه : **وَقَالَ ٱللَّهُ** ...

أى: وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر ، وقال أيضا : إنما المستحق للعبادة إله واحد ، والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة ، أى : الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية.

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكدات ، للنهى عن الشرك ، والأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده ، تارة عن طريق التقرير ، **وَقَالَ ٱللَّهُ** ... وتارة عن طريق النهى الصريح ، وتارة عن طريق التخصيص .. وذلك لكى يقلعوا عن رذيلة الشرك ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار[٧٩] .

٥٢- وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ .

أى: لله ملك السماوات والأرض وما فيهما ، خلقا ورعاية ورزقا ، لا شريك له فى ذلك ، ولا منازع له فى أمره أونهيه ، وله أيضا الطاعة والإخلاص ، على طريق الدوام والثبات ، فكل شيء فى الكون خاضع لأمره سبحانه بيده الخلق والأمر .

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ .

والاستفهام هنا للإنكار والتعجب ، والفاء للتعقيب ، أى : أفبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله ، وتحذرون أن يسلبكم نعمة ، أو يجلب لكم أذًى ، أو ينزل بكم نقمة ، إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، ومالكم نافع سواه .

وإجمال ذلك : أن الله له ملك هذا الكون ، وهو بأكمله خاضع لمشيئته ، وهو المتصرف فيه بقدرته، فكيف تخافون غيره ، أو ترهبون سواه .

٥٣- وَمَا بِكُم[٨٠] مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ .

نعم الله تعالى فى هذا الكون لا تحصى ، وأفضاله لا تستقصى ، فنعمة الخلق ونعمة الرزق ، ونعمة الهداية ، ونعم النسل والذرية ، ونعمة راحة البال ، وغير ذلك من وجود الطعام والماء والصحة ، والسمع والبصر ، والخلق والإماتة ، والبعث والجزاء ، كلها أنعم متعددة ، كما قال سبحانه وتعالى : وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ . (إبراهيم: ٣٤) .

وكلمة : نِّعْمَةٍ مفردة يراد بها: الجمع ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع – اعتمادًا على القرينة – من أبلغ الأساليب الكلامية ، تقول : ألقى فلان كلمة بليغة ، والمراد: أنَّه ألقى خطبة أو حديثا ، قال ابن مالك : ... وكلمة بها كلام قد يؤمّ .

وإذا كانت النعم كلها من الله تعالى ؛ فقد وجب على العبد أن يشكره ويطيعه ، ولا يقترف ما نهى عنه ، وفى الحديث الشريف : « أحبُّوا الله لما يغذوكم به من النِّعم ، وأحبوني بحب الله » .

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ .

تصور هذه الآية طبيعة البشر ، فهم يرون آثار نعم الله عليهم ، فى الشدة والرخاء ، لكنهم لا يلجئون إلى الله تعالى ، إلا إذا أصابهم المكروه ، أو نزلت بهم نازلة يعجزون عن حلّها أو احتمالها ، فتراهم فى الشدائد يجأرون بالدعاء ، ويرفعون أكف الضراعة والنداء ، راجين أن يرفع الله عنهم ما نزل بهم ، فإذا كشف الله عنهم الكرب ، وأزال الضرّ ، استرخى دعاؤهم ، وعادوا إلى دنياهم ، وقليل منهم من يذكر الله فى النعماء ، كما يذكره فى الضرَّاء ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم .

قال تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... (يونس ٢٢،٢٣) .

وقال تعالى: وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ . (فصلت : ٥١).

وقال سبحانه وتعالى: وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . (يونس : ١٢) .

٥٤– ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ .

هذه طبيعة فريق من الناس ، يلجئون إلى الله تعالى فى الشدائد ضارعين متلهفين ، فإذا استجاب الله لدعائهم ، وتحوّلت الشدة إلى رخاء ، إذا بفريق منهم ينسى ما كان فيه من شدة وبلاء ، وينسى فضل الله عليه فى استجابة الدعاء ، ويجعل لله شركاء فى العبادة ، فيعبدون الأوثان ويذبحون لها الذبائح ، شكرًا لغير من أنعم بالفرج وأزال من الضر .

ونحو الآية قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا . (الإسراء : ٦٧) .

جاء فى تفسير الآلوسى:

وفى الآية ما يدلّ على: أن صنيع العوام اليوم ، من الجؤار إلى غير الله تعالى ، ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعا ولا ضرا – عند إصابة الضرّ بهم ، وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية – سفه عظيم ، وضلال جديد ؛ لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعر منه الجلود ؛ لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود.

إن بعض المتشيخين قال لى وأنا صغير : إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل إغاثتك ، ولا يهمُّه سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين ، فإنهم يُعجِّلون فى تفريج كربك ، ويهمهم سوء ما حلّ بك ؛ فمجَّ ذلك سمعى وهَمَى دمعى ، وسألت الله تعالى: أن يعصمنى والمسلمين، من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك . ا هـ .

٥٥- لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : لقد قيضنا لهم النعم ، وأجبنا دعاءهم وكشفنا عنهم الضر ، وكان الواجب منهم الشكر ، لكن عاقبة أمرهم ، أنهم كفروا وجحدوا نعمة الله عليهم ، فاللام هنا لام العاقبة أو الصيرورة .

قال الشوكاني :

واللام فى لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ... لام كى ، أى : لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضرّ ، حتى لكأن هذا الكفر منهم ، الواقع فى موقع الشكر الواجب عليهم ، غرض لهم ومقصد من مقاصدهم ، وهذا غاية فى العُتُوِّ والعناد ، ليس وراءها غاية ، وقيل : اللام للعاقبة ، يعنى: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا الكفر ... ا هـ .

فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : تمتعوا فى هذه الحياة الدنيا ، إلى أن توافيكم آجالكم ، وتبلغوا الميقات الذى وقت لحياتكم ، وتمتعكم فيها ، وبعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه وبال ما عملتم ، وسوء ما كسبت أيديكم، وتندمون ولات ساعة مندم .

★ ★ ★

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

تفترون : تكذبون .

البشارة : فى أصل اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثر فى تغيّر بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن ، فهو حقيقة فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خصّ فى عرف اللغة بالخبر السار، يقال لمن لقى مكروها : قد اسودّ وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور : استنار وجهه وأشرق .

الكظيم : الممتلئ غمًّا وحزنا ،والكظم مخرج النفس ، يقال: أخذ بكظمه ؛ إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى : حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس .

يتوارى : يستخفى ، وقد كان من عادتهم فى الجاهلية ، أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته ، فإن أخبر بذكر ابتهج ، وإن أخبر بأنثى حزن ،وبقى متواريا أيامًا يدبّر فيها ما يصنع .

يمسكه : يحبسه ، كقوله تعالى : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ . (الأحزاب: ٣٧) .

الهون : الهوان والذلّ .

يدسّه : يخفيه .

مثل السوء : الصفة السوء ، وهى احتياجهم إلى الولد ، وكراهتهم للبنات ؛ خوف الفقر والعار .

ولله المثل الأعلى : الصفة العليا ، وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

تمهيد :

بعد أن بين سبحانه ، سخف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم ، التى تمجُّها الأذواق السليمة .

التفسير :

٥٦ – وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ...

أى : ويجعل هؤلاء المشركون ، للأصنام التى لا يعلمون منها ضرًّا ولا نفعًا ، نصيبًا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرها .

ويجوز أن يكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا تعلم شيئا ؛ لأنها جماد لا يعقل ولا يبصر – يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم ؛ فتركوا التقرب إلى الخالق الرازق المستحق للحمد والشكر ، وتقربوا إلى الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وقد فصلت سورة الأنعام ذلك فى قوله تعالى:

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ .(الأنعام: ١٣٦) .

تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ . أى : أقسم لأسألنكم عما اقترفتموه واختلقتموه من الباطل ، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة ، تكون كفاء كفرانكم نعمى ، وافترائكم علىّ ، وقريب من ذلك قوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (الحجر: ٩٢،٩٣).

٥٧- وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ .

تشير هذه الآية إلى ما كان شائعا فى بعض القبائل العربية فى الجاهلية ، من أنهم كانوا يزعمون: أن الملائكة بنات الله ، إذ قالت قبيلة خزاعة وقبيلة كنانة : إن الملائكة بنات الله ، ثم عبدوا الملائكة مع الله تعالى ، فأخطئوا بذلك خطأ كبيرا ، وضلّوا ضلالا بعيدا ؛ إذ نسبوا إليه الأولاد ، وهو منزَّه عن الصاحبة والولد ، وأعطوه أخسَّ الأولاد فى زعمهم ، واختصوا أنفسهم بالذكور ، قال تعالى : وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا . (الزخرف: ١٩) .

وقال سبحانه : أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . (النجم: ٢٢،٢١) .

وقال عز شأنه: أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (الصافات: ١٥١-١٥٤) .

وكانوا يدَّعون: أن الله تعالى تزوج من الجن فولدت له الملائكة ، قال سبحانه : وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . (الصافات: ١٥٨) .

والمراد من قوله سبحانه : وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ . أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ، ويأنفون من البنات، التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال ابن عباس: المعنى : تجعلون لى البنات ، وترتضوهنَّ لى ، ولا ترتضوهن لأنفسكم ، ثم أكد ما سلف بقوله سبحانه :

٥٨، ٥٩- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ .

تحكى هذه الآيات جانبا من رذائل بعض القبائل العربية ، التى كثر بينها الحرب والغارة والقتال، والعدوان ودفع العدوان والثأر ، فأكلت الحرب رجالهم وأموالهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بثلاثة أشياء ، شاعر ينبغ ، أو ذكر يولد ، أو فرس تنتج ، وكلها عدة الحرب .

فالشاعر يمدح قبيلته ويتغنى بأمجادها ، ويهجو أعداءها ، والولد الذكر عدة الحرب والغارة ، فى بلد لا سلطان فيه ولا قانون ، وإنما السيف هو السلطان والقانون ، والفرس : هو الخيل التى أقسم الله بها فى كتابه ، وكانت عدة الحرب فى الجاهلية والإسلام .

كانت بعض القبائل العربية تكره ولادة الأنثى ، وقد وصف القرآن ذلك أبلغ وصف ، وعبر عنه أقوى تعبير :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ...

فإذا علم أحد هؤلاء المشركين أنه ولد له أنثى ؛ ظل وجهه كئيبا حزينا ، مسودًا من الهم ، ممتلئا غيظا وحنقا ، من شدة ما هو فيه من الحزن.

يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ...

فهو يختفى عن القوم حياء وخجلا ، وحزنا وكمدا ؛ من أجل أن زوجته ولدت له أنثى ، ولم تلد له ذكرا، ويدور بخلده أحد أمرين :

١- إما أن يمسكها ويبقيها على قيد الحياة ، لكن بقاء ذلة وهوان ، فلا يورثها ولا يعنى بها ، بل يفضل الذكور عليها .

٢- وإما أن يدفنها فى التراب ، وهى على قيد الحياة ، فيقتلها دون أن ترتكب ذنبا أو إثما ، قال تعالى:
وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ . (التكوير: ٨،٩) .

أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أى : بئس الحكم حكمهم ، وبئس الفعل فعلهم ؛ حيث نسبوا البنات إلى الله ، وظلموهن ظلما شنيعا ، حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلهن ، بدون ذنب أو ما يشبه الذنب .

وصدَّر سبحانه هذا الحكم العادل عليهم ، بحرف ألا الاستفتاحية ؛ لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه ، إنما هو جور عظيم ، قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيىء .

وأسند سبحانه الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل هذا كان بعضا منهم ؛ لأن ترك هذا البعض يفعل ذلك الفعل القبيح ، هذا الترك هو فى ذاته جريمة يستحق عليها الجميع العقوبة ؛ لأن سكوتهم على هذا الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به .[٨١] .

٦٠- لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

أى : للذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب ؛ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ . أى : صفة السَّوْء، التى هى كالمثل فى القبح ، وهى وأدهم البنات ، وقولهم: الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور ، وكرههم لولادة الأنثى ، فهذه الصفات تدل على صلفهم وغبائهم وسوء تفكيرهم.

وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ أى : الصفة العليا ، وهى أنَّه الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد ، والمتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص ، فهو العلىّ العظيم القادر الوهّاب ، العليم الحكيم العزيز الملك القدوس السلام، المؤمن ، المهيمن الجبار القهار ، الخالق البارئ المصور ، بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير .

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ فى ملكه بحيث لا يغلبه غالب .

ٱلْحَكِيمُ فى أفعاله وأقواله .

قال الشوكاني :

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ .

هذا وجه آخر فى الردّ على من قال عن الملائكة: إنها بنات الله ، فإن الولد مثل أبيه ، أى : اختاروا أضعف الجنسين ؛ ليكون عندهم مثلا لله ، بل لهؤلاء الذين وصفوا الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة ، مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ، أى : صفة السوء من الجهل والكفر بالله .

وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ .

من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم الواسع[٨٢] .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات :

دابـــــــــة : الدابة: كل ما يدب على الأرض ، ويدخل فيه الإنسان .

إلى أجـل مســمـى : أى : إلى موعد مقدّر .

ويجعلون لله ما يكرهون: من البنات بزعمهم: أن الملائكة بنات الله .

أن لهم الحسنى : الذكور أو الجنة .

لا جرم : حقًا .

مفرطون : منسيون مضيعون ،متروكون في النار .

تالله : أقسم الله عز وجل بنفسه .

فهو وليهم : ناصرهم فى الدنيا ، وبئس الناصر .

ولهم عذاب أليم : موجع فى الآخرة .

الذى اختلفوا فيه : فى دين الله ، فتُعرّفهم بالصواب .

التفسير:

٦١ – وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

تفيد هذه الآية : حكمة الله ورحمته بعباده ؛ فقد خلق الله الخلق ومنحهم العقل والإرادة والاختيار، وأعطاهم فرصة سانحة فى هذه الدنيا طوال حياتهم فيها ، ولو عاجل الله الناس بالعقوبة ؛ لأهلك الظالمين والكافرين جميعا ، وصارت الأرض يبابا ؛ لكثرة من هلك من الظالمين والكافرين ، لكن الله جلت حكمته يؤجِّل هلاك الإنسان ، ويمنحه فرصة كاملة ؛ لعلَّه أن يتوب أو يسترجع ، فإذا جاء أجل الإنسان وحان موته ، فإن روحه تخرج فى لحظة محددة ، لا تتقدم عنها أىّ وقت مهما كان صغيرا ، ولا تتأخر عن أجلها لحظة أو برهة .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء مرفوعا : « إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد ؛ فيدعون له من بعده ؛ فيلحقه دعاؤهم فى قبره ؛ فذلك زيادة العمر »[٨٣] .

٦٢– وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ .

أى : إن المشركين يجعلون لله البنات والشركاء وهم يكرهون البنات ، ويكرهون أن يشاركهم أحد فيما يملكون ، ثم يتحدثون كذبا وزورًا : أن لهم العاقبة الحسنة ، والجزاء الأفضل فى الجنة ، فهم يعملون عملاً سيئًا ، ويزعمون كذبا: أن لهم الحسنى فى الآخرة ، مع أنك لا تجنى من الشوك العنب ، وعقيدة الكفر وسلوك الكافرين ، لا يؤدى إلاَّ إلى النار فى الآخرة .

لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ . أى : حقًا إن لهم فى الآخرة النار وعذابها ، وأنهم مفرطون ، أى: معجلون إلى النار من الفرط ، وهو السابق إلى الورد ، ومن معانى : مُّفْرَطُونَ . متركون منسيُّون مطيَّعون ، ولا منافاة بينهما ؛ لأن الكفار يُعجَّل بهم إلى النار ، وينسون فيها ويخلَّدون فيها أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

٦٣– تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أقسم الحق سبحانه وتعالى بنفسه مؤكدًا : أنه أرسل رسلاً ، وأنزل عليهم كتبا ، وبعثهم إلى أمم متعددة، كأمة إبراهيم وأمة موسى ، وأمة عيسى ، وأمة نوح ، وأمة عاد ، وأمة صالح ، وغيرهم من الأمم، لكن هذه الأمم لم تستجب لدعوة الأنبياء ، ولم تبادر إلى تصديق الرسل ، بل صدُّوا عن سبيل الله ، وكفروا برسل الله ، وزين لهم الشيطان هذا الكفر ، وأغراهم به فآثروا الباطل ، ورفضوا الإيمان ، وفى يوم القيامة ليس لهم ولى إلا الشيطان ، وعندئذ يرضخون تحت العذاب ، ويصلون جهنم ولا تنفعهم ولاية الشيطان .

وقريب من هذا المعنى قال الله تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ... (إبراهيم: ٢٢).

ويحتمل أن يكون معنى فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ : الإشارة إلى كفار مكة ، فيكون المعنى : تالله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم ، فحسَّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل ، ومثل هذا التزيين والتكذيب ، ما يقوم به كفار مكة ، فالشيطان وليهم اليوم ، وناصرهم ، وبئس الناصر ، ولهم عذاب أليم فى الآخرة ؛ جزاء تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله .

وقريب من هذا المعنى الثانى قوله تعالى : ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ. (البقرة: ٢٥٧).

٦٤– وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى : أنزلنا عليك القرآن – يا محمد – لتبين لهم وجه الصواب فيما اختلفوا فيه ، من العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام ، وليكون القرآن هداية وإرشادًا وبيانا ، ورحمة لمن أراد الإيمان والاهتداء بهدى السماء ، فالقرآن يشتمل على تعاليم السماء ، وهذا القرآن مصدِّقا للكتب السابقة فى جملتها ، ومهيمنا عليها ؛ لبيان وجه الحق فيم اختلف فيه أهلها ، وفى نفس الوقت هو رحمة وهداية لمن

اهتدى وآمن، أما من كفر وكذّب وصدَّ عن الحق ، فهو خارج عن الاستفادة بهدى القرآن ، بل أصبح القرآن حجة عليه، وزاده نزول القرآن إعراضًا وكبرًا وعتوًّا .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ . (فصلت: ٤٤) .

★ ★ ★

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات :

فأحيا به الأرض : المراد بحياة الأرض : إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر .

يسمعون : سماع تدبر وفهم ، بقلوبهم لا بآذانهم .

لعبرة : الاعتبار والعظة .

الفرث : كثيف ما يبقى من المأكول فى الكرش والمعى .

ودم لبنا خالصا : أى : مصطفى من الدم والفرث ليس عليه لون دم ، ولا رائحة فرث .

سائغا للشاربين : سهل المرور فى الحلق ، يقال : ساغ الشراب فى الحلق ، أو ساغه صاحبه ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ .

السكر : الخمر .

الرزق الحسن : الخلّ والتمر والزبيب ونحو ذلك .

وأوحى : ألهم وعلّم وقذف فى أنفسها ففهمته .

النحل : زنابير العسل واحدتها : نحلة .

يعرشون : يرفعون من الكروم والسقوف .

السُّبل : واحدها : سبل .

ذُللاً : واحدا : ذلول ، أى : منقادة طائعة .

شراب : عسلا .

مختلف ألوانه : من أبيض إلى أصفر إلى أسود بحسب اختلاف المرعى .

تمهيد:

تشتمل الآيات على دلائل القدرة الإلهية ، فالله أنزل من السماء المطر وبه تخضر الأرض وتنبت، ومن نعم الله : إخراج اللبن من الأنعام خالصا سائغًا للشاربين ، ويسر لنا اتخاذ الخمر والخلّ والدبس من الأعناب والنخيل ، ويسر لنا استخراج عسل النحل : وألهم النحل بناء البيوت ، والبحث عن أرزاقها فى كل فج .

التفسير:

٦٥ – وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

نلحظ يد القدرة الإلهية فى إعمار هذا الكون وحفظ توازنه ، فالشمس ترسل أشعتها على البحار والمحيطات ، فيتصاعد البخر إلى السماء ، فيرسل الله الرياح فتثير السحاب ، ثم يتساقط مطرًا بمشيئة الله تعالى ، وهذا المطر يحيى الأرض ويتسبب فى إنبات النبات والثمر ، وحياة الإنسان والحيوان ، وإعمار الكون، قال تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . (فصلت: ٣٩) .

والمعنى: وإن من دلائل قدرة الله تعالى ، إنزاله المطر ، حيث تنبت الأرض الثمار والأعناب وسائر النباتات ، وفى هذا آية ودليل على ألوهية الخالق ، لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ بقلوبهم ، وأفئدتهم ، دعوة الحق؛ فيستجيبون لها .

٦٦– وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ .

من دلائل القدرة الإلهية: أن الحيوان يتغذى ببعض نبات الأرض ، فيتحول الطعام إلى قسمين : فضلات من الفرث تكون فى كرش الحيوان ، وعصارة من الدم تغذى الجسم ، وتمدُّه بالطاقة التى يحتاج إليها ، وهذا الدم أيضا يذهب جزء منه إلى الغدد التى فى الضرع فتحوّلها إلى لبن فكأن الصانع الحكيم جعل هذه الغدد معملاً ومصنعًا ، لتحويل الدم إلى لبن ، هذا اللبن النقى السائغ المستساغ للشرب ، النافع

للصغير والطفل والكبير ، هذا اللبن من أفضل الأطعمة ، التى يستفيد بها الجسم ، وهو دليل الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهى الإسلام ، وفى الحديث الصحيح : أنه فى ليلة الإسراء والمعراج ، قدَّم جبريل للنبى ﷺ إناءين أحدهما من خمر ، والآخر من لبن ، فاختار الرسول ﷺ اللبن ؛ فقال له جبريل : اخترت الفطرة .

وروى أبو داود وغيره : عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ بلبن ، فشرب ، ثم قال : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرًا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم ، بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شىء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن » .

٦٧- وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ . وهو : التمر والدبس والرطب والعجوة ، ومن ثمرات ٱلْأَعْنَـٰبِ ، وهو العنب والزبيب؛ تتخذون من هذه الثمرات سَكَرًا يسكر ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وَرِزْقًا حَسَنًا . كالخلّ والمربّة والزبيب ، ونحو ذلك .

قال ابن عباس :

السَّكر : ما حُرِّم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن: ما حلّ من ثمرتيهما .

فالآية تصف الواقع ، ولم تقل : سكرا حسنا ، بل قالت : سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا . وقد كانت هذه حلقة ، فى سلسلة تحريم الخمر بالتدريج ، فقد كانت الخمر متمكنة من العرب ، فكان من الحكمة أن يندرج القرآن فى تحريمها ، فذكر : أنَّهم يتخذون سكرا من ثمار النخيل والأعناب ، والسَّكر هو ما يسكرهم ؛ لذلك لم يتحدث عنه القرآن بالتحسين ، بل قال : سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا .

ثم ذكر: أنّ فى الخمر والميسر منافع ومضار؛ لكنَّ المضار أكثر من المنافع ، قال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . (البقرة: ٢١٩) .

ثم نهى عن الاقتراب من الصلاة فى حالة السكر فقال سبحانه : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ . (النساء : ٤٣) .

ثم حرم الله تعالى الخمر والميسر تحريما قاطعا فقال سبحانه : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (المائدة: ٩٠،٩١) .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

أى : إن فى ذلك لآية باهرة ، ودليلا قاطعا على نعم المنعم سبحانه ، لقوم يستخدمون عقولهم بالنظر والتأمل ، فيصلون إلى توحيد الله وعبادته سبحانه وتعالى .

٦٨- وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ...

تتحدث الآية عن قدرة الحق سبحانه فى تنظيم هذا الكون وإبداعه ، وإتمام الخلق وإكماله ، فقد تحدث فيما سبق : عن إنزال الماء وفائدته ، وعن تيسير اللبن ومزاياه ، وعن فوائد ثمرات النخيل والأعناب، ثم تحدثت الآية عن نعمة الله على النحل ، حيث ألهم النحل ، وأودع فيها طريقة العمل الجماعى ، وتنظيم العمل فيما بينها ، بطريقة تعجز عن تطبيقها أعظم العقول ، فالنحل يتخذ بيوته فى ثلاثة أماكن ، بين الجبال أى : فى الفرجات التى تكون فى الجبل ، وفى الفجوات التى تكون فى الشجر ، وفوق العريش الذى يصنعه الإنسان ؛ لتربية النحل والاستفادة بالعسل .

٦٩- ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

جاء الحديث فى الآية السابقة ، عن إلهام النحل: أن تتخذ بيوتها من بعض الجبال ، ومن بعض الأشجار ، وفوق العروش التى يصنعها الإنسان ، فليس كل جبل صالحا لحياة النحل ، ولهذا جاءت من التبعيضية ، أى : اتخذى من بعض الجبال .

وهنا أباح الأكل من جميع ما تشتهيه ، ومما تحب أكله من الثمرات ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ . أى : الحلو والمرّ والحامض والحريف ، ويتحول بقدرة القادر إلى شهد .

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا . أى : سيرى فى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكيها ، وتدخلى فيها لطلب الثمار ، ولا تعسر عليك وإن توعّرت ، ولا تضلى عن العودة منها وإن بعدت .

والخلاصة : سيرى فى الطرق والمسارات التى ذللها الله لك ، ويسر لك السير فيها ، والعودة منها إلى منزلك ، أو سيرى حال كونك مذللة لله مسخرة منقادة لخدمة الإنسان .

يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .

كان الحديث عن النحلة فيما سبق ، وهنا اتجه الحديث إلى الناس ؛ لإعلامهم بفضل الله عليهم .

والمعنى : يخرج من بطون النحل شراب هو العسل ، متعدد الألوان ، فتارة يكون أبيض ، وأخرى أصفر، وحينا أحمر ، بحسب اختلاف المرعى .

فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ .

أى : إن العسل نافع لكثير من الأمراض ، وكثيرًا ما يدخل فى تركيب العقاقير والأدوية .

وقد اختلف العلماء فى هذا الشفاء ، هل هو عام لكل داء ، أو خاص ببعض الأمراض .

فقالت طائفة: هو على العموم فى كل حال ولكل أحد .

وقالت طائفة أخرى : إن ذلك خاص ببعض الأمراض ، ولا يقتضى العموم فى كل علة وفى كل إنسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن ، فالقرآن مملوء منه ، ولغة العرب يأتى فيها العام كثيرا بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام ، ومما يدل على هذا ، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات ، فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان ، ومحققى أهل الأصول . وتنكيره وإن أريد به التعظيم ، لايدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض أو أمراض ، لا لكل مريض، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم .

وحديث البخارى : « إن أخى استطلق بطنه »[٨٤] ، يفيد : معرفة الرسول ﷺ ، بأن هذا المرض يناسبه العسل ، ولا نستطيع أن نقول : إن جميع الأمراض يناسبها العسل ، بل نقول : العسل مناسب وشفاء لبعض الأمراض ، وينبغى أن نرجع إلى معرفة الأطباء المختصين ، ونتبع مشورتهم ، وأن نمتنع عن أكل العسل إذا أفاد الطبيب : أنه غير مناسب لمرض من الأمراض[٨٥] .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : فيما ذكره الله تعالى من تعداد هذه النعم ، وتسخير النحل وإلهامها: أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تتخذ البيوت من الجبال والشجر والعروش ، وتيسير نظامها وعملها وخروج العسل منها ؛ ليكون شفاء للناس ؛ فى كل ما ذكر آيات ودلائل واضحات ، لقوم يتفكرون ويتأملون ،ويشهدون بأن كل ذلك من صنع الإله الواحد الأحد ، الذى ليس كمثله شىء ، وأنه لا ينبغى أن يكون له شريك ، ولا تصح الألوهية إلا له .

ملحق بتفسير الآية

تتبع علماء المواليد أحوال النحل ، وكتبوا فيها المؤلفات ، بكل اللغات ، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها ، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور :

(أ) أنها تعيش جماعات كبيرة ، قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة ، وتسكن كل جماعة منها فى بيت خاص يسمى : خليّة .

(ب) أن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمَّى : الملكة أو اليعسوب ، وهى أكبرهم جثة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمَّى : الشغالات أو العاملات .

(ج) تعيش هذه الفصائل الثلاث فى كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما ، فعلى الملكة وحدها وضع البيض ، الذى يخرج منه نحل الخلية كلها فهى أم النحل ، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر ، وعلى الشغالة خدمة الخلية ، وخدمة الملكات ، وخدمة الذكور ، فتنطلق فى المزارع طول النهار لجمع رحيق الأزهار ، ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا ، يتغذى به سكان الخلية صغارًا وكبارًا ... كما عليها أن تنظف الخلية ، وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن المملكة ، وحراستها من الأعداء ، كالنمل والزنابير وبعض الطيور .

من هدى السنة

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى : أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخى استطلق بطنه ، فقال له رسول الله : « اسقه عسلا » فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله ، سقيته عسلا ، فما زاده إلا استطلاقا ، قال : « اذهب فاسقه عسلا » ، فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال: يا رسول الله ، ما زاده ذلك إلا استطلاقا ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرئ[٨٦] .

وعلل هذا بعض الأطباء الماضين، قال :

كان لدى هذا الرجل فضلات فى المعدة ، فلما سقاه عسلاً ؛ تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضرّه وهو فائدة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ، وكلما سقاه حدث مثل هذا، حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام ، بإرشاده عليه السلام .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشفاء فى ثلاثة : شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كيَّةٌ بنار ، وأنهى أمتى عن الكى »[٨٧].

وروى البخارى أيضا عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن كان فى شىء من أدويتكم ، أو يكون فى شىء من أدويتكم خير ، ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار توافق الداء ، وما أحبّ أن أكوى »[٨٨] .

وقد تحدث الأطباء فى القديم والحديث عن فضل العسل وأهميته فى علاج بعض الأمراض ، وذكروا أن التركيب الكيماوى للعسل كما يلى :

من ٢٥ : ٤٠٪ جلوكوز .

من ٣٠ : ٤٥٪ ليفيلوز .

من ١٥ : ٢٥٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فى العسل بنسبة أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم ، مثل : التسمم البولى الناشئ من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وضدّ التسمم فى الحميات ، مثل: التيفويد والالتهاب الرئوى ، والسحائى ، والمخى ، والحصبة ، وفى حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفى احتقان المخ، وفى الأورام المخية ..إلخ[٨٩] .

★ ★ ★

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

المفردات :

أرذل العمر : أضعفه وأوهاه ، وهو وقت الهرم والشيخوخة ، يقال: رذُل الشيء، يرذل، رذالة ؛ إذا ذهب جيده وبقى رديئة .

وحفدة : الحفدة: أولاد الأولاد ، من الحفْد وهو الخفة في العمل والخدمة ، كما جاء في القنوت : وإليك نسعى ونحفد . روي عن ابن عباس أنه قال : الحفيد: ولد الابن والبنت ، ذكرا كان أو أنثى ، وقيل : المراد بهم : الأختان والأصهار ، أي: أزواج البنات وأقارب الزوجة ، وكلها أقوال متقاربة .

تمهيد:

بعد أن ذكر سبحانه عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ، أردف ذلك ببيان أحوال الناس ، فذكرت مراتب أعمارهم ، فمنهم من يموت صغيرا ، ومنهم من يعمَّر حتى يصل إلى أرذل العمر ، ومنهم من يموت فى مرحلة الشباب أو الكهولة ، ثم ثنَّى بذكر أعمال أخرى لهم ، وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق ، ثم ثلث بذكر نعمة ثالثة ، وهى أن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا ، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة ، ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات ، كالثمار والحبوب والأشربة ، فمن الواجب شكر المنعم وعبادة الله وحده لا شريك له .

التفسير:

٧٠ - وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

خلق الله الخلائق من عهد آدم إلى قيام الساعة ، وبيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير ، فالطفل يولد صغيرا ، وتوجد معه الحواس المختلفة ، والسمع والبصر واليد والرجل ، ثم يصير فتًى ، ثم شابا ، ثم كهلاً ، ثم شيخًا ، وفى نهاية العمر تضعف قواه وذاكرته ويعتريه النسيان ، فإذا كسب علما فى شىء لم يلبث أن ينساه ، ويزول من ساعته ، فيقول لك : من هذا ؟ ، فتقول له : هذا فلان ، فلا يمكث إلا هنيهة، ثم يسألك عنه مرة أخرى .

وقد ذكر العلماء للإنسان أربع مراتب :

أوّلها : سن النشوء والارتقاء ، **وثانيها** : سن الوقوف وهو سن الشباب من ٣٣ إلى ٤٠ سنة ، **وثالثها** : سن بداية الضعف وهو سنّ الكهولة وهو من الأربعين إلى الستين، ورابعها: سن الضعف الشديد ، وهو سن الشيخوخة ، وهو من الستين إلى نهاية العمر .

لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا .

أى : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس إلى سن الشيخوخة ؛ لكى يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته ، فى عدم إدراك الأمور إدراكا تاما سليما ، أو لتكون عاقبته بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لا يعلم شيئا منها علما كاملا ، وقد استعاذ النبى ﷺ من أن يردّ إلى أرذل العمر ؛ لأنها سن تتكاثر فيها المتاعب والآلام ، وقد يصير الإنسان فيها عالة على غيره .

روى البخارى عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « اللهم ، إنى أعوذ بك من البخل والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات »[٩٠] .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

إن الله تعالى عليم بأحوال مخلوقاته ، لا يخفى عليه شيء من تصرفاتهم ، قَدِيرٌ. على تبديل الأمور كما تقتضى حكمته وإرادته .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ . (الروم: ٥٤) .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش	ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرم

لقد بين القرآن: أن المنايا ليست خبط عشواء ، إلاّ من ناحية الظاهر ، أما الحقيقة فهى تسير وفق خطٍّ القدر ، الذى كتبه الله فى الأزل ، وهو العليم بحال عباده ، القدير على تنفيذ المشيئة ، فمن الناس من يتوفى صغيرا أو شابا أو كهلاً ، ومنهم من يعمَّر .

قال تعالى: ... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا .. (الحج: ٥) .

٧١ - وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .

شاءت حكمة الله تعالى ، أن يجعل بعض الناس واسع الأرزاق ، وبعضهم قليل الرزق ، وبعضهم بين بين ؛ لحكمة يعلمها ؛ حتى يستفيد الغنى من عمل الفقير ، ويستفيد الفقير من مكافأة الغنى .

قال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ . (الشورى: ٢٧) .

ومن الأمثال المشهورة : إذا كنت أمير ، وأنا أمير ، من يسوق الحمير .

إن هذا التفاوت بين الناس فى المواهب والأرزاق ، سنة إلهية ، حيث قال تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... (الحج: ٧٥) .

وقال سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة: ٢٤٧) .

ويذكر بعض المفسرين : أن نعم الله متعددة ، فالعلم ملك ، والخلق ملك ، والحكمة ملك ، والمال ملك، وسائر العطايا والمواهب ، يعطى منها الوهاب بغير حساب .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ . (آل عمران: ٢٦) .

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ...

أى : من الناس الأغنياء ومنهم الفقراء ، ومنهم العلماء ومنهم الجهلاء ، ومنهم المملوك ومنهم المالك ، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل فحسب ، فكثيرا ما ترى العبقرى النابه ، لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهيد ، بينما ترى الأحمق يتقلب فى النعيم ، كأنما يغترف الرزق من خليج البحر .

قال سفيان بن عيينة :

كم من قوى قوىٌ من تقلّبه ... مهذب الرأى عنه الرزق منحرف

ومن ضعيف ضعيف العقل مختلِط ... كأنه من خليج البحر يغترف

ويقول آخر :

كم عاقل عاقل أعيتْ مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة ... وصيّر العالم النحرير زنديقا

لكن لله حكمة خفية فى كل أعماله ، فقد يكون كثرة الرزق ابتلاءً واختبارًا ، وقد يكون الفقر اختبارًا وابتلاءً ، وقد تكون للإنسان مواهب قوية ، لكن موهبته فى تثمير المال محدودة ، وقد يكون الإنسان ضعيف الحيلة فى أمور كثيرة ، لكن موهبته فى استثمار المال عالية .

وفى الحديث القدسى: « إن من عبادى من لا يصلح له إلا الغنى ولو أفقرته ؛ لساء حاله ، وإن من عبادى من لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته ؛ لساء حاله » .

فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ...

أى : إن الأغنياء والأثرياء ، والمالكين للخدم والعبيد ، لا يوزعون ثروتهم على العبيد والخدم ، حتى يتساووا جميعا فيما يملكون ، بل يحافظون على أموالهم وأملاكهم ، ولا يعطون أتباعهم وخدمهم منها ،

وإن أعطوهم أعطوهم النذر اليسير من المال ، وأمسكوا المال فى أيديهم ، إذا كان هذا شأن العباد مع بعضهم ، فكيف يشركون مع الله معبودات أخرى من مخلوقاته ، ويجعلونهم شركاء لله فى الألوهية .

قال العوفى: عن ابن عباس فى هذه الآية يقول :

لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معى عبيدى فى سلطانى ..

جاء فى تفسير ابن كثير :

يقول تعالى منكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى، بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم ؟!

كما قال تعالى فى آية أخرى :

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ...(الروم: ٢٨) .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله :

أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .

أى : أينعم الله عليهم بالمال والجاه والخلق والرزق ، ثم ينسبون هذه العطايا إلى غيره ، فيجحدون نعمة الخالق الرازق الذى بيده الخلق والأمر ، والهمزة هنا للاستفهام الإنكارى ، والفاء معطوفة على مقدّر، أى: أيشركون به سبحانه فيجحدون نعمه وينكرونها ويغمطونها حقها ، مع أنه تعالى هو الذى منحهم هذه النعم ، وتفضل عليهم بالأرزاق .

٧٢– وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ...

خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وزوّجه حواء ، وجعل من نسل آدم وحواء ذرية كثيرة ، وشاء الله أن تكون الزوجة من جنس الرجل ؛ ليحدث الأنس والمودة والرحمة ، وقد جعل الله هذا الأنس والمودة والرحمة ، آية من آيات الله ، وبذلك يتنعم الزوجان ويذوقان عُسيلة بعضهما ، قال تعالى:

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم: ٢١) .

وقال ﷺ : « حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[٩١] .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .

نلمح هنا المساواة بين الرجال والنساء ، وقد كان بعض أهل الجاهلية يكره ولادة البنات ، ويتوارى خجلا إذا رزق بالبنات ، ويعتبر البنت مولودًا غير مرغوب فيه ؛ فيمسكه على هون أو يدسه فى التراب ، فلما جاء الإسلام ؛ كرَّم إنسانية الإنسان .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ . (الإسراء: ٧٠) ، وكرَّم المرأة وليدة ، وناشئة ، وزوجة ، وأمًّا ، فالمرأة من نفس الرجل، وهى شقيقة الرجل ، وليست المرأة مخلوقا من الدرجة الثانية ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً . (النساء : ١).

وقال ﷺ : « النساء شقائق الرجال »[٩٢] .

وقد جعل الله القوامة للرجل على زوجته ، مقابل النفقة والولاية والمسئولية عن الأسرة ، وهى ولاية مودة ورحمة وتعاطف ، لا ولاية غلظة وتجبر .

قال تعالى: ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ... (النساء: ٣٤).

قال الشيخ أحمد المراغى فى تفسير المراغى:

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .

أى : والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم ، تأنسون بهن ، وتقوم بهنّ جميع مصالحكم ، وعليهن تدبير معايشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة – أى: أولاد ، وأولاد أولاد – يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضرّاء . ا هـ .

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ .

يمتن الله علينا بالأرزاق المتعددة فى المأكل والمشرب والمنكح ، والهداية والملابس والمساكن ، وسائر الطيبات التى ينتفع بها الإنسان إلى أقصى الحدود وأبعد الغايات .

أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ .

أى : إن الله قد أنعم أهل مكة بالعديد من النعم ، التى أنعم بها على سائر البشر ، مثل: الأزواج، والأبناء ، والأحفاد ، والطيبات من الرزق ، لكنهم يؤمنون بالأوثان والأنصاب ، والشركاء والأنداد ، التى

لم تقدم لهم أىَ رزق ، ويكفرون ويجحدون نعم الله المتعددة عليهم ، فلا يقدمون له الشكر ، ولا يعترفون له بالألوهية والوحدانية ، وبأنّه وحده الخالق الرازق ، الذى لا شريك له ، وقد استهلّ القرآن هذه الفقرة بالاستفهام الإنكارى : أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ . فيشركون به ويخالفون عن أمره ، وهذه النعم كلها من عطائه ، وهى آيات على ألوهيته ، وهى واقعة فى حياتهم ، تلابسهم فى كل آن .

★ ★ ★

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

رزقا من السماوات : رزق السماء: المطر ، ورزق الأرض: النبات والثمار التى تخرج منها .

فلا تضربوا لله الأمثال: لا تجعلوا له الأنداد والنظراء ؛ فهو كقوله : فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا . (البقرة: ٢٢) ، وضرب المثل للشيء ، ذكر الشبيه له والمثيل ، مع أنه سبحانه منزه عن ذلك ، قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى: ١١) .

أحدهما أبكم : البكم : الخَرس؛ وهو إمَّا ناشئ من صمم خلقى ، وإما لسبب عارض ، ولا علة فى أذنيه، فهو يسمع ، لكن لسانه معتقل لا يطيق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ؛ لأن الكلام بعد السماع ، ولا سماع له .

الكلُّ : الغليظ الثقيل من قولهم: كلَّت السكين ، إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكَلَّ عن الأمر: ثقل عليه فلم يستطع عمله ، وقد يسمّى اليتيم: كلاًّ ؛ لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر:

أكول لمال الكلِّ قبل شبابه . إذا كان عظم الكلِّ غير شديد

فالكل هو الإنسان الضعيف العاجز ، الذى يكون محتاجا إلى من يرعى شئونه .

على صراط مستقيم: أى : طريق عادل غير جائر .

تمهيد:

تشنّع الآيات على الكافرين ، فى عبادتهم الأصنام والأوثان ، مع عجزها وعدم قدرتها على رزق الآخرين ، وتنهى أن يجعل لله ندا أو مثيلا ، فهو سبحانه لا ندّ له ولا نظير ، ثم ضرب سبحانه مثلا ، قارن فيه بن عبد مملوك قاصر قليل الحيلة ، وحرّ متحرك ينفق سرا وجهرًا هل يستويان ؟ ، وإذا امتنع ذلك فكيف يُسوِّى المشركون القادر الرازق ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضرّ .

والمثل الثانى : مثل رجلين :

أحدهما : أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير ، وهو عبء ثقيل على سيده .

وثانيهما: رجل يأمر غيره بالعدل ، وهو متحدث ناطق ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه ، متعدد المواهب والمزايا ، نافع لنفسه وللآخرين ، وفيه أيضا مقارنة بين صمّ لا يسمع ولا ينفع، وبين رب قادر خالق رازق سميع مجيب .

التفسير:

٧٣ - وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ .

أى : إن هؤلاء الكفار يعبدون من دون الله أصناما ، لا تملك إنزال المطر ، ولا تملك إنبات النبات ، ولا تملك أى شىء من دلائل القدرة الإلهية ، التى تحدث القرآن عنها فيما سبق ، فهو سبحانه : خالق الإنسان ، وخالق الذكر والأنثى ، وخالق البنين والحفدة ، ورازق الإنسان من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، بينما نجد الكافرين يعبدون أصناما لا تنفع ، ولا تضرّ ولا تسمع ولا تجيب ، ولا تستطيع ذلك لو أرادته ، فهى أصنام فى غاية الضعف وقلة الحيلة ، وأتبع ذلك بضرب مثلين يقارب فيهما بين الصنم العاجز والإله القادر سبحانه وتعالى .

٧٤- فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : ليس لله مثال حتى تضربوا له الأمثال ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى: ١١).

قال الزجاج :

ورد: أن المشركين كانوا يقولون : إن إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منّا ، فكانوا يتوسلون إليه بالأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك . ا هـ .

فالله سبحانه : أقرب إلينا من حبل الوريد ، وقد فتح بابه للداعين والتائبين ، والقاصدين فى كل وقت وحين ، وهو سبحانه يقبل عباده ، الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والسوقة والأمير ، والمذنب والطائع، فلا يجوز أن تقاس أحوال الخلائق على أحوال الخالق ، قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦) .

أخرج ابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس أنه قال : فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلأَمْثَالَ .

أى : لا تجعلوا معى إلها غيرى ، فإنه لا إله غيرى . ا هـ .

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الإجرام ، وعظيم الآثام ، وأنتم لا تعلمون حقيقته ، ولا مقدار عقابه ، أو إن الله هو الذى يعلم كيف تُضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

٧٥- ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ .

ضرب الله هنا مثلا لرجلين :

أحدهما : عبد مملوك عاجز عن التملك والإنفاق ، وعاجز عن كل شىء .

والثانى : مالك كثير الرزق ينفق سرا وجهرًا .

والمثل الثانى: للسيد المالك الرازق ، والأول : للمملوك العاجز الذى لا يملك ولا يكسب ؛ وذلك لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها – حقيقة أن ليس لله مثال، وما يجوز أن يسووا فى العبادة بين الله وواحد من خلقه ، وكلهم له عبيد .

هَلْ يَسْتَوُونَ . أى : هل يستوى الإله القادر ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شىء البتة .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ .

أى : الحمد الكامل لله خالصا ، دون ما تدعون من دونه من الأوثان ، فاتجهوا بالحمد لله الخالق الرازق ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار يجهلون هذه الحقيقة ، ويجعلون لله شركاء فى العبادة والحمد .

٧٦- وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

يصوّر هذا المثل رجلين :

أحدهما : أبكم بليد ضعيف لا يَسمع ، ولا يُسمع ، وهو عاجز عن خدمة نفسه ، فضلا عن خدمة غيره، وهو مثال للصنم المصنوع من خشب أو نحاس ، وهو فى حاجة إلى من يحمله وينظفه ويعنى به ، وترى أن النموذج لرجل فاقد الحيلة ، محتاج إلى مولًى يرعاه وينفق عليه ، وعاجز عن إنجاز أى مهمة .

هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

أى: هل يستوى الأبكم الأصمّ العاجز الضعيف ، برجل سليم الحواس عاقل ، ينفع نفسه وينفع غيره، يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم ، هل يستويان ؟!

ولا يسوّى عاقل بين هذا وذاك ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وتعالى، وهو القادر العليم ، الآمر بالمعروف ، الهادى إلى الصراط المستقيم[٩٣] .

ويمكن أن تكون هذه النماذج ؛ لبيان الفرق الشاسع ، بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره، وبين الكافر الذى استجلب العمى على الهدى ، أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله ، وبين الباطل فى ظلامه وقبحه .

وبهذه الأمثلة ؛ تكون السورة قد ساقت أعظم الأدلة ، وأوضحها على صحة قوله تعالى قبل ذلك: وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ... (النحل: ٥١) .

★ ★ ★

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المفردات :

غيب السماوات والأرض: جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين ، التى لا سبيل إلى إدراكها حسًّا ، ولا إلى فهمها عقلا .

الساعة : الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما ، فيموت الخلق بصيحة واحدة .

لمح البصر : التحرك السريع لطرف العين من جهة إلى جهة ، أو من أعلى إلى أسفل .

الأفئدة : واحدها: فؤاد ، وهى القلوب التى هيأها الله للفهم ، وإصلاح البدن .

جو السماء : الهواء المتباعد بين الأرض والسماء .

تمهيد:

تتناول الآيات جوانب قدرة الله تعالى ، فهو سبحانه العليم بالغيب ، الذى تعجز عنه الحواس والعقول البشرية وهو القادر على المجىء بالقيامة فى لمح البصر ؛ لأنه على كل شىء قدير ، وهو الذى يخلق الإنسان فى بطن أمه ، ويمنحه السمع والأبصار والعقل والتفكير ، وهو سبحانه يمسك الطير فى جوّ السماء ، وهذا مرتبط بالهواء والفضاء ونظام الكون ، الذى أبدعه العليم القدير .

التفسير:

٧٧ - وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

الله سبحانه وتعالى استأثر بالغيب ، ومعرفة موعد قيام الساعة ، ومتى ينزل الغيث ، وهو العليم بالجنين : عمره ورزقه وسلوكه ، والإنسان لا يعلم ماذا يكسب غدا ، ولا يعلم بأى أرض يموت ، إنها أمور الغيب التى استأثر الله بعلمها ، ويتقدم العلم ، ولكن أعلم العلماء لا يدرى متى يفارق هذه الحياة ، قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ . (لقمان: ٣٤) .

فهو سبحانه تنكشف أمامه جميع الموجودات ، انكشافا تاما دون سبق خفاء ، وهو سبحانه واسع العلم يسمع كل شىء ويرى كل شىء ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ .

وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .

قدّر الله تعالى أن تنتهى الحياة الدنيا فى وقت مّا ، فيموت الناس جميعا ، إلاّ من شاء الله ، ثم يبعث الله الناس للحساب والجزاء ، حتى يوفّى كل إنسان جزاء ما عمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر: ٦٨) .

وهذا البعث والحشر والحساب والجزاء ، هين على الله تعالى ، فهو الذى بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.

وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .

أى : ليس مجىء القيامة وشأنها فى سرعة المجىء ، إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من ذلك وأسرع ؛ لأن الأمر بيد الإله القادر، إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢).

قال تعالى : وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ . (القمر: ٥٠) .

أى : فيكون ما يريده الله كطرف العين .

وكان أهل مكة ينكرون البعث ، ويستبعدون ذلك ؛ لأن الإنسان يصير ترابا رميما ، أبعد ما يكون عن الحياة ، فبين الله : أن أمر الساعة يسير هين كلمح البصر .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس: ٧٩،٧٨) .

وفى ختام الآية يقول الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.

أى : إن الله لا يعجز قدرته شىء ، سواء أكان هذا الشىء يتعلق بأمر قيام الساعة، فى أسرع من لمح البصر ، أو بغير ذلك من أشياء ، فهو سبحانه فعال لما يريد ، إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢).

٧٨- وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَـٰرَ وَٱلأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

يذكر الحق سبحانه: نعمة جديدة ، هى نعمة الخلق ، وتكوين الجنين فى بطن أمه ، ثم خروجه إلى الحياة لا يعلم شيئا ، فشق الله له للسمع أذنين ، وللنظر عينين ، وللبطش يدين ، وللمشى رجلين ، ووهبه العقل والفؤاد ، وأمدَّه بأجهزة متعددة ، كالجهاز العصبى والجهاز اللمفاوى والجهاز الهضمى ، ويسر له سبل الحياة ؛ ليختار الهدى أو الضلال .

قال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢، ٣).

وقد خلق الله الجوارح للإنسان ؛ حتى ييسر عليه شئون الحياة ، فالسمع : ييسر له سماع الوحى والمواعظ ، والأخبار والعلوم والآداب ، والنظر: يتأمل به فى ملكوت السماوات والأرض ، ويشاهد المشتريات فيأخذ الحسن ويترك الردىء ، والرِّجْل : يمشى بها إلى الخير والرياضة ، والدراسة والصلاة ، واليد : يأخذ بها الكتب ويمسك بالقلم ويتعلم ويُعلِّم ، وبهذه الجوارح يعبد الله وينفع وينتفع ، وإذا أطاع العبد ربَّه ؛ بارك له فى صحته وعافيته ، ويسر له استخدامها فيما يفيد البلاد والعباد ، وهذا هو شكر النِّعمة، أى: استخدام الجوارح فيما خلقت له .

روى البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب عبدى إلىّ بشىء أفضل مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض عبدى المؤمن ؛ يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بدّ له منه»[٩٤] .

وفى هذا الحديث دليل على معونة الله للصالحين ، وبركاته للمتقين ، حتى إنه يجعل سلوكهم موفقا، وأعمالهم هادفة ، وتفكيرهم سليما ، وقريب من هذه الآية قوله تعالى : **قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** . (الملك: ٢٣) .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أى : رجاء أن تشكروه باستعماله نعمه ، فيما خلقت لأجله ، وتتمكنوا بها من عبادته ، وتستعملوا كل جارحة فى الخير والعمل النافع ومساعدة عباد الله ، لكن بعض الناس هو الذى يفلح فى أداء هذه الرسالة ، وقليل منهم هو الذى يشكر الله على نعمة هذه الجوارح ، ويرى آخرون أن الناس جميعا يشاركونهم فى هذه النعمة ، ويريدون ألا يشكروا إلاَّ على نعمة خاصة به ، مع أن كل إنسان يرى نفسه أعقل الناس ، ويرى أن رأيه أفضل الآراء ، فلماذا لا يشكر الله على هذه النعمة ، التى يرى نفسه مختصا بها .

٧٩- أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ألم يشاهدوا الطير مرتفعات فى جوّ السماء ، وفى طبقات الجو العالية ، قد يسَّر الله لها هذا الطيران، فلا شىء يجذبها إلى أعلا، ولا طريق تحتها يحفظها ، وإنما علمتها القدرة الإلهية أن تحرّك أجنحتها ، حتى تتماسك فى السماء بيد القدرة الإلهية ، التى أودعت فى كل شىء ما تقوم به حياته ، وهذا المنظر لأسراب الطير منظمة ، فى سرب بديع عجيب ، منظر يثير الدهشة والتأمل ، فى قدرة القدير ، وجمال هذا الكون

وتناسقه ، لكن الألف والعادة جعلت الناس ينظرون ، ولا تتحرك عندهم مشاعر الإيمان ، والإحساس بالنظام والتناسق والإبداع ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ . (يوسف: ١٠٥) .

إن فى هذا الأمر آيات ودلائل لقوم يؤمنون ؛ بأن يد القدرة الإلهية هى التى سخَّرت هذا الكون ، وأبدعت نظامه ، فالهواء والفضاء ، وحركة الطير وقوانين الجاذبية ، كلها مسخرة بيد القدير ، الذى أبدع كلَّ شَئْءٍ خلقه ، إن فى هذا التسخير والإبداع آيات وعلامات ، لمن تحرك فى قلبه الإيمان بالله ، واليقين بقدرته وعظمته :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

★ ★ ★

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات :

سكنا : مسكنًا تستقرون فيه وتأمنون وتهدءون .

ظعنكم : سفركم أو رحيلكم لطلب الماء أو المرتع .

الأنعام : جمع نعم وتشمل الإبل والبقر والغنم .

الأصواف : للضأن ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز .

متاعا : المتاع : ما يتمتع به فى المتجر والمعاش .

إلى حين : أى : إلى انقضاء آجالكم .

الظلال : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها .

أكنانا : الأكنان: جمع كِنّ ، وهو : الغار ونحوه فى الجبل .

السرابيل : واحدها: سربال ، وهو: القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها ، وسرابيل الحرب : هى الجواشن والدروع .

البأس : الشدّة ويراد به هنا الحرب .

تمهيد :

يتفضل الله على عباده بذكر طائفة من النعم ، منها السكن الذى يهدأ فيه الإنسان ، ويأمن على نفسه وسِرِّه وعرضه ، وهناك بيوت خفيفة الحمل يتخذها العربى من جلود الأنعام ، ويعمل خيمة يستظل بها فى سفره وإقامته ، وقد جعل الله للإنسان الجبال يأوى إليها فى ظلام الليل ، ويسكن فى أكنانها وحصونها ومعاقلها ، ويسَّر للإنسان الثياب التى تقيه الحر والبرد ، والدروع وعدة الحرب من الحديد ؛ ليتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

التفسير :

٨٠ - وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ .

يمتن الله على عباده بالبيوت التى يسكنونها فيهدءون ويستريحون ويستقرون ، فهى سكن تسكن فيه النفس وتهدأ على عوراتها وأسرارها ، ومن الواجب المحافظة على هذا الأمن النفسى والجسدى ، فلا نتطلع إلى أسرار الآخرين ، ولا نتجسس عليهم ولا نفاجئهم فى ظلام الليل أو قبيل الفجر ، وأن نحفظ للجار سرَّه وعرضه فلا نتجسس عليه ، ولا نتطلع إلى عوراته ، ولا نؤذيه فى نفسه أو أسرته حتى يحقق البيت السكن والأمن ، ومن نعم الله: أن جعل لنا بيوتا يسيرة ، هى الخيام التى نصنع منها قبابا وفساطيط ، نستظل بها عند السفر والترحال ، وعند الإقامة ، وتتخذ هذه الخيام من الصوف والوبر والشعر .

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ .

جعل الله لنا من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ، أثاثا لبيوتنا نكتسى به حينا ، ونستعمله فى الغطاء والفراش حينا آخر ، ونتخذه للتجارة والتمتع به .

إِلَىٰ حِينٍ . أى : إلى نهاية آجالنا .

٨١- وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلاً ...

يحتاج الإنسان إلى الظل خصوصا فى البلاد الحارة ، وخصوصا الفقراء الذين لا مأوى لهم ، فيستفيدون بظل الأشجار والجبال والجدران ؛ لتقيهم من الحر الشديد .

وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا .

أى : وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنُّون فيها ، وتهدءون للعبادة والتأمل والبعد عن صخب الحياة ؛ فى المغارات والكهوف ونحوها .

وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ .

من نعم الله : أنه يسر لنا الثياب التى نتجمل بها ، ونتقى بها الحر والبرد ، وقد استغنى بذكر أحد المتقابلين عن الآخر ، ولأن بلاد العرب يغلب عليها الحرّ فاكتفى به ، وقيل : لأن ما يقى من الحرّ يقى من البرد .

وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .

وتوجد ملابس أخرى من الدروع وحلل الحرب وما يشبهها ، تتقون بها الطعنات والضربات التى تسدد إليكم فى حالة الحرب ، وفيه دليل على اتخاذ عدة الحرب ، والتمرين على استخدامها فى الجهاد ؛ ليستعان بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبى ﷺ .

كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

أى : إن الله يتم عليكم النعم فى المسكن والملبس ، والأثاث وعدة الحرب ، وأنعم الدين والدنيا ، لعلكم تسلمون لله وجوهكم وقلوبكم ؛ بالدخول فى الإسلام فتسعدوا بنعيم الدنيا والآخرة ؛ فإن العاقل إذا أسدى إليه المعروف ؛ شكر من أنعم به عليه ؛ كما قال المتنبى :

وقيدتُ نفسى فى دارك محبَّةً ومن وجد الإحسان قيدا فقيدا

٨٢- فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

أى : إن أعرضوا عن الإيمان ، بعد تقديم كل هذه الأدلة إليهم ؛ فلست مكلفا بخلق الإيمان فى قلوبهم، إنما أنت رسول ، مهمتك البلاغ المبين الواضح ، والبيان الساطع ، والتذكير بأنعم الله على الإنسان ، ثم اتركهم وشأنهم فما أنت إلا نذير .

قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١،٢٢) .

٨٣- يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ .

أى : إن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله المتعددة ، التى ذكرت فى هذه السورة ، فالأدلة متوافرة

على أن خالق هذه النعم هو الله ، بل إنهم يعترفون بأن خالقهم هو الله بأقوالهم ؛ ولكنهم ينكرون ذلك بسلوكهم وأفعالهم .

وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ .

أى : وأكثر هؤلاء المشركين يجحدون نعم الله لا عن جهل بها ، بل عن علم ومعرفة ، ويجحدون نبوّة الرسول ﷺ مع يقينهم بصدقه وأمانته .

قال تعالى : وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل: ١٤) .

وقال عز شأنه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٣٣) .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

الأمـــــــة : الجماعة من الناس ، أو الجيل من الناس .

شـــهـــيـــدا : شهيد كلُّ أمة نبيُّها يشهد للمؤمنين بالتصديق ، وللكافرين بالكفر والتكذيب .

ثم لا يؤذن للذين كفروا: لا يسمح لهم بالاعتذار عن كفرهم وباطلهم .

ولا هم يستعتبون : أى: لا يقبل منهم الاعتذار عما فعلوا ، ولا محاولة إرضاء ربهم فى الآخرة ، يقال عتب عليه يعْتِب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ؛ قيل: عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك ؛ فقد أعتب ، والاسم: العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب ، قال النابغة:

**فإن كنت مظلوما فعبدًا ظلمته		وإن كنت ذا عتبى فمثلك يُعتب**

وفى الحديث الشريف : « لك العتبى حتى ترضى »(٩٥) .

ينظرون : يمهلون ويؤخرون .

الشركاء : الأصنام والأوثان ، والشياطين والملائكة ، والشمس والقمر ، وغيرها .

ندعو : نعبد .

السّلم : الاستسلام والانقياد .

ضل : ضاع وبطل

شهيدا على هؤلاء : المراد بهؤلاء : أمته ، الحاضر منهم بعد عصر التنزيل ، ومن بعدهم إلى يوم القيامة.

تبيانا : بيانا لأمور الدين ، إمًّا نصًّا فيها ، أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

تمهيد :

تذكر الآيات : موقف الظالمين يوم القيامة ، ويبدأ المشهد بموقف الشهداء من الأنبياء ، يدلون بما وقع لهم فى الدنيا ، ثم لا يؤذن للظالمين بالكلام ، ولا بطلب العتبى والرضا لله ، وإذا رأى الكافرون معبوداتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين ، قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا ! لقد اعترفوا لله بالربوبية ، وحاولوا التنصل من تبعة الشرك ، وإذا بمن زعموهم شركاء يكذّبونهم ، ويلقون السّلم لله تعالى. ويبطل عندئذ كل كذب وافتراء ، ثم يذكر السياق : هول المشهد ، وظهور الأنبياء شهداء على أممهم ، ويظهر النبى عليه الصلاة والسلام شهيدا على جميع من أرسل إليهم ، وقد أنزله الله عليه الكتاب ؛ ليبين للناس أمور دينهم ودنياهم ، وليكون هداية ورحمة وبشرى للمؤمنين .

التفسير :

٨٤ - وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

يستعرض الجبار موقف القيامة ، حيث يُبعث الأنبياء شهداء على قومهم ، فيشهدون للمؤمنين بالإيمان ، وللكافرين بالكفر والعصيان ، وفى ذلك الموقف لا يسمح للكفار بإبداء أعذارهم ، ولا يسمح لهم

بطلب العتبى من ربهم ، والاعتذار له حتى يرضى ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل ، وهناك مواقف متعددة فى الآخرة ، منها موقف السؤال ، وفيه نجد القرآن يقول : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ . (الصافات: ٢٤) ، ومنها موقف لا يقبل فيه اعتذار ولا كلام ، فهو أشبه بقضية يبدأ فيها التحقيق، ويسمح فيها للجانى بالدفاع عن نفسه ، وإظهار أسباب جريمته ، حتى إذا استكمل الدفاع ، حجزت القضية للنطق بالحكم ، فلا يقبل عندئذ كلام .

والخلاصة : إن هناك مواقف متعددة لمشاهد القيامة .

٨٥- وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

إذا عاين الظالمون عذاب جهنم ؛ فزعوا واشتد خوفهم ؛ لكن ذلك لن يغيّر شيئا من المصير المؤلم الذى ينتظرهم ، فلا يخفف عنهم العذاب أىّ تخفيف ، ولا يمهلون ويتركون بعض الوقت بدون العذاب ؛ فالعذاب واقع لا محالة ، عاجل وليس بآجل ، ونحو الآية قوله تعالى : وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف: ٥٣) .

وقوله: إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا . (الفرقان: ١٢-١٤) .

وقريب منه قوله تعالى : وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ . (الزخرف: ٧٧، ٧٨) .

٨٦- وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ .

تعرض الآية مشهدًا من مشاهد القيامة ، حين يرى المشركون الأصنام والأوثان والآلهة المدعاة ، التى عبدوها من دون الله ، فإذا عاينوها ؛ تمنّوا أن تحمل هذه الآلهة المدعاة ، جانبا من العذاب ، أو يخفف عنهم العذاب لإلقاء المسئولية على هذه الآلهة ، ويلاحظ اعتراف المشركين لله بالربوبية ، واعترافهم بالخطإ فى عبادة الأصنام من دون الله ، مع اعترافهم بالذنب ، وعلمهم بأن العذاب مستمر ، إلا أن الغريق يتعلق بأى شىء يصادفه ، فهم يأملون منقذًا من العذاب ، لكن الأصنام ترد عليهم وتلزمهم المسئولية ، وتقول لمن عبدها : إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ، فى محاولة إلقاء التبعة علينا ، فما أمرناكم بعبادتنا ، ولا طلبنا منكم ذلك ، وقريب من هذا تبرؤ المسيح يوم القيامة ممن جعله إلها .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة: ١١٦، ١١٧) .

وقال تعالى: وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . (مريم: ٨١، ٨٢) .

وقال عز شأنه: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآءِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ . (الأحقاف: ٥، ٦) .

٨٧- وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ...

أى : استسلم العابد والمعبود لأمر الله تعالى ، ويحتمل عودة الضمير على المشركين وحدهم ، بعد أن يئسوا من تخفيف العذاب عنهم ، فاستسلموا لأمر الله وقضائه سبحانه .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ .

أى : غاب عنهم كل ولى وناصر ، فلم تنفعهم عبادتهم ولا أصنامهم ، التى عبدوها راغبين فى شفاعتها ، وقد عبدوها افتراء على الله وكذبا حين قالوا : هَـٰٓؤُلآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ . (يونس: ١٨) .

والآية فى جملتها تحمل الغائب فتجعله حاضرا ، وترسم مشهد المشركين وقد خسروا المعركة ، واستسلموا لأمر الله بعد فوات الأوان ، ونحو الآية قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ . (السجدة: ١٢) .

وقوله تعالى: وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . (طه: ١١١) .

ومعنى : وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ . خضعت واستسلمت .

٨٨- ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ .

كان أهل مكة يمنعون الناس من الدخول فى الإسلام ، واتفقوا على تقسيم مكة منازل وأجزاء ؛

يختص كل فريق منهم بطريق من طرقها ، فإذا شاهدوا وفود الحجاج والمعتمرين ، شنَّعوا على رسول الله محمد ﷺ ، وعلى الدِّين الجديد الذى يدعو إليه ، وادَّعوا : أنه ساحر أو كاهن أو مجنون .. وفى يوم القيامة يضاعف لهم العذاب ؛ لكفرهم أولاً ، ولصدهم الناس عن الإسلام ثانيًا ، ثم إن هذا عدوان على دين الله ، وافتراء عليه ، وإفساد للعقائد .

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ .

أى: الكافرون من أهل مكة ، والمحرِّضون على الكفر ، لهم عذاب جزاء كفرهم ، وعذاب آخر لصدهم الناس عن الإيمان ، وهذا جزاء إفسادهم فى الأرض ، وقلب الحقائق ، وتقبيح الإيمان وتزيين الكفر ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ . (الأنعام: ٢٦) .

أى : ينهون الناس عن اتباع الرسول ﷺ ، ويبتعدون عن دينه وهديه ، وقد أورد ابن جرير الطبرى فى تفسيره: آثارًا عن الصحابة وغيرهم ، فى ألوان العذاب الذى يزاد لهم ، وقد روى الحاكم والبيهقى وغيرهما عن ابن مسعود: أن النبى ﷺ قال : « إن أهل النار إذا جزعوا من حرِّها ، استغاثوا بضحضاح فى النار، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنها البغال الدُّهْم ، وأفاعٍ كأنَّهُنَّ البَخَاتِىّ (ضخام الإبل) تضربهم فذلك الزيادة»[٩٦].

وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى العذاب ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ، ودرجاتهم فيها .

٨٩- وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

تستعرض الآيات موقف المشركين يوم القيامة ، وزيادة العذاب ومضاعفته لهم ، ويستكمل المشهد بمجيء النبيين والشهداء ، أى : الصالحين من أتباع الأنبياء ؛ ليشهدوا للمؤمنين بالإيمان والاستجابة للدعوة له وليشهدوا على الكافرين بالكفر والتكذيب ، ثم يأتى الرسول ﷺ شهيدًا على أمته ، وعلى أهل مكة، وغيرهم ممن بلغتهم الدعوة ، ومنزلة الرسول ﷺ يوم القيامة معروفة ، فقد آتاه الله الشفاعة والمقام المحمود الذى يحمده عليه جميع الخلائق ، ويرى بعض المفسرين: أن شهادة الرسول محمد ﷺ تكون للأنبياء والأمم كلها ، لكن السياق يرجع أن شهادة الرسول ﷺ لمن أرسل إليهم سابقا أو لاحقا ، وقريب من ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال له : « اقرأ علىّ القرآن » ، قلت: يا رسول الله، أقرؤهُ عليك وعليك أنزل ؟! قال : « نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » ، فقرأت صدرا من سورة النساء فلما وصلت إلى قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا . (النساء: ٤١) .

قال الرسول ﷺ : « حسبك » ، قال ابن مسعود : فالتفتت فإذا عيناه ﷺ تذرفان[٩٧] .

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

أى: نزلنا عليك القرآن مشتملا على أصول العقائد ، وبيان الحلال والحرام ، وبيان ألوان الهداية والرحمة ، وبشارة المسلمين بالجزاء الأوفى .

والسنة المطهرة مشتملة على بيان القرآن وتوضيحه وتفسيره .

قال تعالى: وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . (النحل: ٤٤) .

وقال النبى ﷺ : « إنى أوتيت الكتاب ومثله معه »[٩٨] .

ويلحق ببيان الرسول ﷺ ، بيان الصحابة والتابعين ، قال ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ »[٩٩] .

كما أوضح القرآن: وجوب اجتهاد من استكمل شروط الاجتهاد ، وبذل الجهد فى استنباط الأحكام، قال تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... (النساء: ٨٣) .

وأوضح: أن إجماع المسلمين على أمر يجب اتباعه وعدم مخالفته ، وبذلك أصبح الإجماع من أصول التشريع .

قال تعالى: وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ... (النساء: ١١٥).

وأرشد القرآن إلى استخدام القياس بقوله تعالى : فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ . (الحشر: ٢) .

والاعتبار هو النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس ، وهو حمل النظير على النظير ، وقياس أمر لا حكم له ، على أمر معروف الحكم ؛ لاشتراكهما فى العلة ، وبهذه الطرق فتح الإسلام أبواب الاجتهاد والاستنباط ، أمام العلماء المختصين ، وأرشد الناس إلى اتباع العلماء فى اجتهادهم .

قال تعالى : فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٣) .

كما حث القرآن على استخدام العقل والفكر والرأى ، وأوجب على المسلمين أن تكون منهم أمّة من أهل الاختصاص والنظر ، نتابع أمور المسلمين ، وتجتهد فى شئونهم ، ومعرفة أحكام ما يستجد من أمور

وأحداث ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ . (التوبة: ١٢٢) .

وبهذا فتح القرآن ينابيع الفكر والفقه والرأى ، ووضع أصول الاجتهاد ، وبين قواعد التشريع ، التى تعتمد على القرآن والسنة والاجتهاد والإجماع والقياس ، وسيظل القرآن الكريم كلّى الشريعة وأصل أصولها فهو بحق تبيان وبيان وإرشاد لكلّ شىء ؛ لأنه حث على اتباع السنّة ، وبيّن أصول الاجتهاد والاستنباط ، واشتمل القرآن على بيان الرحمة والتيسير ، والبشارة بالجنة للمؤمنين الطائعين ، وبالنار للمكذبين وأرشد إلى الفضائل ، ونهى عن الرذائل .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

المفردات :

العـــدل : المساواة فى كل شىء بلا زيادة أو نقصان ، أو إعطاء كل ذى حق حقّه بدون إفراط أو تفريط.

الإحســـان : مصدر أحسن ، يحسن ، إحسانا ، ويطلق على إتقان العمل ، ومقابلة الخير بأكثر منه ، والشرّ بالعفو عنه .

إيتاء ذى القربى : إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبرّ .

الفحشـــاء : ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع ، ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، وخص بعض المفسرين الفحشاء : بالزنا؛ لأنه عدوان على الأعراض.

المنكر: كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه، فيعم جميع المعاصى والدناءات والرذائل على اختلاف أنواعها.

البغى: تجاوز الحد فى كل شىء، ويشمل الاستعلاء على الناس، والتجبّر عليهم بالظلم والعدوان.

يعظكم: الوعظ: التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد.

العهد: كل ما يلتزم به الإنسان باختياره، والوفاء بالعهد لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان، ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة. ويدخل فيه الوعد.

نقض اليمين: الحنث فيها.

توكيدها: توثيقها وتغليظها.

كفيلا: شاهدًا ورقيبًا.

الغزل: ما غُزل من صوف ونحوه.

القوة: الأبرام والأحكام.

الأنكاث: واحدها: نِكْث، وهو ما ينكث فتله وينقض بعد غزله.

الدَّخَل: المكر والخديعة والغش.

قال الراغب الأصفهانى فى غريب القرآن: الدَّخَل: كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة، كالدغل، وعن الدعوة فى النسب .. ومنه قيل: شجرة – مدخولة – أى: ليست من جنس الأشجار التى حولها. اهـ.

أربى: أى: أكثر وأوفر عددا.

تمهيد:

تشتمل هذه الآيات على مكارم الأخلاق وفضائل الآداب، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم تحث على الوفاء بالعهد والسلوك القويم، ثم ضرب الله الأمثال لمن يحنث فى يمينه، وينقض العهد بعد توثيقه.

التفسير:

٩٠ – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

هذه آية جامعة لخلال الخير، ناهية عن الشر، وخطباء المساجد يختمون بها خطبة الجمعة، والعدل: هو الميزان بالحق بأن يأخذ كل ذى حق حقه، وهو أمر أساسى فى الحكم الذى يقوم فى الإسلام على العدل والشورى، واختيار الرجل المناسب، أو حسن اختيار المسئولين المساعدين للحكم.

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ... (النساء: ٥٨).

والعدل قاعدة أساسية فى تعامل الأفراد والدول ، وبالعدل قامت السماوات والأرض ، وبالعدل يأخذ كل ذى حق حقه ، ويأمن الإنسان على نفسه ، ويلقى المعتدى جزاءه حسب جريمته . كتب أبو بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب يقول : « إن الحقّ ثقيل ولكن مآله هنىء ، وإن الباطل خفيف ولكنّ مآله وبىء » .

وَٱلۡإِحۡسَٰنِ . يطلق على شيئين :

أ- إتقان العمل وإحسانه .

ب- مقابلة الإساءة بالعفو ، ومقابلة الخير بما هو أزيد منه ، والإحسان يكمّل العدل ، قال على بن أبى طالب : ٱلۡعَدۡلِ : الإنصاف ، ٱلۡإِحۡسَٰنِ : التفضل .

والعدل والإحسان لهما أثرهما فى سلامة المجتمع ، واقتناع الأفراد بوصول حقهم إليهم ، وبذلك تصفو الحياة ويتماسك المجتمع ، ويعم السلام النفسى والاجتماعى بين طوائف المجتمع : وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ . أى : العطف على الأقارب ومساعدتهم ومعاونتهم والبرّ بهم ماديا ومعنويا .

وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ .

وَٱلۡفَحۡشَآءِ : كل ما اشتد قبحه ، وخصه بعضهم بالزنا ؛ لأن فيها عدوانا على الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، واختلاط الأنساب ، وانتشار الأمراض الفتاكة ، مثل: الزهرى والسيلان وقمل العانة ، ومرض الإيدز الذى يجتاح بعض البلاد كالوباء ؛ عقوبة رادعة على استباحة الحرمات .

وَٱلۡمُنكَرِ : كل فعل تنكره الفطرة ، ومن ثم تنكره الشريعة فهى شريعة الفطرة ، ويشمل المنكر جميع المعاصى والرذائل ، والدناءات على اختلاف أنواعها ، كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

وَٱلۡبَغۡيِ : العدوان وتجاوز الحد ، وظلم الناس والتعدّى على حقوقهم .

يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ .

أى : يرشدكم وينبهكم إلى ثلاث ، وينهاكم عن ثلاث ؛ لعلكم تنتبهون وتحسنون التذكر لما ينفعكم، فتعملون بتلك الأوامر ، وتجتنبون النواهى ، وفى ذلك صلاح دنياكم وآخرتكم ، وقد اشتملت هذه الآية على مكارم الأخلاق .

جاء في تفسير ابن كثير :

أن أكثم بن صيفى أرسل رسولين إلى النبى محمد ﷺ ، يسألاه عن نسبة وعن دعوته ، فقال لهما النبى ﷺ : « أنا محمد بن عبد الله ، وأنا عبد الله ورسوله » ثم تلا عليهما هذه الآية : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... الآية .

ثم حملا الآية إلى أكثم بن صيفى ، فقال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ، ولا تكونوا فيه أذنابا ،وكونوا فيه أو لا تكونوا فيه آخرا . وقال سعيد بن جبير عن قتادة فى قوله : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... الآية .

ليس من خلق كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خُلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم ، إلا نهى عنه وقدّم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها .

فضل الآية

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى: عن ابن مسعود رضى عنه أنه قال:

أعظم آية فى كتاب الله تعالى: ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ . (البقرة: ٢٥٥) .

وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... (النحل: ٩٠).

وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا : وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. (الطلاق: ٢، ٣) .

وأشدّ آية فى كتاب الله رجاء : قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا . (الزمر: ٥٣) .

وعن عكرمة: أن النبى ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية . فقال: يا ابن أخى، أعد علىّ ، فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر .

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه: أنه قرأ هذه الآية: إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... الآية ، ثم قال : إن الله عزّ وجل جمع لكم الخير كلّه ، والشرّ كله فى آية واحدة ، فو الله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا ؛ إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلاّ جمعه وزجر عنه .

٩١- وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

تدعو هذه الآية إلى: الوفاء بالعهود ، وعدم الحنث في الإيمان ، وهي في جملتها داخلة في الآية السابقة ، لكن القرآن أفرد الوفاء بالعهد نصًا في آية مستقلة ؛ لما له من أهمية في حياة الفرد والمجتمع، فإذا حافظ الفرد والمجتمع على العهود والمواثيق ؛ أدى ذلك إلى الأمن والأمان ، ونعم الناس بالهدوء والاطمئنان .

أخرج ابن جرير في أسباب نزول الآية : أن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ ، كان من أسلم يبايع على الإسلام فقال تعالى : وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .

فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه ، وكثرة المشركين ، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة .

ومعنى الآية :

أوفوا بالعهد والميثاق ، الذي أوجبتموه على أنفسكم ، حقًا لمن عاهدتموه وواثقتموه عليه ، ويدخل في ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد .

قال ميمون بن مهران :

من عاهدته وفِّ بعهده ، مسلما كان أو كافرًا ، فإنما العهد لله تعالى .

وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا .

لا يليق بالرجل أن يخلف وعده أو يحنث في عهده ، وكانوا يوثقون عهدهم بالأيام ، وإشهاد الله تعالى ، فأمرهم الله ألا يفكوا ارتباطاتهم ، وألا يحنثوا في أيمانها ، وقد أشهدتم الله على أيمانكم ، وجعلتموه راعيا وكفيلا يرعى الموفي للعهد بالخير ، والناقض له بالجزاء والعقاب .

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

فهو سبحانه يشاهد عقودكم وعهودكم وأفعالكم ، وسيجازيكم ويكافئكم على الوفاء ، ويعاقبكم على الحنث في الأيمان وعلى نقض العهود ، وقد أكد القرآن الكريم والسنة الصحيحة : احترام العهود والوفاء بها .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (الفتح: ١٠) .

وقال تعالى: لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح:١٨) .

وقال تعالى : وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . (الإسراء: ٣٤) .

وقال سبحانه : وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ . (البقرة: ٤٠) .

وروى الشيخان عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » ، ولا تعارض بين هذه الآية وبين ما ورد فى الصحيحين من أن : « من حلف على يمين ورأى غيرها خير منها ؛ فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »[١٠٠] .

فالآية تتحدث عن الوفاء بوجه عام ، وتأمر بالالتزام بالأيمان والبرّ بها بين الأفراد والجماعات ، والحديث يتحدث عن إنسان يقسم على شىء ثم يرى غيره خيرا منه ، فالآية عامة فى نهيها عن نقض الإيمان ، والسنة الصحيحة خصصت هذا النعيم ، وأباحت النقض إذا كان اليمين مانعا عن عمل خير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ...

٩٢- وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ...

قال ابن كثير :

هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، تجمع جواريها وتأمرهم بالغزل أول النهار إلى الظهر ، ثم تأمرهم بنقض الغزل بعد إبرامه ، فضرب الله بها المثل فى من ينقض الأيمان ويحنث فيها بعد إبرامها .

والمعنى :

لا تنقضوا عهودكم ، مشبهين لامرأة حمقاء ، تنقض غزلها من بعد إحكامة ، فالعاقل يستمر في عهده وفى بنائه ، ولا ينقض عهده ولا يهدم بنيانه ، وقريب من هذا المعنى قول الشاعر :

هجوت زبَّان ثم جئت معتذرًا   من هجو زبان لم تهجُ ولم تدع

يقال : نكث الرجل العهد نكثًا – من باب قتل – إذا نقضه ونبذه ومنه قوله تعالى : فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ . (الفتح: ١٠) .

أى : لا تتركوا عهودكم المبرمة منقوضة منكوثة محلولة ، فالجملة الكريمة تحقّر فى كل جزئية من جزئياتها ، حال من ينقض العهد ، وينكث فى عهده ، ولا يفى بل يغدر وينقض .

تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ .

أى : تبرمون العقود لا بنية الوفاء ، بل بنية المكر والخديعة والغش ، فينقضون العهد إذا لاحت فى الأفق مصلحة أوفر ، أو غنيمة أكثر ، أو قبيلة أوفر عددًا من القبيلة التى تعاقدوا معها ، فبين الله لهم: أن الوفاء نور أبلج ، وأن التزام أمر الله بالوفاء أولى من اتباع المصلحة ، والسير وراء النزوات العارضة ، وقد نزلت هذه الآية فى العرب ، الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة أخرى كبيرة قوية فداخلتها ، غدرت الأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى ، فأدبهم القرآن بأدبه ؛ حتى لا ينقضوا العهود ، من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالا .

وقال ابن كثير :

كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعزّ ؛ فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك ، الذين هم أكثر وأعزّ ، فنهوا عن ذلك .

إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ .

إنما يختبركم الله بظهور قوم أكثر أو أعز أمامكم ؛ ليظهر مدى إيمانكم وتمسككم بالعهود ، وطاعتكم لأمر الله ؟ هل توفون بالعهود امتثالا لأمر الله أم تنقضون طلبًا لمغنم دنيوى ؟

وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فيجازى أهل الحق بالثواب ، ويجازى أهل الباطل بالعقاب .

٩٣- وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

شاء الله أن يجعل الإنسان خليفة فى الأرض ، وميّزه بالعقل والفكر والإرادة والاختيار ، قال تعالى: إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٣) .

ولو شاء الله لجعل الناس جميعا نسخا مكررة ، مثل جماعات النمل والنحل ، ولو شاء لجعل حياة الزوج مع زوجته أشبه بحياة الملائكة ، لكن الله أراد أن يتفاوت الناس فى الكسب والاختيار والاستعداد، وأن يكون الجزاء مرتبا على العمل .

قال تعالى : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود: ١١٨، ١١٩) .

وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ .

فهو سبحانه عرض على الناس الهدى والشرائع والرسالات ، وأرسل لهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ، فمن اختار الضلال ، وأعرض عن هدايات السماء ؛ تركه الله ضالا متحيرًا ، ولا يُضلُّ إلا من اختار الضلالة على الهدى ، ومن رغب فى الحق ، وسارع إلى الإيمان ، واختار طريق الهداية ؛ يسر الله له طريق الهدى وشرح صدره للإسلام ، وهداه إلى الصراط المستقيم ، وبهذا نجمع بين الآيات القرآنية التى وردت فى الموضوع ، فالعبد له إرادة واختيار ، والله تعالى له نواميس عامة ، لهذا الكون ، ومن هذه النواميس : أنه لا يهدى إلا من اختار الهدى ، ولا يُضلُّ إلا من اختار الضلالة ، فهدايات السماء غالية عالية، والله لا يلزم الناس بالحق، وإنما يعرضه عليهم ، وقد خلق فيهم العقل والإدراك ، والكسب والاختيار ، وبهذا يستحق كل إنسان جزاء كسبه وسعيه ، قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . (الليل: ٥-١٠) .

وقال سبحانه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨) .

وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : إن الله تعالى سيسأل جميع الناس سؤال محاسبة ومجازاة لا سؤال استفهام ، وسيترتب على هذا السؤال أن يكون الجزاء الحق من جنس العمل ، وعن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ « يا أبا ذرّ ، أخلص العمل ؛ فإن الناقد بصير ، وخفف ظهرك ؛ فإن العقبة كئود ، واستكثر الزاد ؛ فإن السفر بعيد، والذى نفس محمد بيده ، لتموتنّ كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبنّ على ما تعملون، ولتجزونّ بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا »[١٠١] .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

المفردات :

فتزل قدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة ، وبلاء بعد عافية .

وتذوقوا السوء : العذاب الدنيوى .

ولكم عذاب عظيم : فى الآخرة .

ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا : لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الدنيا وزينتها ؛ فإن متاع الدنيا قليل مهما كان .

ما عندكم ينفد وما عند الله باق : ما عندكم يفنى وينقضى ، وما عند الله فى الآخرة باق لا يزول .

فلنحيينه حياة طيبة : أى: حياة طيبة فى الدنيا ، ويشمل ذلك: القناعة ، والرضا ، والبركة فى العمر، وقيل : حياة طيبة فى الجنة ونعيمها ، وأكثر المفسرين على أن الحياة الطيبة: فى الدنيا .

تمهيد :

تحذر الآيات السابقة من نقض العهود والأيمان على الإطلاق ، وتحذر هذه الآيات من نقض أيمان مخصوصة ، أقدموا عليها ، وهى نقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به ، واتباع شرائعه جريا وراء خيرات الدنيا وزخارفها ، كما بينت: أن متاع الدنيا زائل وما عند الله باق لا ينفد ، وعند الله الجزاء الأوفى.

التفسير :

٩٤ - وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

تأتى هذه الآية ؛ لتأكيد ما سبق ، ولتثبيت الناس على الإيمان بالنبى محمد ﷺ .

جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى :

كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ ؛ لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش ، واستضعافهم المسلمين ، وإيذائهم لهم . ا هـ .

وقال الفخر الرازى: قال المفسرون :

المراد من هذه الآية : نهى الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، عن نقض عهده ؛ لأن هذا الوعيد وهو قوله: فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا . لا يليق بنقض عهد قبله ، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ ، على الإيمان به وبشرائعه .

فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا . مثل يذكر لكل من قوع فى بلاء بعد عافية ، ومحنة بعد نعمة ، فإن من نقض عهد الإسلام ؛ فقد سقط عن الدرجات العالية ، ووقع فى مثل هذه الضلالة .

وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ . أى : العذاب .

بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

فالرجوع عن الإسلام إلى الكفر ، يوقعهم فى محظورات ثلاثة :

١- البعد عن محجة الحق والهدى ، بعد أن رسخت أقدامهم فيها .

٢- إنهم يصبحون قدوة لغيرهم فى ترك الحق ، والانضمام إلى الباطل ، وفى هذا صد عن سبيل ، ومنع للناس عن الإيمان .

٣- إنهم أهل للعذاب العظيم فى الآخرة .

٩٥- وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ...

إن العهد والوعد يباركهما الصدق والوفاء ، وقد أمر الله بالوفاء بالعهود ، والصدق فى الوعود ، وقد تعرض فى هذه الحياة مصالح وقتية أو منافع آنية ، أو إغراء بمال أو منفعة مقابل نقض العهود ، فحذر

القرآن من نقض العهود ، وبيَّن : أن العائد من المال فان ، مهما كان كثيرا ، لا يساوى عند الله جناح بعوضة.

إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

إن ما يدخره الله فى الآخرة ، من الجزاء ونعيم الجنة ، هو خير لكم من ذلك العرض القليل فى الدنيا، إن كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة ، التى تزن الأمور بميزان الفائدة الحقة ، وتقدّر الفرق بين العوضين .

٩٦- مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ...

فالحياة الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والدنيا كلها إلى زوال وفناء ، وإن طال الأمد وجلَّ العدد ، وما فى خزائن الله باق لا نفاد له .

وفى الحديث الشريف :

« يقول ابن ءادم: مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت »[١٠٢] .

وفى الحديث النبوى الشريف:

« إن الصدقة توضع فى يد الله قبل أن توضع فى يد السائل ؛ فينميها كما ينمّى أحدكم فصيله »[١٠٣].

وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

ولنكافئنّ الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم ، مما كانوا يعملونه فى الدنيا ، من خيرات وطاعات ، وفى الآية عدة جميلة ، باغتفار ما عسى أن يكون قد فَرط منهم ، أثناء ذلك من جزع يعتريهم بحسب الطبيعة البشرية .

وقد رغب القرآن والسنة فى التزام الوفاء بالعهد ، وصار ذلك من ركائز الإسلام ودعائمه ، ودخلت فى الإسلام جماعات وشعوب ، بسبب ما رأوه من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ومن إخلاصهم فى معاملاتهم .

روى: أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم فى آخر الأمد ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارُّون لا يشعرون ؛ فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا

معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمدها »[١٠٤] ، فرجع معاوية بالجيش ، والروايات عن حفظ العهود متواترة مشهورة .

٩٧- مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

تضع هذه الآية أصلاً عاما ، وقاعدة أصيلة ، فالذى يعمل العمل الصالح ، ويؤدى واجبه نحو ربه ، ونحو نفسه وأسرته وقرابته وأمته ، ذكرًا كان أم أنثى ؛ فإن الله تعالى يكافئه أحسن مكافأة ، حيث يحيا حياة طيبة ، فى رضى وقناعة وسعادة وعزٍّ فى الدنيا وجزاء كريم فى الآخرة ، مع الفضل العظيم من الله الذى يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

جاء فى ظلال القرآن :

وإن العمل الصالح مع الإيمان ؛ جزاؤه حياة طيبة فى هذه الأرض ، لا يهمّ أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال ، فقد تكون به ، وقد لا يكون معها ، وفى الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير ، تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية ، فيها الاتصال بالله ، والثقة به ، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة ، وسكن البيوت ، ومودات القلوب ، وفيها الفرح بالعمل الصالح ، وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة ، وليس المال إلا عنصرا واحدًا ، يكفى منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله ، وإن الحياة الطيبة لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة ، وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون فى الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات ، فما أكرمه من جزاء ![١٠٥] .

من هدى السنة

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم ، قنعنى بما رزقتنى، وبارك لى فيه ، واخلف علىّ كل غائبة لى بخير »[١٠٦] .

وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قد أفلح من هُدِى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا ، وقنع به »[١٠٧] .

وعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورُزق كفافًا ، وقنّعه الله بما آتاه»[١٠٨] .

★ ★ ★

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

قرأت القرآن : أي: إذا أردت قراءة القرآن : فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، قبل البدء في القراءة .

الرجيم : المرجوم ، المبعد من رحمة الله .

السلطان : التسلط والاستيلاء .

يتولونه : بالطاعة ، يقال : توليته إذا أطعته ، وتوليت عنه أي : أعرضت .

به مشركون : أي : بسبب الشيطان وإغوائه مشركون مع الله آلهة أخرى .

تمهيد :

يرشد القرآن المؤمنين ، إلى العمل الذى يجعل أعمالهم خالصة ، من وساوس الشيطان .

التفسير :

٩٨ - فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

القرآن الكريم أعظم هاد ، وهو أساس التشريع ، وباب الهداية والإيمان ، والشيطان داع إلى الشر والعصيان ، فالمؤمن يلجأ ويتحصن ، ويستعيذ بقدرة الله وقوته وعونه ، من إغواء الشيطان ووسوسته، وذلك بأن يقول : **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .**

والأمر بالاستعاذة للندب عند الجمهور ، وعند الثورى: أنها واجبة ، والجمهور يقولون : صرفها عن الوجوب ما ورد من أنه ﷺ لم يعلمها للأعرابى الذى سأله عن كيفية الصلاة ، وأيضا فقد روى: أن النبىﷺ كان يتركها ، وعموما فإن الآية تفيد: أن من آداب الإسلام : أن المسلم إذا أراد قراءة القرآن ، فينبغى أن يبدأ القراءة بقوله : **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .**

والأكمل أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمان الرحيم .

وإذا أمر النبى ﷺ بذلك ، مع عصمته من الشيطان ، فمن باب أولى سائر أمته .

٩٩- إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

الناس أمام الشيطان قسمان : قسم آمن بالله واعتمد عليه ، فهو صادق اليقين ، واثق أن الهدى بيد الله ، والمعونة منه ، وأنه سبحانه إذا أراد للإنسان بخير فلا راد لفضله وهذا المؤمن قوى الإيمان، صادق اليقين ، عقيدته سليمة ، وإيمانه راسخ ، ويقينه بالله قوى متين ، ومثل هذا المؤمن لا سلطان للشيطان عليه، ولا تأثير له فيه ، وحتى إذا استجاب المؤمن للشيطان ، فسرعان ما يتوب إلى الله ، ويثوب إلى رشده، قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف: ٢٠١) .

والتوكل على الله يعنى: صدق اليقين مع الإيمان والعمل ، والتوكل غير التواكل ، فالتوكلّ معناه: الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله ، رأى عمر رضى الله عنه قوما من أهل اليمن ، فسألهم: من أنتم ؟ قالوا: نحن متوكلُون ، فقال عمر رضى الله عنه : أنتم متواكلون ؛ المتوكّل هو الذى يبذر البذرة ، وينتظر من الله إنضاج الثمرة .

١٠٠- إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ .

إن الشيطان له تأثير وتوجيه وإغراء ، لمن وقع فى حبه ، واستهواه طريقه ، فاتخذ الشيطان وليا ومرشدا وإمامًا ، وصار تابعا له ، يأتمر بأمره ، ويعمل بتوجيهه ، ويقع فى محيط تأثيره ، فيصدُّه الشيطان عن طريق التوحيد ، وصدق العقيدة ، ويدفعه إلى الشرك والعياذ بالله ، فأولياء الشيطان ، الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وغرتهم الشهوات ، واقترفوا السيئات ، وآثروا العاجلة ، وابتعدوا عن الآخرة ، فهؤلاء هم حزب الشيطان وبطانته ، وأهله وأولياؤه . وقريب من هذه الآيات قوله تعالى: إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . (الحجر: ٤٢) .

وقال تعالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً . (الإسراء: ٦٥) .

وفى الحديث : « المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره »[١٠٩].

يعنى: أن المؤمن يتعب الشيطان ويزجره . ويقلل أهميته بسبب طاعته لله ، واستمرار هذه الطاعة ، فيزداد المؤمن يقينا ، ويزداد الشيطان بؤسا ويأسا ، وفى الأثر : « تلاقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا شيطان المؤمن: هزيل ضعيف، أشعث أغبر ، وإذا شيطان الكافر : بدين سمين، نظيف قوى ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: مالك ضعيف هزيل ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل ؛ سمّى الله ؛ فأظل جوعانًا، وإذا شرب ؛ سمّى الله ؛ فأظل عطشانا ، وإذا اكتسى ؛ سمّى الله ؛ فأظل عريانًا ، وإذا اغتسل ؛ سمّى الله ؛ فأظل أشعثا أغبرا، فقال شيطان الكافر : أنا مع رجل لا يذكر اسم الله ؛ فأنا أكيله وشريبه وضجيعه وشريكه ! .

وفى الحديث الشريف: يقول النبى ﷺ : « كل إنسان معه شيطان » ، قالوا :وأنت يا رسول الله ! قال: « نعم ، إلاّ أنّ الله أعاننى عليه فأسلم ؛ فلا يأمر إلا بخير »(١١٠) .

وقريب من هذا المعنى قوله ﷺ : « ما سلك عمر فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا آخر » ، فعمر لقوة إيمانه وصدق يقينه ؛ يهرب منه الشيطان ، ويترك الطريق الذى يمر منه ، فسلطان الشيطان إنما يكون على قوم يرغبون فى المعاصى وتغريهم الشهوات ، ويسيطر عليهم الهوى .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

المفردات :

وإذا بدلنا آية: التبديل رفع شىء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية: نسخها بآية أخرى ، والنسخ: رفع الشارع حكما شرعيا سابقا بحكم شرعى لاحق .

روح القدس : جبريل عليه السلام ، سمى بذلك ؛ لأنه ينزل بالقدس ، أى : بما يطهِّر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهى .

بالحق : أى: بالحكمة المقتضية له .

بشر : هو جبر الرومى غلام ابن الحضرمى ، كان قد قرأ التوراة والإنجيل ، وكان النبي يجلس إليه، إذا آذاه أهل مكة .

الإلحاد : الميل ، يقال : لحد ، وألحد ، إذا مال عن القصد ، ومنه سمى العادل عن الحق: ملحدًا .

لسان : أى: كلام .

أعجمى : الأعجمى ، والأعجم : الذى فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا فى لسانه لكنة .

تمهيد :

تستمر الآيات فى ذكر مثالب المشركين ، وتذكر منها أمرين :

الأول: أنه قد تنزل آية من القرآن تنسخ آية أخرى ، مثل: تحويل القبلة ، وجعل الميراث على النسب، لا على الأخوة فى الدين ، حيث قال تعالى : وَأُلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ ، والأمر بالصبر على أذى المشركين ، ثم الأمر بردّ العدوان ، إذا تمّ هذا النسخ لحكمة إلهية ، ومقصد شرعى ، ادعى الكفار: أن محمدًا يفترى هذا القرآن من عند نفسه .

الثانى: ادعوا: أن محمدًا يتعلم من حداد رومى ، فردَّ القرآن هذه الشبهة ، حيث بين أن هذا الحداد أعجمى ، والقرآن فى غاية الإيضاح والبيان العربى .

التفسير:

١٠١ - وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أنزل الله القرآن هداية ونورًا ، مشتملا على قواعد الإيمان ، وأسباب الصلاح ، والآداب والأخلاق، والشرائع التى تفيد الأمم ، والله هو الذى خلق وهو العليم بما يصلحهم ومن حكمته أن يبدّل آية قرآنية بآية أخرى، تكون أكثر مناسبة للناس فى مرحلة تالية ، كالطبيب الذى يعالج المريض ، ثم يطوّر العلاج أو يغيّره بما يناسب تطور المرض ، لكن المشركين كانوا يظنُّون ، أن محمدًا يفترى القرآن من عند نفسه، ويأتى بالآيات الجديدة لتنسخ الآيات السابقة ، من بنات أفكاره واختراعه ، فردّ عليهم القرآن فى هذه الآية، وأشار إلى أن الحق سبحانه وتعالى ، عندما يبدل آية مكان آية ، فهو أعلم بما ينزِّل ، وأدرى بما يصلح حال العباد، ودعواهم: أن محمدًا يفترى القرآن ، دعوى كاذبة ؛ لأنهم لا يعلمون سرّ هذا النسخ ، ولا يعرفون أهداف هذا التعبير .

والنسخ فى اللغة: الإزالة ، تقول: نسخت الشمس لون الثوب أى : أزالته ، وفى الشرع : رفع الشارع حكمًا شرعيًّا سابقًا ، بحكم شرعى لاحق ، مثل : تحويل القبلة ، وتشريع الجهاد بعد الأمر بالصبر والاحتمال .

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : إن أكثر المعترضين جهلاء أغبياء ، لا يعلمون الحكمة ولا يفقهون سرَّ النسخ ، وقلة منهم تعرف وتعلم ، ولكنها تنكر هذه المعرفة وهذا العلم ؛ عنادًا وجحودًا وحسدًا للرسول ﷺ .

١٠٢- قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

روح القدس هو : جبريل عليه السلام ، والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة، أى: الروح القدس. ووصف بالقدس ؛ لطهارته وبركته ، وسمى روحا لمشابهته للروح ، فالروح فيها حياة البشر، وما يحمله جبريل من الوحى فيه حياة الأمم .

والمعنى :

قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين : إن القرآن نزل من عند الله تعالى ، وقد نزل به جبريل الأمين متلبسًا بالحق والصدق من عند الله ، لهدف ومقصد هو تثبيت المؤمنين على الإيمان ، كما أن فى القرآن هداية من الضلال ، وبشارة للطائعين بالجنة ، وفيه هداية لمن آمن به من الزيغ والضلالات ، إذ فيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ، ويرد الظالم عن ظلمه ، ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض، وقد سمع القرآن أحد المشركين فقال : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وما يقول هذا بشر . وصدق الله العظيم: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا . (النساء: ٨٢) .

١٠٣- وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ .

ذكر بعض المفسرين: اسم هذا الرجل ، فقيل: اسمه بلعام ، وقيل: اسم هذا الرجل: يعيش ، وقيل غير ذلك.

والمعنى :

إنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلاً: إن محمدًا يتعلم هذا القرآن على يد رجل حداد ، وربما كان النبى ﷺ يجلس إليه ، ويكلمه بعض الشىء .

لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ .

أى : كذبتم أيها المشركون كذبًا شنيعًا ؛ فالإنسان الذى تشيرون إليه عبدٌ حداد ، لسانه أعمى ، يعيش بين المطرقة والسنديان ، وبما كان الرسول ﷺ يعلِّمه وينير معارفه ، بدليل أن أهل مكة سألوا هذا الحداد : هل تُعلِّم محمدًا ؟ فقال لهم : بل هو يعلِّمنى .

وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ .

والقرآن عربى فى أعلا درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، وتحدّاكم وأنتم أهل اللسان والبيان ، أن تأتوا بمثله ، أو بعشر سور منه ، أو بسورة واحدة ، فعجزتم عن ذلك مع شدة الرغبة منكم، واستمرار التحدى ، ونشوب الحرب والقتال ، ووجود الدواعى والرغبة منكم فى إيجاد ما يشبه القرآن، ولما جاءوا بسورة كانت ناقصة مبتورة ، وكانت أدل على فشلهم وعجزهم فأنَّى لبشر أن يأتى

بقرآن مثل هذا ، فضلا عن أن يكون معلمًا لمحمد ، وهذا المغمز من قريش ، ربما كان منها على سبيل السخرية ، لا على سبيل الجد ، فما حواه القرآن من العلوم والمعارف ، والآداب والتشريع ، ليس في مقدور بشر أن يأتي به .

وفي مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤م ، كانت دعواهم: أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد ، – هو محمد – بل من عمل جماعة كبيرة ، وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية ، بل إن بعض أجزائه كتب خارجها .

دعاهم عظمة هذا الكتاب أن يستكثروه على موهبة رجل واحد ، وعلى علم أمة واحدة ، ولم يقولوا ما يوحي به المنطق الطبيعي المستقيم : إنه من وحي رب العالمين .

١٠٤– إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إن هؤلاء الكافرين قد ضلُّوا عن الحق والهدى ، وصدُّوا عن الإيمان ، وتكبروا عن داعي الرحمان ، هؤلاء ليسوا أهلاً لهداية السماء . فقد حجب الله عنهم الهدى ، وطبع على قلوبهم .

قال تعالى : **بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ** . (المطففين: ١٤) .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . في الآخرة جزاء كفرهم وصدهم عن سبيل الله .

١٠٥– إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ .

إن الكذب جريمة كبرى لا يقدر على اختلاقه إلا الكافرون ، الذين لا يؤمنون بالقرآن ، ولا يصدِّقون بمحمد ﷺ ، هؤلاء وحدهم هم الكاذبون ، هؤلاء مقصورون على الكذب ، أما محمد ﷺ فهو الصادق الأمين، وهو رسول من عند الله ، وهو صادق في تبليغه عن الله ، وجبريل أمين على وحي السماء ، ومحمد أمين في هذا البلاغ .

جاء في تفسير القاسمي :

ولا يخفى ما في الحصر بعد القصر ، من العناية بمقامه – صلوات الله عليه – وقد كان أصدق الناس وأبرّهم .. بحيث كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم ، أبا سفيان فقال له – من بين ما قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله تعالى .

وفى هذه الآية دلالة على أن الكذب من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش، والدليل عليه أن كلمة إِنَّمَا للحصر، وروى: أن النبى ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم قرأ هذه الآية. ا هـ.

★ ★ ★

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المفردات:

أكـــــره: أى: على التلفظ بكلمة الكفر.

مـطـمـئـن: ثابت متيقن، والاطمئنان سكون النفس بعد انزعاجها، والمراد: الثبات على ما كان عليه، بعد إزعاج الكفر.

شرح بالكفر صدرًا: اعتقده وطاب به نفسًا.

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة: أى: آثروها وقدموها.

لا جـــرم: أى: حقا.

تمهيد:

العقيدة الصادقة لها تكاليف وتضحيات، والمسلمون الأولون تعرضوا لكثير من الاضطهاد والآلام، فصبر كثير منهم، وبعضهم تحمل الموت فى سبيل الله، مؤثرا الآخرة على الدنيا. روى: أن قريشا أكرهوا عمارًا وأبويه: ياسرا وسمية، على الارتداد فأبوا، فربطوا سمية بين بعيرين، ووجئت بحربة فى موضع عفتها، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال، فقتلوها، وقتلوا ياسرًا، وهما أول قتيلين فى الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله، إن عمارًا كفر، فقال رسول الله ﷺ: «كلا إن عمارًا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بحلمه ودمه. فأتى عمار رسول الله ﷺ، وهو يبكى،

فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال له: « مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت » وفى رواية: أنه قال له : «كيف تجد قلبك ؟» قال : مطمئن بالإيمان ، قال ﷺ : «إن عادوا فعد» ، فنزلت هذه الآية[111] .

والآيات توضح مغفرة الله للمُكْرَه ، وتبين: أن العقاب الأليم لمن رجع عن الإسلام ، وآثر الكفر ؛ فإنه يستحق غضب الله ، والعذاب العظيم ، وهو قد اشترى الدنيا والكفر ، وباع الآخرة والإيمان ، فحرمه الله الهدى ووصمه بالكفر ، هؤلاء قد ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصاروا غافلين عن الحق ، سادرين فى الباطل ، حقا إنهم فى الآخرة من الخاسرين ، فقد حرموا الجنة وصاروا من أهل النار .

التفسير:

١٠٦ – مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، وذاقت حلاوته النفوس ، لا يجوز أن يتركه الإنسان ويرجع إلى الكفر بالله .

والآية تتحدث عن عقوبة الكافر الذى عرف الإيمان ، ثم عدل عنه إلى الكفر – وتستثنى من هذه العقوبة، من أكره على الكفر ، فكفر بلسانه ، وقلبه ثابت مطمئن على الإيمان ، فهو فى مغفرة الله ورحمته– أما من اطمئن قلبه للكفر ، وعاد إليه متيقنا به ، مؤثرًا له على الإيمان ، فعليه غضب الله ولعنته ، وله عذاب عظيم فى جهنم .

وقد تعرض المسلمون فى تاريخهم الطويل ، لألوان من العذاب والإغراء ؛ ليتركوا الإيمان ويعودوا إلى الكفر ، أو ليقولوا كلمة يذمّون بها الإسلام ويمدحون الكفر ، فمنهم من رضى بالموت فداء لعقيدته ، واشترى الآخرة وباع الدنيا ، وتحمل صنوف العذاب والإغراء ، ومن هؤلاء ياسر ، وزوجته سمية ، وبلال بن رباح، ومنهم من نطق بكلمة الكفر تقية ؛ حتى يخف عنه العذاب ، ومن هؤلاء عمار بن ياسر ، وقد أقرَّه النبى ﷺ على ما فعل ، وفى الحديث: أن النبى ﷺ قال له : « كيف تجد قلبك » ، قال : مطمئن بالإيمان ، فقال له : «إن عادوا فعد » .

قال ابن كثير فى تفسيره :

اتفق العلماء على: أن المكرَه على الكفر ، يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى ، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحرّ ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد أحد ، ويقول: والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها » . اهـ .

وقريب من صنع بلال بن رباح ، ما فعله حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدًا رسول الله ، قال: نعم ، فيقول له مسيلمة : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال حبيب : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، فى ترجمة عبد الله بن حذيفة السهمى – أحد الصحابة رضوان الله عليهم– أنه أَسَرَتْهُ الروم فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصرّ وأنا أشركك فى ملكى ، وأزوجك ابنتى ، فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ ، طرفة عين ما فعلت ، فقال: إذن أقتلك ، فقال: أنت وذاك ، وفى رواية: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أيامًا، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حلّ لى ، ولكن لم أكن لأشتمك فىّ ، فقال له الملك : فقبّل رأسى وأنا أطلقك ، فقال : تطلق معى جميع أسارى المسلمين ، قال: نعم ، فقبل رأسه ، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذيفة، وأنا أيضا ، فقام وقبّل رأسه رضى الله عنهما[١١٢] .

١٠٧– ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ .

أى : ذلك الجزاء العادل والعقاب الأليم ، بأن عليهم غضبًا من الله ولهم عذاب عظيم ، سببه أنّهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها ، وباعوا الآخرة والإيمان بالله ، ومن عدالة الله أنه لا يوفق للإيمان من يجحد آيات الله ويصرّ على إنكارها .

١٠٨– أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ .

هؤلاء الكفار قد اشتد إعراضهم عن الحق ، وآثروا الدنيا والهوى ، وأعرضوا عن الهدى : فختم الله على قلوبهم بحجاب من الغفلة ، وعلى أسماعهم فلا تستمع إلى الهدى ، استماع راغب مستفيد مما فيه ، ولا تبصر الحق ولا تنظر فى أدلته .

وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ . السادرون فى لهوهم ، الساهون عما أعد لهم ولأمثالهم ، من عقوبة وجزاء.

١٠٩– لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ .

أى : حقا إنهم فى الآخرة هم المغبونون ؛ لأنهم اشتروا عرضا قليلا ، وباعوا نعيما أبديًّا سرمديا ؛ فخسرت تجارتهم وعاد ذلك عليهم بالوبال والنكال فى جهنم وبئس القرار .

ولله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بسبعة أشياء :

١– إنهم استوجبوا غضب الله .

٢– إنهم استحقوا عذابه العظيم .

٣– إنهم استحبوا الحياة الدنيا .

٤– إنهم حرموا من الهداية .

٥– إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

٦– إنهم غفلوا عن الحق .

٧– إنهم خاسرون فى الآخرة .

قال مجاهد:

أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ، وأبو بكر ، وخباب ، وصهيب ، وبلال، وعمار ، وسمية، أما الرسول ؛ فحماه أبو طالب ، وأما أبو بكر ؛ فحماه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا فى الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحرّ الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبّخهم ، ويشتم سمية ، ثم طعنها بحربة فى ملمس العفة ، وقال الآخرون : ما نالوا به منهم ، إلا بلالا ، فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحدٌ أحد ؛ حتى ملُّوا ؛ فكتَّفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به ؛ حتى ملّوه فتركوه ، وقال عمار : كلُّنا تكلم بالذى أرادوا ، غير بلال ؛ فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خباب : لقد أوقدوا لى نارًا ما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهرى .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات :

من بعد ما فتنوا : عذبوا وأوذوا ، وأصل الفَتْن : إدخال الذهب فى النار ؛ لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل فى المحنة والابتلاء يصيب الإنسان .

تجادل : المجادلة : المحاجة والمدافعة ، والسعى فى الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .

كل نفس : النفس الأولى : الجثة والبدن ، والنفس الثانية : عينها وذاتها .

تــــوفــــى : تعطى .

تمهيد :

تتحدث الآيتان عن فئة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، فوافقوا المشركين ظاهرا ، على الرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ثم فرُّوا وتركوا بلادهم وأهلهم ؛ ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه ، وانتظموا فى سلك المسلمين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم الله بقبول توبتهم ودخولهم فى زمرة الصالحين ، وتمتعهم بجنات النعيم .

أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة: أن عياشًا رضى الله عنه . – وكان أخا أبى جهل من الرضاعة – وأبا جندل بن سهل ، وسلمة بن هشام ، وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم ، فأعطوهم ما أرادوا ؛ ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

التفسير:

١١٠ – ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

تتحدث الآية عن مؤمنين كانوا مستضعفين بمكة ، فلما اشتد عليهم العذاب ؛ والوا قومهم ، وتكلموا فى الظاهر بما يرضى المشركين ، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة ، وحسن إسلامهم وبلاؤهم .

والمعنى : ثم إن ربك يا محمد ، لهؤلاء المهاجرين الذين امتحنوا بمكة ، ثم هاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا مع المؤمنين ، وصبروا وصابروا ، ودفعوا ضريبة الإيمان ، من التضحية والفداء ؛ إن ربك يا محمد من بعد هذه المواقف **لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** . يغفر لهم موالاة الكافرين بمكة ، ويرحم ضعفهم ، ويجزل مثوبتهم ، فقد أتبعوا السيئة بالحسنة ، وعوَّضوا ما فاتهم ، وقاموا بجهد مبارك مع المسلمين .

رأى آخــر

قال الآلوسى:

وقرأ ابن عامر : **من بعد ما فَتَنوا** ، بالبناء للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد ، أى : عذبوا المؤمنين كالحضرمىّ ، أكره مولاه «جبرًا» حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ..

والمعنى : إن مغفرة لله تكون للمشرك الذى فتن المؤمنين ، ثم هاجر وجاهد وصبر ؛ فإن الإسلام يجبّ ما قبله ، وإن مغفرة والله ورحمته لكلّ من طرق بابه ، وقد كان خالد بن الوليد من أبطال المشركين ، وقد نال من المؤمنين فى معركة أحد ، حيث شاهد الرماة قد تركوا أماكنهم فى ظهر المعركة ، فأخذ جماعة من رجال المشركين ، وانقض على المسلمين من الخلف ، وأعمل السيف فى مؤخرة الجيش ، فاحتل نظام

الجيش، وصار المسلمون يقتل بعضهم بعضا ، ولما أسلم خالد بن الوليد ، قال للنبى ﷺ : ادع الله أن يغفر لى تلك المشاهد التى شهدتها عليك ، فقال ﷺ : « أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله » .

١١١- يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

يَوْمَ منصوب على الظرفية بقوله : رَّحِيمٌ ، أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره: اذكر ، واليوم هنا: يوم القيامة ، وقد صوَّرت الآية أهوال هذا اليوم وشدّته وفزعه ، وقد ورد فى بعض الآثار : « إن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، إلاَّ جثا على ركبتيه ، يقول: ربِّ نفسى نفسى ، حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك » .

والمعنى : اذكر يوم القيامة ، حيث يأتى كل إنسان يدافع عن نفسه ، قد شغله الهول عن أى إنسان آخر، وفى ذلك اليوم لا يفيد الكلام ولا الدفاع ؛ لأن الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل ، بل يوفى كل إنسان جزاء عمله ، ويلقى المُحسن جزاء إحسانه ، والمسىء جزاء إساءته : وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ؛ لأنهم أمام الله العادل القائل:

وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧) .

وقال سبحانه : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج: ٢،١) .

★ ★ ★

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

تمهيد :

فى هاتين الآيتين تهديد ووعيد لأهل مكة ، وتذكير لهم بما أصاب القرى التى كذبت أنبياءها ، فأرسل الله عليهم صاعقة ، أو أمطرهم بالحجارة ، أو أغرقهم بالماء ، أو خسف بهم الأرض ، جزاء كفرهم وعنادهم.

التفسير:

١١٢- وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ .

ضرب الله الأمثال لأهل مكة ؛ حتى يضع أمامهم صورة عملية لقرية - أىّ قرية - من قرى المكذبين، مثل قرية نوح ، أو هود ، أو صالح ، أو موسى ، أو محمد عليهم الصلاة والسلام ، فقد كان هؤلاء الكفار آمنون فى قراهم ، يأتيهم الرزق والعافية والنعمة ، ثم أرسل الله إليهم رسولا ليؤمنوا به ، فكذبوه وجحدوا نبوّته ، فأرسل الله عليهم العقوبة ، فقد أغرق الطوفان قوم نوح ، وأهلك العذاب مدين وثمود .

قال تعالى : **أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** . (هود: ٩٥) ، وأغرق الله فرعون فى ماء النيل .

قال تعالى : **وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَد جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ * فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** . (العنكبوت: ٣٩، ٤٠) .

وقال عز شأنه : **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَـٰهَا** . (الشمس: ١١-١٥) .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد بهذه القرية: قرية غير معينة ، وإنما هى مثل لكل قوم قابلوا نعم الله بالجحود والكفران ، ، فأصابهم العذاب والنكال ، وهذا ينطبق على قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم زكريا ، وقوم موسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد بالقرية أهل مكة ، كانت أنعم الله تترى عليهم ، وتأتيهم الخيرات من كل مكان ، وكانوا يتمتعون بالأمن والأمان ، وتسير تجارتهم آمنة فى رحلة الشتاء والصيف ، فلا يغير عليها أحد من الأعراب ؛ لأنهم أهل حرم الله وسدنة الكعبة، ثم أرسل الله إليهم رسولا يعرفون نسبه وحسبه ، وصدقة وأمانته ، وجاء بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكفروا بالكتاب ، وكذبوا الرسول ، فدعا الرسول ﷺ عليهم ، وقال : « اللهم ، اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف »[١١٣] .

فأصاب أهل مكة الجوع ، وأذاقهم الله لباس الخوف ، أى : ذاقوا مرارة الخوف والحرب والجوع ، حتى إذا نظروا إلى السماء ؛ شاهدوا ما يشبه الدخان ، من الجوع الذى أصابهم ، عقوبة لكفرهم .

وعند التأمل نجد أن الآية يمكن أن تشمل قرى المكذبين السابقين للرسل ، وتنطبق فى نفس الوقت على أهل مكة .

وقريب من معنى الآية قوله تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص: ٥٧).

وقوله سبحانه: لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِيلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ . (قريش: ١-٤).

وقوله تعالى: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . (محمد: ١٣).

وفى ختام القول: تظل هذه الآية نموذجًا ومثالا، لكل من قابل النعمة بالكفر والطغيان، فتقال له ولأمثاله، بل يمكن أن يذكر الإنسان نفسه عندما يدعوه الهوى أو الشيطان إلى ارتكاب أى فاحشة أو معصية فيقول لنفسه: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ. (النحل: ١١٢).

١١٣- وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ .

أى: إن أهل هذه القرية، قد أكمل الله عليهم النعم، فأرسل إليهم رسولا من جنسهم، يعرفون نسبه وصدقه، فقابلوا دعوته إليهم بالتكذيب والجحود، فقابل الله تكذيبهم وجحودهم بأن أرسل عليهم العذاب، حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وظالمين للرسول الذى أرسل إليهم.

فى أعقاب التفسير

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... أى: جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نقمته ..

وقال الإمام ابن كثير:

هذا مثل أريد به: أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمنا ...؛ فجحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد ﷺ؛ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ .

★ ★ ★

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

المفردات :

ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب: لا تجعلوا الكذب قولكم ، ولا تجعلوا ألسنتكم أداة الكذب .

جاء في تفسير الكشاف ما معناه:

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون: أنه جميل ، وأن عينه تفتن من رآها ؛ لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال ، وعينه منبعًا للفتنة والسحر ، كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما ، محيط بحقيقتهما ، يصفهما للناس أجمل وصف، ويعرّفهما أتم تعريف ، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب ، هي حقيقته ومنبعه الذى يعرف منه .

لتفتروا: أي : لتكون العاقبة ذلك .

بجهالة : الجهالة هنا : الطيش ، وعدم التدبر فى العواقب .

تمهيد :

تشتمل الآيات على ما يأتى :

١- الأكل من الحلال الطيب .

٢- تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير .. إلا للمضطر .

٣- التحليل والتحريم لا يكونان إلا بنص ، ولا يجوز أن يكونا بالهوى والتشهى .

٤- ما حُرِّم على اليهود قد ذكر من قبل فى سورة الأنعام .

٥- قبول توبة التائب الصادق فى توبته .

التفسير:

١١٤- فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

كلوا من رزق الله ، ومن أنعمه الحلال الطيب ، واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم ، واشكروا الله على أنعمه عليكم ، بأن تستخدموا النعمة فيما خلقت له ، وأن تؤدُّوا الزكاة والصدقة ، إن كنتم تعبدون الله ، فالتزموا بأكل الحلال ، والتزموا بشكر النعمة ، وأداء حقها ، وإخراج زكاتها .

١١٥- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

التحريم والتحليل يكونان من الله ، وقد نعى القرآن على أهل الجاهلية تحريم أنواع من الحيوانات، فقال سبحانه وتعالى : **مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** . (المائدة: ١٠٣) .

وقد تكرر هذا المعنى فى سورة البقرة والمائدة والأنعام ، وقد قصر الله التحريم هنا فى هذه الأربع؛ ردًا على تحريم المشركين لبعض الحيوانات ، افتراء على الله ، من غير أن يحرمها الله تعالى .

فـ **ٱلْمَيْتَةَ** . ربما تعفنت أو فسدت ، فتعافها النفس من جهة ، ولأن فى أكلها أضرارًا بالجسم من جهة أخرى ، ويلحق بالميتة : المنخنقة، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع منها ؛ نظرا لفسادها وضررها ، ولأنها لم تذبح وتذكّى وهى حيّة .

وَٱلدَّمَ . وهو الدم النازل من الحيوان فى حياته أو فى مماته ، ويسمى: الدم المسفوح ، أى : السائل عند ذبح الحيوان ، وقد أثبت الطب الحديث الأضرار التى تصيب الإنسان من شرب الدم .

وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ . وقد حرم الله الخنزير كلّه ، جلده ولحمه ودهنه ؛ وإنما ذكر اللحم هنا ؛ لأنه الأساس المقصود بالذبح، وتحريم الشحم والجلد تابعان لتحريم اللحم .

وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ، حيث كان أهل الجاهلية يذبحون لآلهتهم، ويقولون عند الذبح باسم اللات أو باسم العزّى؛ والفعل أُهِلَّ مأخوذ من الإهلال بمعنى: رفع الصوت، أى : رافعين أصواتهم باسم آلهتهم؛ وفى هذا الحيوان فساد معنوى ؛ لأنه ذكر عليه اسم غير الله ، وقد قال تعالى : فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ . (الأنعام : ١١٨).

والذبح عبادة لها مواصفات فى كتب الفقه ؛ منها: أن يحدّ الذابح شفرته ، ويريح ذبيحته ، ويذبح الحيوان من رقبته، ويقطع أكثر الرقبة وفيها الحلقوم والودجان والنخاع . وعند الذبح يقول: باسم الله . الله أكبر .

فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : من اضطر إلى أكل شىء من هذه المحرمات الأربع ، كمن سار فى صحراء ، وضلَّ الطريق ، واشتد به الجوع؛ فإنه يباح له الأكل من هذه المحرمات ، بمقدار ما يسدّ الرمق ، ويستبقى الحياة .

غَيْرَ بَاغٍ ، أى : متجاوز فى قصده ، بأن يترك الحلال متعمدا إلى أكل الحرام .

وَلَا عَادٍ . أى : ولا معتدٍ بأكل أكثر مما يسد الرمق ، من أكل هذه المحرمات مضطرا فلا إثم عليه ، ولا ذنب.

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فإن الله يغفر له ويرحمه ؛ لأنَّه عليم بالملابسات التى أحاطت به ، وهو سبحانه لم يكلفنا بما لا نطيق .

قال تعالى : لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . (البقرة: ٢٨٦) .

وقال عز شأنه: لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا . (الطلاق: ٧) .

وفى خواتيم سوة البقرة: رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ . (البقرة: ٢٨٦) .

والآن وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، يتحدث الطبّ الحديث عن الأضرار العديدة التى تصيب من يأكل من هذه المحرمات ، ويتضح للعيان صدق هذا القرآن ، وأنه إنما جاء من عند الله حقا ، فأنّى لمحمد الذى نشأ فى بلاد العرب ، أن يصل إلى تحريم هذه الأشياء بذاتها ، من غير أن يوجهه وحى السماء ، وصدق الله العظيم : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . (النجم: ٣، ٤) .

١١٦- وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

التحليل والتحريم لا يكونان إلا بنصّ ، ولا يجوز أن يجرؤ إنسان على تحليل شىء أو تحريمه ، لهواه أو رأيه أو فتوى بغير علم ، فيكون قد اجترأ على الله فضلّ وأضلّ .

ومعنى الآية : لا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم وتحكيه : هذا حلال ، وهذا حرام ، فهذا القول حين يقوله إنسان بلا نص هو الكذب بعينه ، الذى يفتريه على الله ، ويتقول على الله بما لم يقله ، بدون دليل ولا برهان .

قال ابن كثير :

ويدخل فى الآية من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله ، أو حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه . ا هـ .

وقال الآلوسى :

لا تسمُّوا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله تعالى ورسوله : حلالا وحراما ؛ فتكونوا كاذبين على الله؛ لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه سبحانه . ا هـ .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ . (يونس: ٥٩) .

وقد ادَّعى المشركون: تحريم أشياء لم يحرمها الله سبحانه ، وفند القرآن دعواهم ، ومن ذلك قوله تعالى: وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ... (الأنعام: ١٣٩) .

لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ .

أى : لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله ، كذبا من غير أن يكون ذلك منه ، فالله تعالى لم يحرم من ذلك ما تحرمون ، ولا أحل كثيرا مما تحللون .

وإجمال ذلك :

لا تسموا مالم يأتكم حله ولا حرمته عن الله ورسوله : حلالا وحراما ؛ فتكونوا كاذبين عليه ؛ لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حُكمه تعالى .

عن أبى نُضْرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

أى : إن الذين يختلقون الكذب ، ويخترعون الفتوى ، وينسبون ذلك إلى الله وشرعه كذبا وزورا ؛ لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فسرعان ما يكتشف الناس كذبهم ، فينصرفون عنهم ، ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار .

١١٧- مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : متاعهم فى الدنيا قليل ، بالسحت والمال الحرام ، الذى حصلوا عليه بفتاواهم الكاذبة .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وينتظرهم عذاب شديد فى الآخرة ؛ جزاء كذبهم وافترائهم على الله .

قال تعالى : قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء: ٧٧) .

وقال عز شأنه : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان: ٢٤) .

١١٨- وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

لقد حرم الله على اليهود أنواعا من الحيوانات ؛ عقوبة لهم وردعًا لظلمهم ، كما قال سبحانه وتعالى: فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . (النساء: ١٦٠) .

وعند المقارنة : نجد أن الله حرم على المسلمين الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله ، وهذا التحريم رأفة بنا ، وحفاظا على أجسامنا ، ولم يكن ذلك عقوبة على جريمة ارتكبناها ، أما ما حُرّم على اليهود فقد كان عقوبة لهم ، وقد سبق ذكر ذلك فى سورة الأنعام ، حيث قال سبحانه وتعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ . (الأنعام: ١٤٦) .

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أى : أن الله تعالى لم يظلم اليهود بتحريم هذه الأشياء عليهم ، وإنما حرمها عليهم جزاء ظلمهم ، وعدوانهم فى السبت ، وقولهم: قلوبنا غلف ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، وإضافتهم للتوراة ما ليس منها ، وحذفهم بعض

الحدود من التوراة ، مثل: الرجم للزانى المحصن عندما كثر الزنا فى أشرافهم ، فاستبدلوه بعقوبة أخف ، ولم تتشرب قلوبهم روح التوراة ، بل اهتموا باللفظ دون المحتوى ، حيث قال تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . (الجمعة: ٥) .

١١٩ – ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ.

تتكرر المعانى التى تفصح عن رحمة الله بعباده ، وقبول توبتهم ؛ حتى لا ييئس إنسان من فضل الله ورحمته وقد فتح الله أبواب التوبة لكل تائب من اليهود أو من غيرهم ، وقد خصّت الآية عمل السوء بجهالة؛ لأن المذنب عادة يكون واقعا تحت جهالة الشهوة أو الشباب أو الإغراء ، وليس معناه: أن من عمل السوء بدون جهالة لا يغفر الله له ، بل الآية تعبّر عن الواقع والأكثر .

وقال مجاهد:

كل من عصى الله تعالى عمدًا أو خطأ ، فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

وقال ابن عطية:

الجهالة هنا بمعنى : تعدّى الطور ، وركوب الرأس ، لا عدم العلم ، ومنه ما جاء فى الخبر: « اللهم ، إنى أعوذ بك أن أجهل أو يجهل علىّ »[١١٤] .

ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق الجهل الجاهلينا

ومعنى الآية:

ثم إن ربك لكثير الغفران والرحمة ، لأولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، بالذنوب أو المعاصى ، أو الشرك أو ركوب مالا يليق ، بسبب الجهالة والطيش والسفه ، ثم ندموا وتابوا توبة صادقة ، وعملوا أعمالا صالحة، فإن الله يتقبل توبتهم ، ويسجل لهم الحسنات فى صحائف أعمالهم ، رأفة ورحمة بهم ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩، ٥٠) .

ويقول تعالى: إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . (الفرقان: ٧٠) .

ويقول تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ . (البقرة: ٢٢٢) .

ويقول عز شأنه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . (الزمر: ٥٣) .

★ ★ ★

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

المفردات :

أمـــــة : الأمة : الجماعة الكثيرة ، وسمّي إبراهيم: أمّة ؛ لأنه جمع من الفضائل مالو تفرّق لكفى أمّة .

قال أبو نواس يمدح هارون الرشيد :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

قـــانـــتـــا : عابدًا مطيعًا لله قائما بأمره .

حـــنـــيـــفـــا : مائلا عن الدين الباطل إلى الدين الحق .

اجـــتـــبـــاه : اختاره واصطفاه .

وآتيناه فى الدنيا حسنة: هى محبة أهل الأديان جميعا له ، وقد بشره الله بإسحاق ثم بيعقوب ، ومن نسله كان الأنبياء ، واتخذه الله خليلا ، وهو مذكور في ختام التشهد ، ومن دعاء إبراهيم: وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ . (الشعراء: ٨٤) .

إنما جعل السبت : أى : فرض تعظيمه ، والتخلِّى فيه للعبادة ، وترك الصيد .

بالحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق ، المزيل للشبهة ، أو حسن التأنى للأمور ، واختيار اللفظ المناسب ، والبيان المناسب .

الموعظة الحسنة : الأدلة الظنية المقنعة للعامة ، وكل ما يناسب الناس ، ويحببهم فى الدين والهدى والطاعة .

جادلهم : الجدال : الحوار والمناظرة ؛ لإقناع المعاند ، وينبغى أن يكون بالأسلوب الأمثل الهادئ الرزين .

العقاب : فى أصل اللغة : المجازاة على أذًى سابق ، ثم استعمل فى مطلق العقاب .

ضيق : بفتح الضاد وكسرها ، الغم وانقباض الصدر .

تمهيد :

تختم سورة النحل بذكر قصة إبراهيم رئيس الموحدين ، الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقرّون بوجوب الاقتداء به ؛ ليصير ذكر طريقته حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد ، والرجوع عن الشرك ، ثم يأمر نبينا محمدًا ﷺ باتباعه ، ثم يرسم القرآن طريق الدعوة إلى الله ، ويتمثل ذلك فى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم يأمره بالصبر وينهاه عن الحزن ، ويبشِّره بالنصر للذين اتقوا والذين هم محسنون .

التفسير:

١٢٠، ١٢١، ١٢٢– إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

تصف الآيات الكريمة إبراهيم عليه السلام ، بأنه كان أمة ، جمع من الفضائل والمزايا ما يكفى أمة، قال ابن عباس رضى الله عنه : إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة . ا هـ .

فهو رئيس الموحدين ؛ كسر الأصنام ، وجادل الكفّار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ؛ ليطمئن قلبه للإسلام .

وجاء في ظلال القرآن ما يأتي :

ويحتمل أن معنى أُمَّةً : أن إبراهيم كان إمامًا يهدى إلى الخير ، فهو قائد أمة ، وله أجره وأجر من عمل بهدايته إلى يوم القيامة ، فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه ، لا فرد واحد .

قَانِتًا لِّلَّهِ . طائعًا خاشعًا عابدًا .

حَنِيفًا . مائلاً عن الباطل متبعًا للحق .

وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . فقد هجر عبادة الأصنام ، وحاربها وكسَّرها ، وساق أدلة متعددة على التوحيد، وجادل النمروذ ، وألجمه بالحجة حين قال له : فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ . (البقرة: ٢٥٨) .

وقد حكى القرآن عن إبراهيم قوله تعالى: إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٩) .

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ . أي : شكر نعم الله تعالى بالقول والعمل ، واستخدم النعمة فيما خلقت له ، وناقش قومه بالحوار والمنطق والعمل ، وتحمل النار في شجاعة ، وقال عنه القرآن: وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ . (النجم: ٣٧) ، أي: وفَّى لله ما عاهده عليه ، من الطاعة والجهاد وتبليغ الدعوة .

ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . قربّه الله واختاره ، وهداه إلى التوحيد الخالص ، والطريق القويم والملة الواضحة .

وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً . جمع الله له ما يحتاج إليه المؤمن ؛ ليحيا حياة طيبة ؛ فأعطاه العقل ، واللسان الفصيح ، والذرية الصالحة ، ومحبة الناس وتوقير السابقين واللاحقين ، حيث قال : وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ . (الشعراء: ٨٤) .

وأشار القرآن إلى عطاء الله له في الدنيا حين قال: فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . (مريم: ٤٩) .

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

وإن له في الآخرة منزلة عليا ، هي منزلة الصلاح ، وهي من أعلا المنازل . وقد استجاب الله دعاء إبراهيم حين قال : رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ . (الشعراء: ٨٣) .

١٢٣- ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

وكان من أشرف ما أوتى إبراهيم من الفضائل ، أن أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع إبراهيم فى إخلاصه فى التوحيد ، وفى أصول الدين الثابتة فى كل الشرائع .

قال المفسرون :

وفيه دليل على جواز اتباع الفاضل للمفضول ، ولا ينقص ذلك من قدر الفاضل ، فالخصوصية لا تقتضى الأفضلية ، لقد كان إبراهيم أبا الملة ، وأبا الأنبياء ، مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّـٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ... (الحج: ٧٨) .

وفى هذا دليل على أن الإسلام رسالة الأنبياء جميعا ، يتحملها السابق ثم اللاحق ، فالإسلام رسالة إبراهيم ، ورسالة من جاء بعده من الرسل ، ورسالة محمد ﷺ ، الذى أمر باتباعه حال كونه : حَنِيفًا . مائلاً عن الباطل ، متبعا للحق ، برئيا من الشرك والمشركين ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ؛ مؤكدًا أن شجرة الإسلام باسقة دعى إليها جميع الأنبياء .

قال تعالى : قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . (البقرة: ١٣٦).

وقد روى البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يقولون : ما أكمل هذه الدار ، وما أجملها لو وضعت هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم الرسل »[١١٥] .

١٢٤- إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أى : إنما جعل وبال يوم السبت ، على الذين اختلفوا فيه من اليهود ، حيث أمرهم نبيهم موسى فيه بالانقطاع للعبادة ، وعدم صيد السمك ، فاختلفوا ، فمنهم من أطاع ، ومنهم من احتال على صيد السمك يوم السبت ، حيث وضع الشبك يوم السبت ، واصطاد يوم الأحد ، فلم يطيعوا أمر نبيهم ، فمسخهم الله قردة مبعدين من رحمته .

قال تعالى: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ . (الأعراف: ١٦٣).

وقد عيَّر القرآن اليهود ، بعدوانهم فى السبت ، وبأكلهم السمك بالحيلة ، وبأنهم إخوان القردة .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن الله ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب.

١٢٥- ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...

تأتى هذه الآية وما بعدها فى أعقاب سورة النحل المكية ، تتحدث عن أسلوب الدعوة إلى الله تعالى وتتحدث عن أسلوب فى الحياة ، يهتم بالصبر والاحتمال والإيمان بالله ، والثقة بما عنده .

إن الدعاة مطالبون بدراسة علمية عالية ، لفنون القول والخطاب ، والإحاطة بالمعلومات وطرق الجدال ، وبيان الحجة ، أحيانا نكتفى بالبيان المناسب ، والمعلومات المفيدة ، وأحيانا نحرِّك القلوب بالموعظة الحسنة ، والتذكير بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأحيانا نناقش الناس بالحجة ، ونجادلهم بالمعروف وبالكلمة الطيبة ؛ لنبيّن الخطأ والصواب ، وهذا معنى قوله تعالى :

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .

ٱلْحِكْمَةِ . تشمل القول المحكم الصحيح ، الموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع من النفس أجمل موقع.

وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ . بيان العبر والمواعظ التى جعلها الله فى القرآن الكريم ، مثل: وصف السماء، والأرض ، والجبال ، والبحار ، والأنهار ، والفضاء ، والهواء ، والليل ، والنهار ، والحياة ، والموت ، وغير ذلك مما يبيّن فضل الله على عباده ودعوتهم إلى طاعته واتباع أمره واجتناب نهيه .

وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .

أى : ناقش المخالفين بالهدوء والبيان ، بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل له ، حتى يطمئن إلى الدعوة ، وينظر إلى الموضوع نظرة واقعية عميقة ، فالجدل بالتى هى أحسن ، هو الذى يفتح نفس المخاطب، ويطمئنه إلى الهدى والرشاد .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ .

إن الدعاة هداة لا قضاة ، وكذلك الأنبياء والرسل ، عليهم تبليغ الدعوة والنصح والنقاش الهادئ ، أما الهداية والدخول فى الإسلام الحق ، فتلك مهمة الله الخالق البارئ الهادى .

قال تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... (البقرة: ٢٧٢) .

وقال سبحانه : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ . (القصص: ٥٦) .

وقال سبحانه: فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢) .

والمعنى : اسلك أيها الرسول سبل الدعوة وأساليبها المفيدة النافعة ، أما الهداية العملية ، وانتقال الناس من الضلالة إلى الهدى ، فذلك أمر بيد الله تعالى ؛ فهو أعلم بالضالين المعاندين ، وهو أعلم بالمهتدين الطائعين ، وسيجازى كل فريق بما يستحق .

١٢٦- وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ .

تحدث المفسرون كما تحدثت كتب علوم القرآن ، عن أسباب نزول هذه الآية وما بعدها إلى آخر سورة النحل ، فذكر جمع من المفسرين : أن هذه الآيات نزلت فى أعقاب غزوة أحد .

روى الحافظ البزار عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد، فنظر إلى منظر لم يُنظر أوجع للقلب منه ، وقد مثّل المشركون به فقال رسول الله ﷺ : « لقد كنت وصولا للرحم، فعولاً للخيرات ، والله لولا حزن من بعدك عليك ؛ لسَّرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع، أما والله لأمثلّن بسبعين منهم مكانك » فنزلت هذه الآية ، فكفّر رسول الله ﷺ عن يمينه[١١٦] .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره :

إن هذا الإسناد السابق فيه ضعف ؛ لأن أحد رواته وهو (صالح بن بشر المرّى) ضعيف عن الأئمة ، وروى عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أبى كعب ، قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح ، قال رجل : لا تُعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد: أن رسول الله ﷺ : قد أمّن الأبيض والأسود ، إلا فلانا وفلانا (ناسًا سمّاهم) ، فنزلت الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل ، فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب.[١١٧] .

وقد ذكر بعض العلماء: أن هذه الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل ، تكرر نزولها ، فنزلت يوم أحد ونزلت عند فتح مكة ، والحكمة فى تكرير نزولها ؛ شدة الحاجة إلى العمل بمعانيها ، عند الرغبة فى التشفّى، ودعوة القرآن إلى الصبر .

وعند التأمّل نجد أن الآيات دعوة إلهية إلى الصبر والاحتمال ، وهى دستور مفيد للإنسان وللجماعات والأمم ، وسواء كان نزولها فى غزوة أحد ، أو عند فتح مكة ، أو عند حياة المسلمين بمكة قبل الهجرة ، فإن معانيها عامة ، وأوامرها وآدابها مطلوبة للحياة والأفراد .

وفى معنى قوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ... الآية . يقول سبحانه وتعالى : وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ . (الشورى: ٤٠) .

أى : إن من حق الإنسان أن يعاقب على الإساءة إليه ، بالقصاص أو بالعقوبة المناسبة ، فإذا عفى وأصلح ؛ فإنه ينال جزاءه عند الله فى الحياة الآخرة .

وكذلك معنى الآية يفيد: أنه يحق للإنسان أن يعاقب المعتدى بمثل عقوبته ، وله أن يعفو ويصفح ، وهذا خير وأفضل ، وفى الحديث النبوى الشريف : « ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال عبد من صدقة ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه ، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا فاعفوا يعزكم الله »[١١٨] .

وقال الشيخ أحمد المراغى فى تفسير المراغى :

والخلاصة: أنكم إن رغبتم فى القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه ؛ فإن الزيادة ظلم ، والظلم لايحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم ؛ فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويناصر المظلوم .

١٢٧- وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِٱللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ .

تأتى هذه الآية لتأكيد الوصية بالصبر والاحتمال ، فالصبر طريق النجاح ، والصبر قد ذكر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعا ، والصبر نصف الإيمان ، فالإيمان نصفان ، نصف صبر ، ونصف شكر ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران: ٢٠٠) .

وقال سبحانه: وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ . (الشورى: ٤٣) .

والمعنى للآية:

وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِٱللَّهِ .

أى : اصبر أيها الرسول على أذى قومك وفوّض أمرك إلى الله ، فالصابر فى عناية الله وحفظه ، ومعونته وتوفيقه ، أى : وما ثواب صبرك إلا بتوفيق الله ومعونته ، وما جزاؤك عليه إلا من عند الله ، قال تعالى : إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ . (الزمر: ١٠) .

وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ .

كان عليه الصلاة والسلام حريصا على هداية قومه ، ودعوتهم إلى الدين الإسلامى، وكانوا يزيدون فى إعراضهم وعنتهم .

فقال له القرآن :

لا تحزن على استمرارهم فى الكفر، ولا تكن ضيّق الصدر بعناد قومك ، وحرصهم على الكفر ، ومكرهم السيىء ، وفرارهم من الإيمان .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ . (الأعراف: ٢) .

وقوله عز شأنه : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ . (هود: ١٢) .

جاء فى ظلال القرآن :

وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِٱللَّهِ ...

فهو الذى يعين على الصبر ، وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذى يطامن من الرغبة الفطرية فى رد الاعتداء بمثله ، والقصاص له بقدره . ا هـ .

ومجمل الآية :

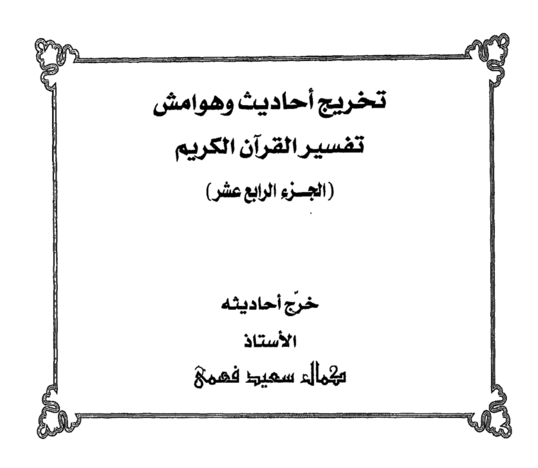
لا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم عن دعوتك ، ولا يضيق صدرك بمكرهم ؛ فإن الله تعالى ناصرك عليهم ومنجيك من شرورهم .

١٢٨- إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ .

إن الله بمعونته وعونه ونصره ، مع دعاته المخلصين ، الذين اتقوا ربهم ، وراقبوه وأخلصوا له ، وقد أحسنوا القول والعمل ، وكانوا فى حالة من تقوى الله وحسن مراقبته ؛ فكان الله معهم ، بعونه وتوفيقه ، ومن وجد الله ؛ وجد كل شىء ، ومن فقد الله ؛ فقد كل شىء .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الرابع عشر فى مدينة بوسعيد ، بجمهورية مصر العربية ، ظهر يوم السبت ٢٥ من ربيع الأول ١٤١٧ هـ / الموافق ١٠ أغسطس ١٩٩٦م ، والحمد لله حمدًا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويحب، اللهم، اجعله خالصا لوجهك الكريم ، اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه ، وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجـزء الرابع عشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، لمقاتل بن سليمان ص ٥٨ .

(٢) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٦٩-١٧٧ .

(٣) إذا اجتمع أهل النار في النار :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي عاصم في السنة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه، وابن مردوية والبيهقي في البعث والنشور ، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟! قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟! قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ؛ فسمع الله ماقالوا ، فأمر بكل من كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، ثم قرأ رسول الله ﷺ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ، وذكره الترمذي تعليقا في الإيمان تحت حديث رقم (٢٦٣٨) ، بقوله: وقد روى عن عبد الله بن مسعود ، وأبي ذر ، وعمران بن حصين ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، وأنس بن مالك: عن النبي ﷺ أنه قال: « سيخرج قوم من النار من أهل التوحيد ويدخلون الجنة » ، هكذا روى عن سعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، وغير واحد من التابعين في تفسير هذه الآية : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قالوا : إذا أخرج أهل التوحيد من النار وأدخلوا الجنة ؛ ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، قلت : والحديث أصله في الصحيح .

(٤) يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص :

أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٧) ، والترمذي في الزهد (٢٣٣٩) ، وفي صفة القيامة (٢٤٥٥) ، وابن ماجة في الزهد (٤٢٣٤)، وأحمد في مسنده (١١٧٣٢) ، من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر » .

(٥) مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية :

رواه الترمذي في القدر (٢١٥٠) ، وفي صفة القيامة (٢٤٦٥) ، من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ، إن أخطأته المنايا ؛ وقع في الهرم حتى يموت » . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو العوام هو: عمران ، وهو ابن داور القطان . وقال في الموضع الأخير: هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه الترمذي في الزهد (٢٣٣٤)، وابن ماجة في الزهد (٤٢٣٢) ، وأحمد في مسنده (١١٨٢٩) ، من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا ابن آدم وهذا أجله » ووضع يده عند قفاه، ثم بسطها فقال : « وثم أمله ، وثم أمله ، وثم أمله » . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٤) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا ، وخط في وسط الخط خطا ، وخط خارجا من الخط خطا ، وحول الذي في الوسط خطوطا ، فقال : « هذا ابن آدم ، وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي في الوسط الإنسان، وهذه الخطوط عروضه ، إن نجا من هذا ؛ ينهشه هذا ، والخط الخارج: الأمل » ، وقال : هذا حديث صحيح .

(٦) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للإمام محمد الرازي فخر الدين ، ٥٤٤-٦٠٤ هـ، ١٥٩/١٠، دار الفكر ، بيروت.

(٧) تفسير الكشاف للزمخشري ١٢٨/٣، دار المصحف : شركة : مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد ، ١٣ شارع الصنادقية بالأزهر- القاهرة .

(٨) فتح القدير ١٢٢/٣، دار المعرفة - بيروت - لبنان .

(٩) تفسير الفخر الرازى ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ١٩ ص ١٧١ ، وفى (صفوة التفاسير) ، تأليف / محمد على الصابونى ، أن هذا الكلام من قول الفخر الرازى ، والصواب: أن الفخر الرازى نقله عن ابن عباس .

(١٠) تفسير الفخر الرازى ١٧٠/١٩ .

(١١) تفسير ابن عطيه - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، لأبى محمد عبد الحقّ بن عطية الأندلسى ٢٩٠/٨ .

(١٢) تفسير القرطبى ، المجلد العاشر ، ص ٩ .

(١٣) حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب :

أخرجه البخارى فى الأذان (٧٧٣) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال · انطلق النبى ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؛ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبى ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن .

(١٤) انظر : آمال المرتضى (ح ١ ص ١٤ طبعة الحلبى) .

(١٥) تفسير القاسمى ١٠-٣٧٥٢ .

(١٦) تفسير المراغى ١٤، ١٥ بتصرف .

(١٧) انظر : تفسير القاسمى ١٠-٣٧٥٣، وتفسير النسفى ٢-٢٧١.

(١٨) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب - الجزء ١٤ - صفحة ٢١٣٤ .

(١٩) تفسير القاسمى ١٠-٣٧٥٣ .

(٢٠) تفسير ابن عطية ، المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى ٣٠٢/٨ ، مطبعة الدوحة ١٩٨٥م .

(٢١) ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٢) من حديث ابن عمر قال : قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « اللهم ، اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب .

(٢٢) تيسير التفسير للقرآن الكريم ، للعلامة الفقيه/ محمد بن يوسف أطفيش ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومى والثقافة ٤٠٤/٦ .

(٢٣) تفسير أبى السعود ، وتفسير القاسمى ٥٥/١٠ ، وانظر: التفسير الوسيط ، تفسير سورة الحجر ، د. محمد سيد طنطاوى ٤٤/٨ .

(٢٤) ناركم جزء من سبعين جزءا :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « ناركم جزء من سبعين جزء من نار جهنم » ، قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، قال: « فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها » .

(٢٥) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٩٦) ، من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » .

(٢٦) تفسير ابن عطية ٣١٦/٨ ، بتصرف .

(٢٧) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٤٠٣/٤ .

(٢٨) يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٣٥) ، وأحمد (١٠٧١١) ، من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ؛ أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا » .

(٢٩) اتقوا فراسة المؤمن :

رواه الترمذى فى التفسير (٣١٢٧) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ » . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

(٣٠) انظر : تفسير ابن كثير ، وقد ورد الحديث فى رواية البخارى وغيره .

(٣١) قسمت الصلاة بينى وبين عبدى :

رواه مالك فى الموطإ كتاب النداء للصلاة (١٨٩) ، ومسلم فى الصلاة (٣٩٥) ، وأبو داود فى الصلاة (٩٩٩) ، والترمذى فى التفسير (٢٩٥٣)، وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٤) ، وأحمد فى مسنده (٧٢٤٩) ، من حديث أبى هريرة .

(٣٢) مثلى ومثل ما بعثنى الله كمثل رجل أتى قوما :

أخرجه البخارى فى الرقاق (٦٤٨٢) ، وفى الاعتصام (٨٢٨٣) ، ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٣) ، من حديث أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل ما بعثنى الله كمثل رجل أتى قوما ، فقال : رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم » .

(٣٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ، والتفسير المنير لوهبة الزحيلى .

(٣٤) تفسير القاسمى ٧٠/١٠ .

(٣٥) تفسير الكشاف للزمخشرى ٣٩٨/٢، مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

(٣٦) تفسير الكشاف ، وتفسير الطبرى .

(٣٧) تفسير ابن كثير .

(٣٨) تفسير ابن عطية ٣٥٧/٨ طبع على نفقة الشيخ/ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر .

(٣٩) تفسير ابن عطية باختصار .

(٤٠) تفسير الفخر الرازى ٢٢٠/١٠ بتصرف .

(٤١) انظر : تفسير الفخر الرازى ٢٢٠/١٠-٢٢١ .

(٤٢) صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا :

رواه البخارى فى الجمعة ح(١١١٧)، والترمذى فى الصلاة ح (٣٧١)، وأبو داود فى الصلاة ح (٩٥٢)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح(١٢٢٣) ، والنسائى فى قيام الليل ح (١٦٦٠)، وأحمد ح (١٩٣١٨)، من حديث عمران بن حصين .

(٤٣) تفسير ابن عطية ٣٦٢/٨ ، طبع على نفقة أمير دولة قطر .

(٤٤) تفسير الفخر الرازى ٢٢٢/١٠، ٢٢٣، دار الفكر – لبنان ، وتيسير التفسير للعلامة/ محمد بن يوسف أطفيش ص ٤٥٥، سلطنة عمان .

(٤٥) اللام فى ﴿ لتركبوها ﴾ للتعليل ، و ﴿ زينة ﴾ مفعول لأجله معطوف على محل ﴿ لتركبوها ﴾ .

(٤٦) الإبل عز لأهلها والغنم بركة :

رواه ابن ماجة فى التجارات (٢٣٠٥) ، من حديث عروة البارقى يرفعه ، قال : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخير معقود فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة » . ويشهد للشطر الأخير منه ما رواه البخارى فى الجهاد ح (٢٦٣٨)، (٢٦٤٠)، وفى فرض الخمس ح (٢٨٨٧)، وفى المناقب ح (٣٣٧٢)، ومسلم فى الزكاة ح (١٦٤٨)، وفى الإمارة ح (٣٤٧٩)، (٣٤٨٠)، أبو داود فى الجهاد ح (٢٥٣٢)، والترمذى فى فضائل الجهاد ح (١٥٦٠) ، والنسائى فى الخيل ح (٣٥٠٥)، (٣٥٠٦) ، وابن ماجة فى الجهاد ح(٢٧٧٨)، وأحمد ح (٤٨٥٦)، (٤٩٥٣)، (٥٥٠٨)، والدارمى فى الجهاد ح (٢٣١٩)، (٢٣٢٠)، من حديث عروة البارقى ، وأنس ، وأبى هريرة ، وابن عمر ، وجرير . بلفظ : « الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(٤٧) مقتبس من (فى ظلال القرآن) للمرحوم سيد قطب فى تفسير الآية .

(٤٨) انظر : تفسير الآلوسى ، وتفسير المراغى ، والتفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوى .

(٤٩) فى تفسير الفخر الرازى مزيد من التوضيح .

(٥٠) تيسير التفسير ، محمد بن يوسف أطفيش ، سلطنة عمان .

(٥١) تفسير الفخر الرازى ١٤/٢٠ ، دار الفكر العربى بيروت ، وتفسير المراغى ٦٥/١٤ .

(٥٢) تفسير الفخر الرازى بتصرف ١٥/٢٠ .

(٥٣) تفسير الفخر الرازى ١٦/٢٠ ، بتصرف وتقديم وتأخير .

(٥٤) يجاء بالجبارين والمتكبرين رجالا فى صور الذر يطؤهم الناس :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج أحمد فى الزهد عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يجاء بالجبارين والمتكبرين رجالا فى صور الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله ، حتى يقضى بين الناس ، ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار. قيل : يا رسول الله ، وما نار الأنيار؟ قال : « عصارة أهل النار » .

ورواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٩٢)، وأحمد فى مسنده (٦٦٣٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبىﷺ قال: « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان ، فيساقون إلى سجن فى جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٥٥) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر :

رواه مسلم فى الإيمان (٩١) ، والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) ، من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : «إن الله جميل يحب الجمال ؛ الكبر : بطر الحق وغمط الناس » ورواه أبو داود فى اللباس ٤٠٩٢ من حديث أبى هريرة .

(٥٦) قصة إسلام أبى ذر :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٢٢، ٣٨٦١) ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٧٤) من حديث أبى جمرة قال : قال لنا ابن عباس : ألا أخبركم بإسلام أبى ذر قال : قلنا: بلى قال : قال أبو ذر : كنت رجلا من غفار فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبى فقلت لأخى : انطلق إلى هذا الرجل كلمه وأتنى بخبره ، فانطلق ، فلقيه ، ثم رجع فقلت : ما عندك ، فقال : والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر ، فقلت له : لم تشفنى من الخبر فأخذت جرابا وعصا ، ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم ، وأكون فى المسجد ، قال : فمر بى على ، فقال : كأن الرجل غريب قال: قلت: نعم، قال . فانطلق إلى المنزل قال: فانطلقت معه لا يسألنى عن شىء ولا أخبره ، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرنى عنه بشىء قال : فمر بى على ، فقال : أما نال للرجل يعرف منزله بعد ، قال : قلت: لا ، قال: انطلق معى ، قال: فقال: ما أمرك ، وما أقدمك هذه البلدة ، قال : قلت له : إن كتمت على أخبرتك ، قال : فإنى أفعل قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبى فأرسلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر فأردت أن ألقاه ، فقال له : أما إنك قد رشدت هذا وجهى إليه فاتبعنى ، ادخل حيث أدخل ، فإن رأيت أحدا أخافه عليك ، قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى وامض أنت فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبى ﷺ فقلت له : اعرض على الإسلام فعرضه ، فأسلمت مكانى ، فقال لى : « يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل » ، فقلت: والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال: يا معشر قريش إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فقاموا ؛ فضربت لأموت ، فأدركنى العباس ، فأكب على ، ثم أقبل عليهم فقال، ويلكم تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار ، فأقلعوا عنى ، فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بى مثل ما صنع بالأمس ، وأدركنى العباس ، فأكب على ، وقال مثل مقالته بالأمس ، قال : فكان هذا أول إسلام أبى ذر رحمه الله .

(٥٧) من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه :

رواه مسلم فى العلم (٢٦٧٤)، وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٦)، والدارمى فى المقدمة (٥١٣)، وأبو داود فى السنة (٤٦٠٩)، وأحمد (٨٩١٥)، والترمذى فى العلم (٢٦٧٤)، من حديث أبى هريرة . ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٢٠٥)، من حديث أنس

إلا أنه بلفظ: « أيما داع دعا إلى ضلالة فاتُبِع ؛ فإن له مثل أوزار من اتبعه ، ولا ينقص من أوزارهم شيئا ، وأيما داع دعا إلى هدى فاتبع ؛ فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئا » .

(٥٨) التفسير المنير ، د. وهبة الزحيلى ١١٤/١٤ ، بتصرف ، وزيادة ، ونقصان .

(٥٩) يا أم حارثة ، إنها جنان فى الجنة :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٠٩) ، وفى الرقاق (٦٥٦٧) ، والترمذى فى التفسير (٣١٧٤) ، من حديث أنس بن مالك: أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبى ﷺ ، فقالت: يا نبى الله ، ألا تحدثنى عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب ، فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء قال: يا أم حارثة، إنها جنان فى الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

(٦٠) تفسير الفخر الرازى ٢٤/٢٠ .

(٦١) إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها :

رواه مسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٨) ، وأحمد فى مسنده (١١٨٥٥) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » .

(٦٢) الطبرى ١٠١/١٤ .

(٦٣) التفسير الكبير ٢٥/٢٠ .

(٦٤) لن يدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا: ولا أنت ! :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يدخل أحدا عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال: « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب » .

(٦٥) (البحيرة) : الناقة ، كان أهل الجاهلية يبْحِرون أذنها ، أى : يشقونها ويجعلون لبنها للطواغيت ، فلا يحتلبها أحد من الناس ، وجعل شق أذنها علامة لذلك ، (والسائبة) ، الناقة تسيب بنذر على الرجل ، إن سلمه الله من مرض ، أو بلّغه منزلة ، فلا تحبس عن رعى ولا ماء ، ولا يركبها أحد ، قال تعالى: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ...﴾ . (المائدة: ١٠٣) .

(٦٦) تفسير المراغى ٨٠/١٤ .

(٦٧) تفسير الفخر الرازى ٢٩/٢٠ .

(٦٨) إنما مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٨٣) ، ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٤) ، والترمذى فى الأمثال (٢٨٧٤) وأحمد فى مسنده (٢٧٣٣٣) من حديث أبى هريرة : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما مثلى ومثل الناس ، كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ

بحجزكم عن النار ، وهم يقتحمون فيها » ، ورواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٥) ، وأحمد في مسنده (١٤٤٧١) ، من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم ، كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى » .

(٦٩) يشتمنى ابن آدم :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح (٣١٩٣) ، والنسائى فى الجنائز ح ٢٠٧٨، واللفظ له ، وأحمد ح ٨٨٧٠ .

(٧٠) تفسير ابن كثير .

(٧١) يريد: أنه باع ماله ، حيث تركه للكفار ، واشترى نفسه ، قال المفسرون: وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ﴾ . (البقرة:٢٠٧) .

(٧٢) تفسير الفخر الرازى ٣٥/٢٠ .

(٧٣) المرجع السابق .

(٧٤) تفسير الفخر الرازى ٣٦/٢٠ .

(٧٥) ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه :

رواه أبو داود فى السنة (٤٦٠٤) ، والترمذى فى العلم (٢٦٦٤) ، وابن ماجة فى المقدمة (١٢) ، والدارمى فى المقدمة (٥٨٦)، وأحمد فى مسنده (١٦٧٢٢) من حديث المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » وقال الترمذى : حسن غريب . ورواه أبو داود فى السنة (٤٦٠٥) ، والترمذى فى العلم (٢٦٦٣)، وابن ماجة فى المقدمة (١٣) ، وأحمد فى مسنده (٢٣٣٤٩)، من حديث أبى رافع عن النبى ﷺ قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٢١) ، وأحمد فى مسنده (٨٥٨٣) ، من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « لا أعرفن ما يحدث أحدكم عنى الحديث هو متكئ على أريكته ، فيقول : أقرأ قرآنا ما قيل من قول حسن فأنا قلته » .

(٧٦) تفسير ابن عطية ، مطبعة قطر الدوحة ١٩٨٥م ، ٤٢٥/٨ .

(٧٧) كان خلقه القرآن :

رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦) عن زرارة بن سعد بن هاشم بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله فقدم المدينة. فأراد أن يبيع عقارا له بها . فيجعله فى السلاح والكراع ، ويجاهد الروم حتى يموت . فلما قدم المدينة ؛ لقى أناسا من أهل المدينة ، فنهوه عن ذلك ، وأخبروه : أن رهطا ستة أرادوا ذلك فى حياة نبى الله ﷺ . فناهم نبى الله ﷺ ، وقال : « أليس لكم فىّ أسوة؟ » ، فلما حدثوه بذلك راجع امرأته، وقد كان طلقها . وأشهد على رجعتها . فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ؟ فقال ابن عباس : ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : من ؟ قال: عائشة . فأتها فاسألها . ثم ائتنى فأخبرنى بردها عليك ، فانطلقت إليها، فأتيت على حكيم بن أفلح . فاستلحقته إليها فقال : ما أنا بقاربها ؛ لأنى نهيتها أن تقول فى هاتين الشيعتين شيئا فأبت

فيهما إلا مضيا . قال : فأقسمت عليه ؛ فجاء ، فانطلقا إلى عائشة فاستأذنا عليها ؛ فأذنت لنا ، فدخلنا عليها ، فقالت: أحكيم؟ (فعرفته) فقال: نعم . فقالت: من معك؟ قال : سعد بن هشام . قالت: من هشام ؟ قال: ابن عامر . فترحمت عليه . وقالت خيرا (قال قتادة وكان أصيب يوم أحد) فقلت: يا أم المؤمنين ؟ أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ، قلت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى . قالت: فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن . قال: فهممت أن أقوم .. الحديث .. وأحمد مختصراً ح (٢٣٤٦٠)، (٢٤١٣٩)، (٢٤٦٢٩) .

(٧٨) تيسير التفسير للقرآن الكريم ، للعلامة / محمد بن يوسف أطفيش ، مطبعة التقدم ، إبراهيم عبد الوهاب يوسف ٤٤ شارع القصر العينى القاهرة ، لحساب سلطنة عمان . (والتامك) السنام (والقَرِد) بفتح فكسر ، ما تلبد من الصوف ، (والنبع) شجر يتخذ منه الأقواس، (والسَفَن) بفتحتين حديدة ينحت بها ، ويطلق على المبرد، اهـ. ويقال : تخوّف مال فلان الإنفاق ، أى : تنقصه .

(٧٩) تفسير سورة النحل ، د. محمد طنطاوى ص ١٠٠ .

(٨٠) موصولة مبتدأ متضمنة معنى الشرط ، ﴿فمن الله﴾ خبرها .

(٨١) تفسير سورة النحل ، للدكتور/ محمد السيد طنطاوى ، ص ١٠٩ .

(٨٢) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ، ص ٣٥٣ .

(٨٣) مختصر تفسير ابن كثير : محمد على الصابونى ، دار القرآن الكريم ٢/٣٣٥ .

(٨٤) اسقه عسلا :

رواه البخارى فى الطب (٥٦٨٤، ٥٧١٦) ، ومسلم فى السلام (٢٢١٧)، والترمذى فى الطب (٢٠٨٢) ، وأحمد فى مسنده (١٠٧٦٢)، من حديث أبى سعيد: أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : أخى يشتكى بطنه ، فقال : « اسقه عسلا » ، ثم أتى الثانية فقال : « اسقه عسلا » ، ثم أتاه الثالثة فقال : « اسقه عسلا » ثم أتاه فقال : قد فعلت ، فقال : « صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا » فسقاه فبرأ .

(٨٥) انظر : صفوة صحيح البخارى للشيخ/ عبد الجليل عيسى أبو النصر فى شرح حديث البخارى عن عسل النحل ، وتفسير فتح البيان للشيخ/ صديق خان ، وتفسير سورة النحل للدكتور/ محمد سيد طنطاوى ص ١٣٠ .

(٨٦) صدق الله وكذب بطن أخيك :

تقدم ص (٢٦٨٠) .

(٨٧) الشفاء فى ثلاثة: شربة عسل :

رواه البخارى فى الطب (٥٦٨٠، ٥٦٨١) ، وابن ماجة فى الطب (٣٤٩١)، وأحمد فى مسنده (٢٢٠٩) ، من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الشفاء فى ثلاثة: شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهى أمتى عن الكى» .

(٨٨) إن كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شربة عسل :

رواه البخارى فى الطب (٥٦٨٣، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤) ، ومسلم فى السلام (٢٢٠٥) ، وأحمد فى مسنده (١٤٢٩١)، من حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شربة عسل، أو شرطة محجم، أو لذعة من نار وما أحب أن أكتوى » .

(٨٩) الإسلام والطب الحديث للأستاذ الدكتور/ عبد العزيز إسماعيل باشا .

(٩٠) اللهم ، إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٢٣)، وفى الدعوات (٦٣٦٧) ، ومسلم فى الذكر (٢٧٠٦) ، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنهم قال: كان النبى ﷺ يقول : « اللهم ، إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من عذاب القبر » . ورواه البخارى فى الجنائز (١٣٧٧)، ومسلم فى المساجد (٥٨٨)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم قال : كان رسول الله ﷺ : يدعو ويقول: اللهم ، إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » .

(٩١) حبب إلى الطيب والنساء :

رواه النسائى (٣٩٤٠، ٣٩٣٩) ، وأحمد (١١٨٨٤، ١١٨٨٥، ١٢٦٤٤) ، من حديث أنس بن مالك . قال : قال رسول الله ﷺ حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عينى فى الصلاة » . قال العراقى: رواه النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضعفه العقيلى ، قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم وقال الحافظ العراقى: إسناده جيد ، وقال ابن حجر : حسن ، وأعلم أن المصنف جعل فى الخطبة حم رمزًا لأحمد فى مسنده ، فاقتضى ذلك أن أحمد روى هذا فى المسند وهو باطل ، فإنه لم يخرجه فيه وإنما خرجه فى كتاب الزهد فعزوه إلى المسند سبق ذهن أو قلم. قلت: وكلام المناوى فيه نظر فإن الحديث رواه أحمد فى مسنده كما تقدم من حديث أنس بن مالك وذكره فى ثلاث مواضع، فتأمل .

(٩٢) النساء شقائق الرجال :

رواه أبو داود فى الطهارة(٢٣٦) ، والترمذى فى الطهارة (١١٣) ، وأحمد فى مسنده (٢٥٦٦٣) ، من حديث عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاما ، قال: « يغتسل» ، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولا يجد البلل، قال « لا غسل عليه » فقالت أم سليم: المرأة ترى ذلك أعليها غس ؟ قال « نعم ، إنما النساء شقائق الرجال » ، ورواه الدارمى فى الطهارة (٧٦٤) ، من حديث أنس قال : دخلت على رسول الله ﷺ أم سليم ، وعنده أم سلمة ، فقالت : المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل فقالت أم سلمة : تربت يداك يا أم سليم فضحت النساء ، فقال النبىﷺ منتصرًا لأم سليم : « بل أنت تربت يداك إن خيركن التى تسأل عما يعنيها ، إذا رأت الماء فلتغتسل » ، قالت أم سلمة: وللنساء ماء ؟! قال : « نعم ، فأنى يشبههن الولد إنما هن شقائق الرجال » . ورواه أحمد فى مسنده (٢٦٥٧٧) ، من حديث أم سليم قالت : كانت مجاورة أم سلمة زوج النبى ﷺ فكانت تدخل عليها فدخل النبى ﷺ فقالت أم سليم : يا رسول الله ، أرأيت إذا رأت المرأة أن زوجها يجامعها فى المنام ؟ أتغتسل ، فقالت أم سلمة : تربت يداك يا أم سليم فضحت النساء عند رسول الله ﷺ ، فقالت أم سليم: إن الله لا يستحى من الحق وإنا نسأل النبى ﷺعما أشكل علينا خير من أن نكون منه على عمياء فقال النبى ﷺ لأم سلمة، « بل أنت تربت يداك ، نعم يا أم سليم عليها الغسل ، إذا وجدت الماء » فقالت أم سلمة : يا رسول الله ، وهل للمرأة ماء ؟! ، فقال النبىﷺ : « فأنى يشبهها ولدها هن شقائق الرجال » .

(٩٣) فى ظلال القرآن .

(٩٤) من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى

لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» . قلت: تفرد به البخاري وهو من رواية خالد بن مخلد وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد.

(٩٥) لك العتبى حتى ترضى :

هذا اللفظ جزء من حديث : « اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ..» الحديث ذكره الهيثمي في المجمع ٣٨/٦، وقال : «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

(٩٦) إن أهل النار إذا جزعوا من حرها :

قال السيوطي في الدر : وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية : إن أهل النار إذا جزعوا من حرها واستغاثوا بضحضاح في النار، فإذا أتوه تلقاهم عقارب ، كأنهن البغال الدهم ، وأفاع كأنهن البخاتي ؛ فضربنهم ، فذلك الزيادة .

(٩٧) اقرأ علي – أحب أن أسمعه من غيري :

رواه البخاري في التفسير (٤٥٨٢) وفي فضائل القرآن (٥٠٥٠، ٥٠٥٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠) ، والترمذي في التفسير (٣٠٢٤) ، وأبو داود في العلم (٣٦٦٨)، وابن ماجة في الزهد وأحمد في مسنده (٤١٩٤) ، (٣٥٤١، ٣٥٩٥، ٤١٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود .

(٩٨) ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه :

تقدم ص (٢٦٦٢) .

(٩٩) فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء :

رواه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وابن ماجة في المقدمة (٤٢) ، والدارمي في المقدمة (٩٥)، وأحمد في مسنده (١٦٦٩٤)، من حديث العرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

(١٠٠) من حلف على يمين :

رواه مسلم في الأيمان (١٣/١٦٥٠)، والترمذي في النذر والأيمان (١٥٣٠) وقال : حديث أبي هريرة حديث صحيح ، والنسائي في الكبرى في الأيمان والكفارات (٢/٤٧٢٢) ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٧٧) ، والنسائي في الكبرى في الأيمان والنذور (٤/٤٧٢٤) ، كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(١٠١) أخلص العمل ؛ فإن الناقد بصير :

لم أره هكذا إنما ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٢١٩) بلفظ: إن أمامكم عقبة كئود لا يجوزها المثقلون . وعزاه للحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء ، وقال : صحيح .

(١٠٢) يقول ابن آدم : مالي مالي :

رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٤٢)، وفي التفسير (٣٣٥٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦١٣)، وأحمد

في مسنده (١٥٨٧٠)، من حديث عبد الله بن الشخير قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ، قال : « يقول ابن آدم: مالي مالي ، قال : هل لك يا ابن ءادم من مالك إلا ما أكلت ؛ فأفنيت ، أو لبست ؛ فأبليت ، أو تصدقت ؛ فأمضيت ». ورواه مسلم في الزهد (٢٩٥٩)، من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يقول العبد : مالي مالي ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكلف؛ فأفنى ، أو لبس ؛ فأبلى ، أو أعطى ؛ فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب ، وتاركه للناس » .

(١٠٣) إن الصدقة توضع في يد الله :

رواه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، وفي التوحيد (٧٤٢٩)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤)، والترمذي في الزكاة (٦٦١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥)، وابن ماجة في الزكاة (١٨٤٢)، والدارمي في الزكاة (١٦٧٥)، وأحمد في مسنده (٨١٨١، ٨٧٣٨، ٩١٤٢، ٩٢٨١، ٩٧٣٨، ١٠٥٦٢)، من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تصدق أحد بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله عز وجل إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمان عز وجل بيمينه ، وإن كانت تمرة ؛ فتربوا في كف الرحمان ، حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله » ، واللفظ للنسائي ورواه أحمد في مسنده (٢٥٦٠٤)، من حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة ، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله ؛ حتى يكون مثل أحد » .

(١٠٤) من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة :

رواه أحمد (١٦٥٦٧)، من حديث سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير بأرض الروم ، وكان بينهم وبينه أمد فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، إن رسول الله ﷺ قال : «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها ، حتى ينقضي أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء » ، فبلغ ذلك معاوية؛ فرجع ، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة .

(١٠٥) في ظلال القرآن ٩٧/١٤، طبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى .

(١٠٦) اللهم ، قنعني بما رزقتني :

قال السيوطي في الدر : وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وصححه البيهقي في الشعب من طرق، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال : القنوع ، قال : وكان رسول الله يدعو: «اللهم ، قنعني بما رزقتني ، وبارك لي فيه ، وأخلف على كل غائبة لي بخير » .

(١٠٧) طوبى لمن هدى للإسلام :

رواه الترمذي في الزهد ، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٤٥٣)، من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع » .

(١٠٨) قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا وقنعه الله :

رواه مسلم في الزكاة في الكفاف والقناعة (١٠٥٤) ، والترمذي في الزهد باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٤٥٢)، من حديث عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا وقنعه الله » .

(١٠٩) إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره :

رواه أحمد في مسنده (٨٧١٧)، من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضي شياطينه ، كما ينضي أحدكم بعيره في السفر » . قال المناوي في الفيض : قال الهيثمي تبعًا لشيخه الحافظ العراقي: فيه ابن لهيعة ، وأقول: فيه أيضا سعيد بن شرحبيل وأورده الذهبي في الضعفاء ، وعده من المجاهيل ، وفي الميزان قال أبو حاتم: مجهول وموسى ابن وردان ضعفه ابن معين ووثقه أبو داود .

(١١٠) كل إنسان معه شيطان :

رواه الترمذى فى الرضاع باب ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات (١١٧٢)، وأحمد (١٣٩١٣)، والدارمى فى الرقاق باب الشيطان يجرى مجرى الدم (٢٧٨٢)، عن مجالد عن الشعبى عن جابر بلفظ: لا تلجوا على المغيبات ، فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ، قلنا: ومنك ، قال : ومنى ، ولكن الله أعاننى عليه : فأسلم ، قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد تكلم بعضهم فى مجالد بن سعيد من قبل حفظه وسمعت على بن خشرم يقول: قال سفيان بن عيينة فى تفسير قول النبى ﷺ : « ولكن الله أعاننى عليه ؛ فأسلم » يعنى: أسلم أنا منه ، قال سفيان: والشيطان لا يسلم . ورواه البخارى فى الاعتكاف (٢٠٣٨، ٢٠٣٩)، وفى بدء الخلق (٣٢٨١)، وفى الأحكام (٧١٧١)، ومسلم فى السلام (٢١٧٥)، وأبو داود فى الصوم (٢٤٧٠)، وفى الأدب (٤٩٩٤)، وابن ماجة فى الصيام (١٧٧٩)، وأحمد فى مسنده (٢٦٣٢٢)، من حديث على بن الحسين ، ومن حديث صفية ، كان النبى ﷺ فى المسجد وعنده أزواجه فرحن فقال لصفية بنت حيى: لا تعجلى حتى أنصرف معك وكان بيتها فى دار أسامة فخرج النبى ﷺ معها فلقيه رجلان من الأنصار ، فنظرا إلى النبى ﷺ ثم أجازا وقال لهما النبى ﷺ : تعاليا إنها صفية بنت حيى، قالا: سبحان الله يا رسول الله ! قال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم وإنى خشيت أن يلقى فى أنفسكما شيئا » . ورواه مسلم فى السلام (٢١٧٤) ، وأبو داود فى السنة (٤٧١٩)، وأحمد فى مسنده (١٢١٨٢)، من حديث أنس أن النبى ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فجاء فقال: يا رسول الله ، من كنت أظن به فلم أكن أظن بك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم » .

(١١١) كيف تجد قلبك ؟ :

قال السيوطى فى الدر : وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردوية والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل من طريق أبى عبيدة بن محمد بن عمار ، عن أبيه قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى وذكر آلهتهم بخير ، ثم تركوه ، فلما أتى النبى قال : ما وراءك شىء ؟ قال. شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، قال : « كيف تجد قلبك؟ » قال: مطمئن بالإيمان . قال: « إن عادوا فعد » ، فنزلت. ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾. وقال أيضا: وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين: أن النبى لقى عمارا وهو يبكى ، فجعل يمسح عن عينيه ويقول: « أخذك الكفار فغطوك فى الماء فقلت كذا وكذا .. فإن عادوا فقل ذلك لهم » .

(١١٢) ابن كثير فى التفسير .

(١١٣) اللهم ، اشدد وطأتك على مضر :

رواه البخارى فى الأذان ح (٨٠٤)، ومسلم فى المساجد ح (٦٧٥)، والنسائى فى التطبيق ح (١٠٧٤)، وأبو داود فى الصلاة ح(١٤٤٢)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح (١٢٤٤)، وأحمد ح (٧٢١٩، ٧٤١٥)، والدارمى فى الصلاة ح (١٥٩٥) .

(١١٤) اللهم ، أعوذ بك أن أَضِلَ أو أُضَلَ :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٩٤)، والنسائى فى الاستعاذة (٥٤٨٦)، وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٨٤)، وأحمد فى مسنده (٢٦١٦٤) ، عن أم سلمة قالت: ما خرج النبى ﷺ من بيتى قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال : « اللهم ، أعوذ بك أن أَضِل أو أُضَل، أو أَزِل أو أُزَل ، أو أَظْلم أو أُظْلم ، أو أَجْهل أو يُجْهل على » .

(١١٥) إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٣٤، ٣٥٣٥)، ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم : أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة – قال : – فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

(١١٦) أما والله لأمثلن بسبعين منهم :

قال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن سعد ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن مردوية ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة: أن النبى ﷺ وقف على حمزة حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم ير شيئا قط ، كان أوجع لقلبه منه ، ونظر إليه قد مثل به فقال : « رحمة الله عليك ، فإنك كنت ما علمت وصولا للرحم، فعولا للخيرات ، ولولا حزن من بعدك عليك ؛ لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى ، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك » . فنزل جبريل والنبى ﷺ واقف بخواتيم النحل : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم ... الآية ﴾ . فكفر النبى ﷺ عن يمينه ، وأمسك عن الذى أراد وصبر .

(١١٧) انظر : تفسير ابن كثير ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ومناهل العرفان فى علوم القرآن للأستاذ/ عبد العظيم الزرقانى ، ومباحث فى علوم القرآن للشيخ/ مناع القطان ، وعلوم القرآن للدكتور/ عبد الله شحاتة فى موضوع: تعدد الأسباب والنازل واحد .

(١١٨) ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو :

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩، وأحمد ح ٧١٦٥، ٨٧٨٢، والدارمى فى الزكاة ح١٦٧٦، من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

★ ★ ★

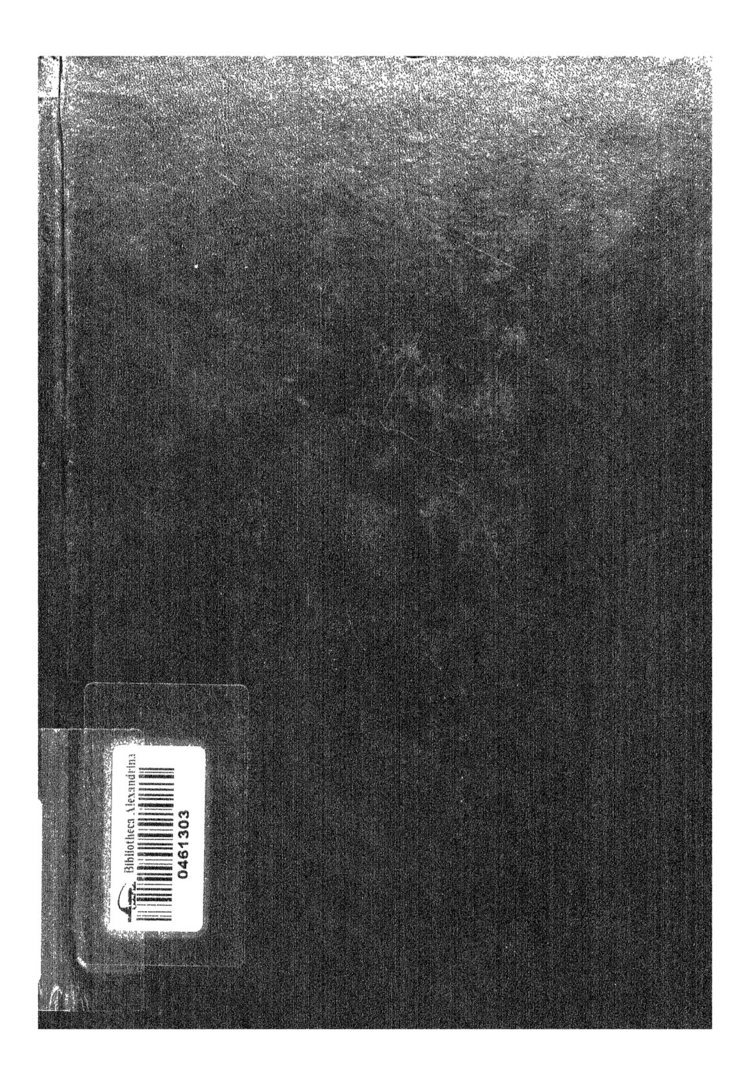
تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم الجزء (الرابع عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله تفسير الجزء (الرابع عشر)

ويليه تفسير الجزء (الخامس عشر) إن شاء الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0461303